
برنو
في عهد الأسرة الكانمية
١٨١٤ - ١٩٦٩
مصطفى أبو شعيشع
المجلس الأعلى للثقافة

المجلس الأعلى للثقافة

برنـــــو

فى عهد الأسرة الكانمية

١٨١٤ - ١٩٦٩

مصطفى أبو شعيشع



٢٠٠٩

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

أبو شعيشع، مصطفى
بـــرنو فى عهد الأسرة الكانمية ١٨١٤ - ١٩٦٩ تأليف: مصطفى أبو شعيشع
القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ط ١ - ٢٠٠٩
٢٢٤ص، ٢٤ سم
١ - برنو - تاريخ
٢ - العنوان ٩٦٦,٩٨٥

رقم الإيداع: ١٣٩٢٤ / ٢٠٠٩
الترقيم الدولى: I.S.B.N - 978- 977 - 479 - 460 - 9
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

الأفكار التى تتضمنها إصدارات المجلس الأعلى للثقافة هى اجتهـــادات أصـــحابها، ولا تعبِّر بالضرورة عن رأى المجلس.

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت: ٢٧٣٥٢٣٩٦ فاكس: ٢٧٣٥٨٠٨٤
El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo
Tel.: 27352396 **Fax:** 27358084

إهداء

إلى أستاذى الجليل،

الدكتور أحمد أحمد الحتة..

اعترافًا بفضله .

المحتويـــات

المقدمة

لم يحظ تاريخ برنو فى عهد الأسرة الكانمية بدراسة وافية حتى الآن، تلك الأسرة التى ظلت تحكم برنو فترة تزيد على قرن ونصف من الزمان، خاصة أنها الأسرة الثانية البارزة فى تاريخ برنو، فقد تمكنت من إنهاء حكم الأسرة السيفية التى ظلت تحكم برنو طوال فترة تزيد على الألف عام حتى سنة ١٨٤٦.

كانت سلطنة برنو بحكم ظروفها وموقعها هدفًا للحركات الإصلاحية التى ظهرت فى منطقة بحيرة تشاد، وفى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر تمكن الفولانيون – بسبب ضعفها – من الاستيلاء على الإمارات الهوسوية التابعة لها وكونوا إمبراطوريتهم، وهاجموا برنو نفسها بهدف ضمها إلى ممتلكاتهم، وبدا واضحًا أن برنو سوف تضم أو تدمج فى الإمبراطورية الفولانية.

فى ذلك الوقت ظهر مصلح من كانم هو محمد الأمين الكانمى، وتمكن هذا القائد أن يتزعم حركة الجهاد ضد الفولة، وأن يحافظ على استقلال برنو وأمنها.

وأمام ضعف سلاطين برنو من الأسرة السيفية لم يجد محمد الأمين الكانمى بدًا من أن يتولى السلطة فى البلاد ليجنب برنو الأخطار التى استهدفتها ويحافظ على استقلالها، ولكنه لم ينه حكم الأسرة السيفية، وإنما تركها تحكم بالاسم فقط. وخلال فترة حكم محمد الأمين الكانمى التى حدد المؤرخون بدايتها سنة ١٨١٤، حاول أن يسترد لبرنو أمجادها القديمة فحارب الفولة، وتمكن من استرداد أجزاء كبيرة من الأراضى التى استولوا عليها، وقام بحملات تأديبية داخل برنو وخارجها ضد القبائل والدول التى تمردت على حكمها.

وفى داخل البلاد عمل محمد الأمين الكانمى على تقدم برنو وازدهارها، فنشر الأمن والطمأنينة بين الناس مما أدى إلى ازدهار الزراعة والصناعة والتجارة، وكذلك شجع التعليم. واستطاعت برنو فى عهده أن تستعيد قدرًا كبيرًا من هيبتها وشهرتها القديمة.

وتمكن ابنه عمر فى سنة ١٨٤٦ من أن ينهى حكم الأسرة السيفية ويحكم برنو بالفعل والاسم. وبذلك قامت الدولة الكانمية غير أنه لم تكن لأحد من خلفاء محمد الأمين الكانمى سطوته ونفوذه، فوقعوا تحت تأثير وزرائهم الذين ازداد نفوذهم بدرجة كبيرة حتى تولوا بأنفسهم إدارة دفة الحكم فى البلاد، وسرعان ما دب الصراع بين أفراد الأسرة الكانمية للاستيلاء على السلطة فى برنو، فأخذت دلائل الفوضى فى البلاد تتزايد، ورفض سلطان زندر دفع الجزية، وقامت قبائل واداى بغارات متوالية بقصد السلب والنهب، وأصبح حال برنو يشبه البناء المتداعى حتى سقطت بالفعل فى يد الفاتح السودانى رابح بن فضل الله سنة ١٨٩٣ وسقطت بذلك الدولة الكانمية.

غير أن فتوحات رابح اصطدمت بمطامع إنجلترا وألمانيا وفرنسا وألمانيا فى المنطقة. وأخيرا لقى حتفه فى معركة ضد الفرنسيين سنة ١٩٠٠، وأعاد الفرنسيون الأسرة الكانمية إلى حكم برنو فى شخص عمر سنده بن إبراهيم ثم فى شخص بوكار بن إبراهيم المعروف باسم غرباى، غير أن هذا الأخير هرب إلى كانم بسبب عجزه عن دفع الضرائب الثقيلة التى فرضها عليه الفرنسيون، وما أن سمع البريطانيون بقصة هربه حتى أعادوه إلى حكم برنو تحت الحماية البريطانية، ونصبوه شيخا على برنو سنة ١٩٠٢.

وكان شيخ برنو يتلقى تعليماته من المقيم البريطانى فى كوكاوة الذى قام بحكم برنو حكمًا غير مباشر ، فغير قواعد حكم رابح كلها، وجعل فى كل مقاطعة حاكما إقليميا يخضع له، وتحت هذا الحاكم عدة نواب فى البوادى ووظيفتهم جميعًا لا تعدو جمع الضرائب وتقديمها للمقيم البريطانى. وهكذا كانت السلطة الفعلية فى يد البريطانيين، أما شيخ برنو فلم يبق له غير سلطته الاسمية فقط.

وفى عام ١٩٦٠ حصلت برنو على استقلالها من بريطانيا، فأصبح شيخ برنو هو الحاكم الفعلى لبلاده يمارس سلطاته السياسية والقضائية عن طريق مجلسه الذى يتكون من قضاته ومستشاريه وممثلى الضواحى. وفى عام ١٩٦٢

انضم إقليم دكوة إلى برنو وأصبح إقليمًا واحدًا تحت سلطة شيخ برنو، ولكن بعد عام ١٩٦٧ أسقطت من مجلس شيخ برنو السلطة القضائية التى احتفظت باستقلالها.

* * *

وقد قسم الكتاب إلى ستة فصول: الأول فى قيام الدولة الكانمية، والثانى فى سقوط الدولة الكانمية، والثالث فى عودة الأسرة الكانمية إلى الحكم، والرابع فى نظام الحكم فى برنو، والخامس فى حالة برنو الاجتماعية والاقتصادية، والسادس فى علاقات برنو الخارجية.

وأثبت مراجع الكتاب فى الملاحق، ومن المراجع الهامة التى أفادتنى فى موضوع بحثى كتاب "إنفاق الميسور فى تاريخ بلاد التكرور" للإمام محمد بلّو نجل الزعيم الفولانى عثمان بن فودى، ويعتبر من أبرز المصادر العربية حيث أمدنى بمادة طيبة عن جهود الشيخ عثمان بن فودى فى تجميع قبائل الفولة وكفاحه فى نشر الإسلام فى إمارات الهوسا واصطدامه بملوكها، ثم علاقة سلطنة الفولة (سوكوتو) ببرنو وأسباب تدهور هذه العلاقة، وذلك من خلال الخطابات المتبادلة بين الشيخ محمد الأمين الكانمى والزعيم الفولانى عثمان بن فودى وابنه محمد بلو.

ويعتبر كتاب (Narrative of travels and discoveries in northern& central Africa) للرحالتين الإنجليزيين دنهام وكلابرتون (D. Denham &. Clapperton) اللذين زارا برنو عام ١٨٢٣ وقابلا الشيخ محمد الأمين الكانمى آنذاك – المرجع الأصيل الذى تناول أحوال برنو الداخلية فى هذه الفترة – فقد أمدنى بدراسة وافية عن عناصر السكان وعاداتهم وتقاليدهم، ومساكنهم وملبسهم ومأكلهم، ومعيشة سلاطين برنو وعاداتهم، ونظم الحكم والإدارة، ثم علاقات برنو الخارجية.

أما كتاب (بارث – H. Barth) "Travels and discoveries in north & central Sudan" فيعتبر مكملاً للعمل الذى بدأه زميلاه دنهام وكلابرتون، حيث زار بارث برنو

عام ١٨٥١ إبان فترة حكم الشيخ عمر بن محمد الكانمى، وقد تناول هو الآخر ظروف برنو الداخلية وأحوالها الخارجية.

ويعتبر كتاب (Nigerian Perspectives) لتوماس هدجكن (T. Hodgkin) من أهم كتب التراجم بالنسبة لموضوع بحثى، فقد تناول بالدراسة والتحليل شخصية الشيخ محمد الأمين الكانمى مؤسس الأسرة الكانمية فى برنو، كما أمدنى بمادة طيبة عن الثورة الفولانية.

كما أمدنى كتاب (History of West Africa) لفيدج (J.D. Fage) بمادة وافية عن اللغات التى انتشرت فى غرب أفريقية وخاصة فى منطقة بحيرة تشاد، ولا سيما اللغة الكانمبوية (Kanembu) فى كانم، واللغة الكنورية (Kanueri) فى برنو.

ومن أهم المراجع التى اعتمدت عليها لمعرفة نظم الحكم والإدارة فى برنو فى عهد الكانميين كتاب (The shehus of Kukawa) لبرنر (L. Brenner)، وكتاب (History of Islam in West Africa) لترمنجهام (J.S. Trimínghm).

***

الفصل الأول

قيام الدولة الكانمية

موقع برنو:

تقع برنو بين خطي طول ١٠°، ١٥° شرقا وخطي عرض ١٠° ٢٠° شمالاً، وتمثل بحيرة تشاد مركزًا متوسطًا فيها. وتضيق مساحتها كلما اتجهنا غربًا. وتتسع تدريجيًا لتصل إلى أقصى اتساع لها في الوسط، ثم تضيق كلما اتجهنا شرقًا. وتجاورهما مجموعة من الإمارات كتسينة ودورًا وكانو وزرية ورانو(١).

شعب برنو:

أما شعب برنو فيرجع أصله إلى الهجرات المختلفة إلى منطقة غرب أفريقية. في الفترة الممتدة بين سنتي ٨٠٠ و ١٢٥٠ تدفقت هجرات من البربر إلى شرق بحيرة تشاد وغربها، كما انتشر في هذه الفترة شعب الزغاوة(٢) في منطقة واسعة تمتد من بلاد دارفور غربًا حتى بحيرة تشاد شرقًا(٣).

---

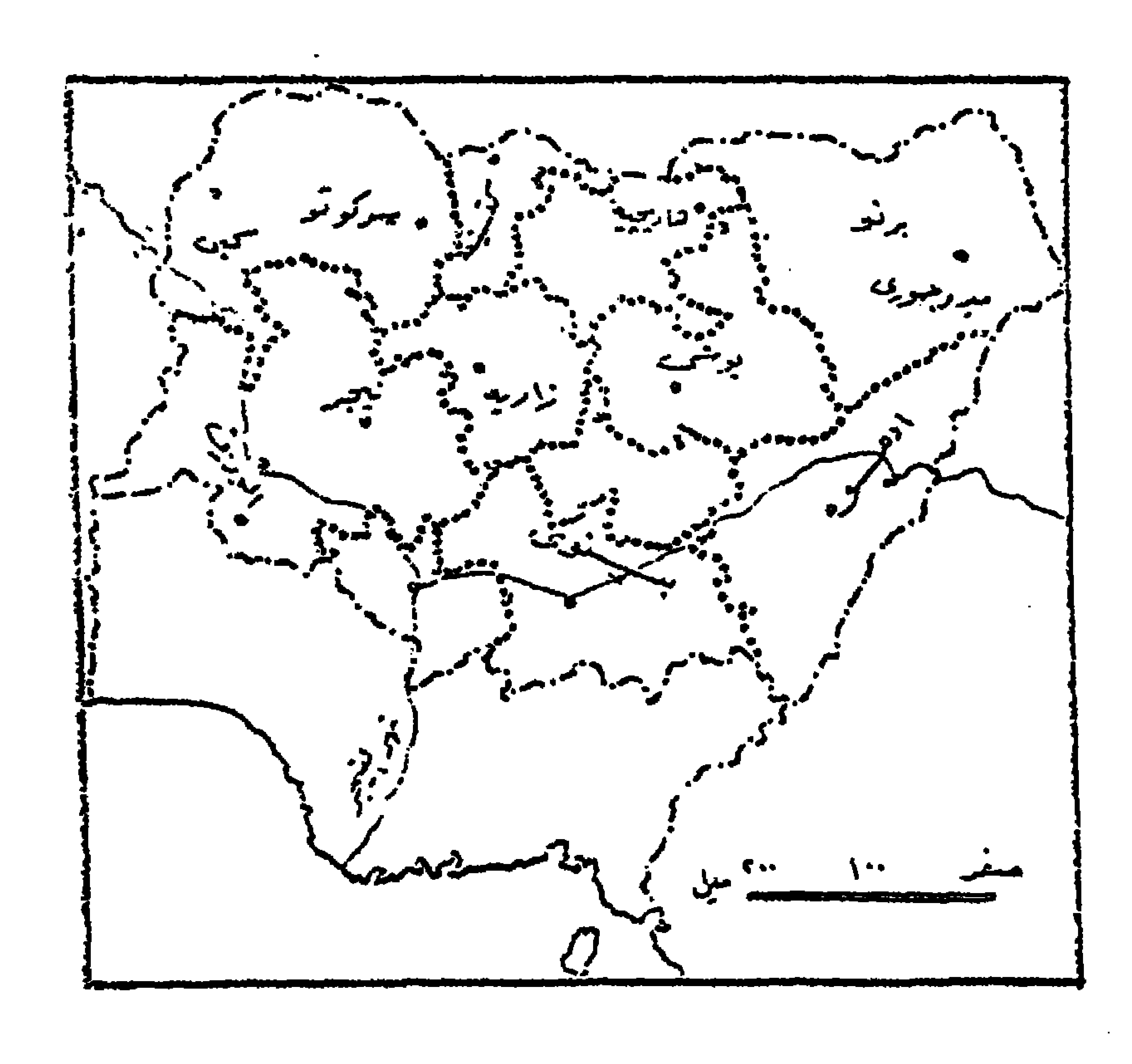
(١) انظر الخريطة المدرجة على الصفحة ١٤.

(٢) الزغاوة شعب جمع بين المؤثرات الزنجية والحامية.

- Arkell, A. J. A History of the Sudan, P. 200

- الشاطر بوصيلي عبد الجليل: تاريخ حضارات السودان الشرقي والأوسط من القرن السابع الميلادي إلى القرن التاسع عشر الميلادي. ص ٣٥٦.

(٣) حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية في أفريقية. ج١، ص ٢٣١.



نيجيريا الحديثة

Heussler, R.: The British in Nortern Nigeria, P. 110

الأسرة السيفية:

وفى نهاية القرن الحادى عشر تعرض الزغاوة لهجرة جديدة مـن الطـوارق. هجرة من التبو (Tibu) والتيدا (Tida)، وكانت هذه الهجرة، هجرة أرستقراطية حاكمـة تملك مصادر القوة والنفوذ وتستطيع عن طريقها أن تخضع شعب الزغاوة لـسلطانها. ومن هذه الهجرة الأرستقراطية ظهرت أول أسرة حاكمة سيطرت على المنطقة شـرق بحيرة تشاد، وأسست سلطنة كانم التى كان لها شأن كبير فى تاريخ السودان(١)

وادعى ملوك هذه الأسرة نسبًا حميريًا يصلهم بسيف بن ذى يزن، ويقال إن سيفا كان أول ملوك هذه الأسرة، وكان ابنه المسمى إبراهيم ثانى ملوكهـا، ولكـن كليهما قد وصفا فى السجل التاريخى لبرنو على أنهما قد توفيا فى اليمن، وإن أول ملك أقام فى حوض تشاد هو دوجو (Dugu) بن إبراهيم، وكان هو مؤسس الأسرة السيفية الحاكمة(٢).

وعلى الرغم من أن بعض الدارسين يشكون فى صحة انتماء ملوك برنو إلى سيف، إلا أن البعض الآخر يذكر أن دوجو من حفدة سيف أو علـى الأقـل كـان عضوًا من جماعة المهجرين النازحين التى استقرت فى كانم وكانت تربطها روابط ملكية، وكانت من نفس جيل حفدة سيف(٣).

ويبدو أن ظهور هذه الأسرة الحاكمة كان مرتبطًا بدخول الإسلام إلى أرض كانم، فتذكر المراجع أن حكام كانم قد اعتنقوا الدين الإسلامى قبـل نهايـة القـرن الحادى عشر. ويصف ابن خلدون أهل كانم "بأنهم خلق عظـيم والإسـلام غالـب عليهم ومدينتهم جيمى، ولهم التغلب على بلاد الصحراء حتى فزان"(٤).

---

(١) حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ج١، ص ٢٣١.

Briggs, L. C.: Tribes of the sahara, P. 124

(٢) Hallam, W.K.R: An Introduction to the History of Bornu, the Nigerian Field, Vol. XXXV. No. 4, Oct. 1970. pp. 147 - 148

(٣) حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ج١، ص ٢٣١.

(٤) ابن خلدون: كتاب العبر. ج٦، ص ١٩٩.

ابن سعيد : كتاب بسط الأرض فى الطول والعرض . تحقيق خوان فرنيط خنييس، ص ٦١.

ابن بطوطة: الرحلة . ج٢، ط٢، ص ٢٠٥

تعرضت الأسرة السيفية الحاكمة للتهديد من جانب قبائل الصو – وهى قبائل كانت تسكن منطقة بحيرة تشاد قديمًا، غير أن ملوك السيفية تمكنوا من إحراز النصر عليهم، ولكنهم لم يلبثوا أن دخلوا فى نضال شديد مع قبائل البولالا[1]، وهو النضال الذى أدى فى نهاية المطاف إلى إرساء قواعد دولة برنو غرب بحيرة تشاد[2].

بدأ النضال ضد قبائل البولالا فى القرن الثانى عشر، وانتهى الأمر بأن تمكنت هذه القبائل من أن تضيق الخناق على السلطان عمر بن إدريس أحد ملوك الأسرة السيفية (١٣٨٤ – ١٣٨٨) حتى تخلى عن كانم كلية بعد موافقة رجال العلم، فقد استولت عليها قبائل البولالا[3].

انتقل ملوك الأسرة السيفية إلى غرب بحيرة تشاد حيث برنو، ويعتبر السلطان على غازى (١٤٧٢ – ١٥٠٤) مؤسس إمبراطورية برنو، ففى عهده استطاعت إمبراطورية برنو أن تخضع البولالا الثائرين وأن تبسط نفوذها على المنطقة الواقعة شرق بحيرة تشاد وأن توحد كانم وبرنو فى إمبراطورية واحدة[4].

وتعتبر فترة حكم إدريس علوبة (١٥٧١ – ١٦٠٣) أهم فترة فى تاريخ الأسرة السيفية فلم تمض فترة طويلة على اعتلائه العرش إلا وقد أنشأ سفارة فى طرابلس، واستطاع أن يجند الكثيرين من الجنود الأشداء المسلحين بالبنادق الذين ساعدوه فى شن الكثير من الحملات لبناء الإمبراطورية وقهر أعدائها[5].

---

(١) يقال إن قبائل البولالا قد انحدرت من سلالة منافسة تنتمى إلى الأسرة السيفية الحاكمة، ويرجع تاريخ نشأتها إلى أمير كنورى هارب يعرف فى بعض الأساطير باسم بلال (Bilal وفى بعضها الآخر باسم جل (Jil) أو جليل(Jelil) . وقد تمركزت هذه القبائل شرق بحيرة فترى (Fittri) ؛ إحدى البحيرات الصغرى الواقعة فى حوض بحيرة تشاد، وسيطرت على الشعب فى تلك المنطقة، ومنها بثت نفوذها فى كافة الاتجاهات.

Collins. R.O.: African History, P. 39.

De la Blache, p.v. & Gallois, C.:Geographie Universelle, Tome XI, P. 503.

(٢) Ifemesia, C.C: States of the Central Sudan: A Thousand Years of African History: Edited By j. E.Ajayi & Others, p. 76.

(٣) Ibid. P. 77.

(٤) Meek, C. K: the northern tribes of Nigeria, Vol. I. p. 79

(٥) Barth, H: Travels and discoveries in north & Central Sudan, Vol. 2. p. 593

واتسعت الإمبراطورية في عهده حتى امتدت من واحة أثر (أهير) شمالاً إلى كانم جنوبًا، ومن مندرة شرقًا حتى كانو غربًا[1]، كما قام إدريس بكثير من الإصلاحات الاجتماعية والثقافية[2].

تطرقت مظاهر الضعف إلى برنو منذ القرن السابع عشر فصاعدًا بسبب ضعف السلاطين وانصرافهم إلى اللهو والترف، فتعرضت البلاد لغارات متصلة من الطوارق القادمين من الشمال، وأيضًا من المستوطنين الفولانيين الذين بدأوا يفدون من الغرب فى أعداد صغيرة، ثم تزايدوا بعد ذلك فاضطربت أمور الزراعة واجتاحت البلاد المجاعات والأوبئة[3].

إمبراطورية الفولة(٤):

استقر الفولانيون فى الأراضى الهوسوية[5] أربعة قرون من الزمان (من القرن الخامس عشر حتى القرن الثامن عشر)، وقد ورث معلموهم التراث والتقاليد التعليمية للجماعات الإسلامية المتدينة للنيجر فى غضون الفترة المزدهرة

---

(١) Hallam, W. K. R.: The shehu's installation eventfull, Bornu Cermony Nigeria Magazin, No. 99, Dec. 1968, p280.
Hogben, S.J. & Kirk – Greene, A. H. M.:The emirates of northern Nigeria, P.79.

(٢) - Ahmed Ibn Fartua: History of the first twelve years of history of Mai Idris Alooma; Trsanslated by H. R. palmer, p.70
أحمد شلبى: موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية. ج ٦، ص ص ٢٩٢ – ٢٩٣.
- Barth, H: op. cit, Vol. 2, P 597

(٣) – Hogben. S. J.: The Muhammadan emirates of Nigeria, P. 40.
- عبد الرحمن زكى: تاريخ الدول الإسلامية السودانية بأفريقية الغربية. ص ص ١٨٩ – ١٩٠.
- Urvoy,: Histoire de l'empire du Bornou, P. 83.

(٤) الفولة أو الفولانى أو الفلبى (مفردها بول)، اسم أطلقه هذا الشعب على نفسه، ويطلق عليهم جيرانهم أسماء تربو على المائة ؛ أشهرها فلا وفولانى.
- حسن إبراهيم حسن: انتشار الإسلام والعروبة فيما يلى الصحراء الكبرى. ص ٧٦.

(٥) أطلق اسم الهوسا بصفة عامة على جميع القبائل التى تعيش فى شمال نيجيريا، ومن أبرزها قبيلة كيباوا (Kebbawa). ويبدو أن عنصر الهوسا قد باد، فلم تبق إلا لغته التى يتحدث بها عدد كبير من القبائل ويعتبرونها لغتهم القومية. وقد ظهرت فى هذه المنطقة (شمال نيجيريا الحالية) سبع إمارات هوسوية أصلية هى: كانو، ورانو وزرية، ودورا، وكتسينة، وزمفرة، وغوبر. ثم أضيفت إلى هذه الإمارات السبعة الأصلية: إمارة الهوسابنزا أو البانزا باكواى، ولم تكن هذه الإمارة هوسوية صرفة ، وإنما تأثرت بنفوذ الهوسويين. وقد خضعت كل هذه الإمارات الهوسوية لبرنو فى عهد السلطان إدريس علوبة سلطان برنو (١٥٧١ – ١٦٣٠) واستمر الوضع كذلك حتى استولى عليها الفولة فى بداية القرن ١٩.
- Burns, Sir Alan: History of Nigeria, pp. 46 - 47

لإمبراطوريتى مالى[1] وصنغى[2]. وبهذا أصبحوا زعماء الجماعات الإسلامية فى الإمارات الهوسوية[3].

كان يشار إليهم فى الأراضى الهوسوية بالبنان كرجال علم، كما أنهم اكتسبوا مناصب عليا فى بلاط الملوك وأصبح كثيرون منهم على درجة كبيرة من الثراء. وفى نهاية القرن الثامن عشر كان لنفوذهم السياسى والاقتصادى المتزايد فى الإمارات الهوسوية أكبر الأثر فى دفع الحكام المحليين إلى السخط وعدم الرضا، ولاسيما بعد أن كونوا طبقة من طليعة حركات الإصلاح الدينى هاجمت انخفاض مستوى التعليم فى الإمارات الهوسوية[4].

وهكذا تنوعت واختلفت علاقات الفولانيين مع الملوك الهوسويين تبعًا للتفاوت فى درجات تمسك أولئك الملوك بالإسلام. ولكن كانت هناك فترات من الشدائد والأزمات مردها إلى أن السلطات الحاكمة فى تلك الإمارات، كانت فى جوهرها من تلك التى تؤمن بأن الأرواح[5] حَالَةٌ بالنبات والحيوان[6].

وفى عام ١٧٧٥ بدأ معلم فولانى بارز فى غوبر يقال له عثمان بن فودى أو عثمان دان فوديو ينشر أفكارًا مؤداها أن إسلام ملوك الهوسا ودولهم ليس هو

---

(١) تقع مالى بين بلاد برنو شرقا والمحيط الأطلسى غربًا وجبال البربر شمالاً، وكانت تشتمل على خمسة أقاليم هى: مالى وصوصو وغانة وكوكو وتكرور. وقد اعتنق ملوكها الإسلام فى القرن ١٣ حيث وصلوا أقصى قوتهم.
- إبراهيم على طرخان: دولة مالى الإسلامية. ص ٢٥.

(٢) كانت صنغى دولة بارزة ومعروفة منذ القرن ٨ حتى القرن ١٦، وشعبها قد احتل عبر العصور التاريخية الدول الواقعة على ضفتى النيجر الأوسط.
- Burns, sir Alan: op. cit, p. 46

(٣) Ibid. PP.51 – 52

(٤) Fage, J.D.: A History of West Africa, An Introductory Survey, P. 149

(٥) مذهب الروحيين أو عباد الطبيعة، وهو المذهب الذى يقضى بأن لكل شىء فى الكون روحًا أو نفسًا، وهذا المذهب من وجهة نظر تاريخ الأديان يشير إلى الاعتقاد فى وجود الكائنات الروحية، بعضها يلتصق بالأجسام التى تكون الشخصية الحقيقية (النفس)، وبعضها الآخر بدون ارتباط ضرورى بأجسام محددة (الأرواح).
- D'Alviella. G: Animism; Encycolopedia of Religion and Ethics, Vol. 1. P. 85
- المذهب الحيوى أو حيوية المادة فى الانثروبولوجيا ؛ هو النظرية القائلة بأن الأرواح متصلة بجميع الأشياء إما لأنها مبادئ لأفعالها أو لأنها تسكن فيها.
- أبو العلا عفيفى وآخرون: مصطلحات الفلسفة. ص ٣.

(٦) Fage, J.D: op. cit, p. 149.

الإسلام الصحيح النقي، وإن الحاجة ماسة إلى إيجاد إصلاحات سريعة لرد الدويلات الهوسوية إلى حظيرة الإسلام والشريعة الإسلامية(١).

ولقد كان عثمان يشعر بالامتعاض تجاه الأسلوب الذى ركن إليه رجال الدين من الفولة لتراخيهم فى مقاومة الشعائر الوثنية التى كانت متبعة فى بلاد الهوسا، كما كان يشعر بالكراهية تجاه الأسلوب الذى كان يعامل به رجال الدين الفولانيين بواسطة حكام الهوسا الوثنيين، كما كان يشتعل حماسًا لتوسيع مجال نشر تعاليم الشريعة الإسلامية بين الناس(٢).

وينتسب هذا المصلح إلى شعوب الفولانى التى خرجت من أوطانها فى منطقة السنغال وتسربت بطيئًا نحو الشرق فى سهول السودان. وهو ينحدر من أسرة من هؤلاء كان وطنها الأول فى منطقة فوتاتورو ثم انطلقت فى ركاب المهاجرين حتى دخلت سهول نيجيريا وأقامت فى بلاد الهوسا(٣).

فى هذه البيئة ولد عثمان بن محمد بن فودى فى قرية طفل بإمارة غوبر سنة ١٧٥٥ كان بيته بيت علم وتقوى، أسلم أجداده منذ زمن طويل، وتفقه أبوه فى الدين واشتغل بالعلم واشتغل به بيته كله، زوجته وبناته وأولاده، فشب عثمان فى هذه البيئة المتدينة، فأولع بالعبادة والذكر، ونشأ نشأة دينية خالصة، ثم بدأ يخطو خطواته الأولى فى طريق العلم والثقافة(٤)

تلقى عثمان بن فودى فى أغاديس (Agades) حيث درس وتعلم تحت إشراف العالم المشهور جبريل بن عمر الذى كان متأثرًا بأفكار الإصلاح التى كانت تسود العالم الإسلامى آنذاك، مثل أفكار الوهابيين. وكان تعليمه واسعًا شمل علوم النحو والشريعة والفقه والتفسير والبلاغة والشعر، مما ساعده على الرد بالحجة والمنطق على المرتدين عن الإسلام(٥).

---

(١) Ibid. pp.149 – 150.

(٢) Trimingtiarm. J. S.: AHistory of Islam in West Africa, 199.

(٣) – Smith, H.F.C.: Usumanu dan fodio , eminet nigrians of the nineteenth Century, p. 59

- حسن أحمد محمود. المرجع السابق، ج١، ص ٢٥٨

(٤) نفس المرجع ص ٢٥٨ – ٢٥٩.

(٥) – Crowder. M: The Story of Nigeria. P. 93.

- حسن أحمد محمود. المرجع السابق، ج١، ص ٢٥٩.

ولما بلغ مبلغ الشباب وأوتى حظه من النضوج الفكرى والعقلى، هاله حال المسلمين فى بلاد الهوسا، فهم يمارسون العادات الوثنية دون تحرج ويقلدهم العامة ويتشبهون بهم(١) فكانت الرشوة أمرًا شائعًا ومألوفًا فى الأراضى الهوسوية، حتى أن القضاة كانوا يقبلون الرشاوى. وكان المسلمون يجبرون على الانضمام للخدمة العسكرية، ليؤدوا أعمالاً تتنافى مع تعاليم دينهم، فقد كانت جيوش أمراء الهوسا تغير على السكان الآمنين وتسلبهم أموالهم. وكانت الضرائب الفادحة وغير الشرعية تفرض على الشعب، وكانت من أكثر متاعب الشعب ومصدر شكواه من حكامه بصفة خاصة. كما كان البدو من الفولانيين يسأمون ويعانون من الضرائب التى تفرض على مواشيهم(٢).

وعندما رأى عثمان أن الدين بدأت تشوبه البدعة وتجلله الخرافة. رحل إلى بلاد الحجاز، وذهب إلى مكة فى الوقت الذى انتشرت فيه الدعوة الوهابية وذاعت مبادئها فى الإصلاح، وحققت قدرًا كبيرًا من النجاح بالتحالف الذى تم بينها وبين آل سعود(٣).

خالط عثمان دعاة الوهابية(٤) واستمع إليهم، وتشرب مبادئهم وتحمس لها، فأيقظت فى نفسه الرغبة الملحة فى أن يحارب البدع فى بلاده ولكن فى نطاق المذهب المالكى، كما حاربها الوهابيون فى بلادهم. وقويت فى نفسه الرغبة فى إيقاظ مسلمى أفريقية من خمولهم وحياتهم الدينية المقفزة. وبمجرد أن استكمل تعليمه عاد إلى دجل (Degel) فى غوبر حيث أصبح معلمًا(٥).

---

(١) Hogben. S.J.:op. cit. P. 73.

(٢) حسن أحمد محمود. المرجع السابق، ص ١، ص ٢٥٩.

(٣) أرنولد، توماس: الدعوة إلى الإسلام. ص ٣١٠

(٤) قام بها الشيخ محمد عبد الوهاب خلال القرن ١٨، وهى دعوة أساسها إحياء المبادئ الإسلامية الصحيحة.

- عبد الكريم الغرايبة: قيام الدولة السعودية. ص ٣٥؛ صلاح العقاد: المشرق العربى المعاصر. ص ٥٤٢؛ حافظ وهبة: جزيرة العرب فى القرن العشرين.ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠.

(٥) Crowder, M.: op. cit, P. 80

بدأ عثمان بن فودى رسالته كما بدأها الوهابيون أول الأمر، دعوة إلى الدين بالحسنى والموعظة. فأخذ يدعو إلى بساطة الإسلام ويحض الناس على التمسك بمبادئه والتخلص من البدع. وبدأت حلقات الطلاب الملتفين حوله تتسع بالتدريج. ثم حض على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وتاب على يديه خلق كثير، وتزايد عدد أنصاره ومريديه(١)

وما أن كثر أتباع عثمان بن فودى وذاعت شهرته حتى انتقل إلى المرحلة التالية من دعوته، وهى وعظ الأمراء وإرشادهم. ولعله كان يريد أن يحقق ما حققه ابن عبد الوهاب من قبل من إتمام التحالف بين الوهابية وآل سعود. فاتجه إلى أمير غوبر، وكان لا يزال على الوثنية فدعاه إلى الإسلام الصحيح، فاستجاب له أول الأمر وأسند إليه الفتوى والإرشاد بمجلسه وجعله معلمًا لأطفاله. فاكتسب عثمان نفوذًا كبيرًا فى البلاط وبين النبلاء والأشراف(٢)

وهكذا كانت ثقافة عثمان بن فودى الواسعة ومركزه كواحد من أهم الصوفيين فى الأراضى الهوسوية، هى التى جعلت له مؤهلات وسمات القائد الناجح. كما أن عمق تعليمه وشمول العلوم التى استعان بها فى تفسير أمور الدين الإسلامى لطلابه والملتفين حوله، زادا من مريديه وأتباعه. وجعلا حركته على مستوى ذهنى وروحى أعلى وأسمى مما توفر للجماعات الإسلامية الأخرى(٣).

غير أن بعض العلماء الحاقدين، قاموا يعايرونه لاتصاله بالملك، ويتهمونه بالرياء والسعى إلى الجاه والسلطان، ووشوا به عند الملك، فوقعت بينهما جفوة، سافر بسببها الشيخ عثمان إلى بلاد زمفرة وكبى، حيث قضى خمس سنوات فى الدعوة إلى الإسلام، فاعتنقه على يديه عدد كبير من الوثنيين كما تاب على يديه

---

(١) حسن أحمد محمود. المرجع السابق، ج١، ص ٢٦٠.

(٢) محمد بلو: إنفاق الميسور فى تاريخ بلاد التكرور. ص ٩٥.

- مصطفى محمد مسعد: الإسلام وحركات الفولان فى غرب إفريقية. مجلة جامعة أم درمان الإسلامية، ع١، ١٩٦٨، ص ١٢٧.

(٣) Adeley, R.A.: power & Diplomacy in Northern Nigeria, P. 12.

عدد من المرتدين. وقد فتح فى نفس الوقت مجالاً واسعًا للمراسلات مع رجال الدين من الفولة عبر الأراضى الهوسوية(١).

وحيث إن دعوته اكتسبت أتباعًا عديدين، فإن هذا الوعظ اتخذ فى نهاية الأمر فى نظر أمير غوبر صورة التحدى المباشر لنظامه وأسلوبه فى الحكم والسلطة(٢).

لذلك اتخذ نافاتا حاكم غوبر من التدابير ما يلزم لمناهضة دعوة عثمان بن فودى، وأصدر مرسومًا يقضى بالسماح فقط لأولئك الذين يولدون مسلمين بإتباع الدين الإسلامى. أما أولئك الذين اعتنقوا الإسلام حديثًا فيعودون إلى دين آبائهم وأجدادهم(٣).

غير أن نافاتا حاكم غوبر مات عام ١٨٠٢ وخلفه إلى العرش ابنه يونفا (yunfa) الذى كان أحد تلاميذ الشيخ. ورغم ذلك كان فى ضيق شديد من نفوذ معلمه القديم الذى زاد بدرجة كبيرة، كما كان قلقًا بصفة خاصة من أفكاره التقدمية الداعية إلى الإصلاح. ومن ثم فقد اتخذ إجراء حاسمًا ضد الاستمرار فى تحول شعبه إلى الدين الإسلامى، فمنع الرجال من ارتداء العمامة، كما منع النسوة من ارتداء الحجاب(٤).

ويبدو أن هذا التدخل كان سياسيًا بحتًا، لأن هذه العادات هى التى تعطى حزب الشيخ الإحساس بالتماسك والارتباط المشترك الذى كان يقذف الرعب فى

---

(١) مصطفى محمد سعد. المرجع السابق، ص ١٢٧.

- Trimingham, J.S.: op. cit, P. 199.
- Fage, J.D.: op. cit, P. 149.

(٢) - Hogben, S.J & Kirk – Greene, A.H. M. The emirates of Northern Nigeria,P.112.
- Holt, P. M. & Lambton, A. S. K.: The Cmbridge History of Islam, Vol. 2, p. 368.
- Schwarz, W.: Nigeria, P. 75.
- Willis, J. R.: Johad fi Sabil Allah – its doctrinal basis century, West Africa; The Journal of History, Vol. VIII, 1967, No. 3, p. 408.

(٣) Trimingham, J.S.: op. cit, P. 139
مصطفى محمد مسعد : المرجع السابق، ص ١٢٨

(٤) Crowder, M.: op. cit, 93 - 94

قلوب ملوك غوبر. وعلى هذا الأساس يصبح من الواضح أن هجمات عثمان بن فودى قد أنصبت على قلب سلطة يونفا. كما أن الإجراءات المضادة للإسلام والتى اتخذها يونفا كان الغرض منها منع عثمان – المصلح – من اكتساب المزيد من الأتباع حوله. ولم يكن العداء بين الطرفين فى الواقع هو العداء بين المؤمن والكافر. ولكن كان عداء بين مصلح تحررى وبين رجعى يسعى إلى إنهاءالخلاف بينه وبين عثمان بن فودى سعيًا وراء حكومة مستقرة(١).

ويؤكد البعض أن كلا القائدين كانا – على ما يبدو – على دراية ووعى كامل بالنتائج والعواقب الوخيمة التى قد يؤدى إليها الصدام المسلح بينهما. فمن ناحية كان لا بد ليونفا أن يدرك أنه – وإلى جانب التهديد الذى شكله الفولانيون المسلمون على المستوى المحلى – لم يكن بوسعه الاعتماد على صداقة كمبى. كما كانت زمفرة – وعلى مدى أربعة قرون من الزمان – فى تمرد صريح، بينما كان عداء كتسينة التقليدى ضد غوبر يستقر ويشتد يومًا بعد يوم. وفى ظل وجود هذين الجارين (كبى وزمفرة) كحليفتين للفولانيين، لم يكن من المعقول أن يغفل يونفا مغامرة القيام بعمل أو إجراء عاجل. أما من ناحية الشيخ عثمان، فقد كان واضحًا له أن أتباعه لم يكونوا على درجة قوية من الاستعداد العسكرى والحربى(٢).

ولكن نيران الحرب اندلعت بين الطرفين وبعد واقعة حدثت، فعندما قابل عثمان مجموعة من سجناء وأسرى الحرب يقتادون إلى السجون ولما لاحظ بينهم بعضًا من أتباعه مكبلين بالأصفاد والقيود أمر بتحريرهم وفك قودهم. عندئذ ثارت ثائرة يونفا واعتبر ذلك التصرف تعديًا من عثمان على سلطانه(٣).

وعلى أثر ذلك التدخل من جانب عثمان، نشأت هوة كبيرة من الخلاف بين الملوك الهوسويين وبين الشيخ عثمان منذ عام ١٧٩٥ فصاعدًا. مما حدا بهم أن

---

(١) Ibid., p. 94.

(٢) Adeleye, R.A.:op. 23.

(٣) -Trimingham, J.S.: op. cit. P. 198

– Smith, M. G.: the Jihad of Shehu Dan Fodio: Some Problems; Islam in Tropical Africa, edited by I.. M. Lewis, p. 415

يتخذوا من الأساليب الفعالة ما من شأنه أن يردع حركة الشيخ عثمان ويجعلها تتقلص. فدبر يونفا مؤامرة فاشلة للتخلص من الشيخ عثمان بعد أن رآه خطرًا يهدد عرشه، رغم أن الشيخ عثمان كان يصرح دائمًا بأنه لن يتدخل بين أى فرد ورئيسه، ولن يكون سببًا للفتنة والفرقة، كما حاول الشيخ عثمان جهد طاقته أن يتجنب إثارة القلاقل والنزاع. بيد أن المتاعب والاضطرابات أخذت فى التفاقم وأصبحت على أشدها، فقد أدى فشل الملك فى التخلص من الشيخ عثمان، إلى ازدياد عدد أنصاره وتلاميذه، وغدا فى نظر معاصريه بطلاً قوميًا(١)

طلب الملك من الشيخ عثمان أن يغادر البلاد وحيدًا إلا من أطفاله وزوجاته وذويه، على ألا يرافقه أحد من أتباعه، وأن يفض أتباعه ويفرقهم، حتى لا يؤلب عليه رعاياه، وينتقص من سيادته. فأجاب الشيخ قائلاً "لن أفض أنصارى ولكنى سوف أنصرف مع أى منهم ممن يودون مرافقتى وليتخلف من شاء أن يتخلف منهم"(٢)

وفى ٢٣ فبراير سنة ١٨٠٤ خرج الشيخ عثمان بن فودى بصحبة فريق من أتباعه المخلصين مهاجرين إلى بلدة جودو وعلى أطراف الصحراء، ونادى الشيخ فى أنصاره معلنًا الهجرة من دار الكفر إلى دار الهجرة(٣).

استطاع الفولانيون بعد أن نظموا صفوفهم – بمعاونة أهل زمفرة الذين كانوا على عداء مستمر مع غوبر – أن يحرزوا النصر على ملك غوبر وحلفائه من الطوارق وكان ذلك فى ٢١ يونيو سنة ١٨٠٤. وكان هذا النصر حاسمًا فى تأثيره على الفولانيين الساخطين فى جميع بقاع الأراضى الهوسوية. وعقب انتصار الفولة على سلطان غوبر كتب الشيخ عثمان إلى سلاطين الهوسا يعرض عليهم دعوته ويناشدهم مساعدته ضد سلطات غوبر. ولكن دعوته لم تجد لها صدى(٤).

---

(١) -Hodgkin, T Nigerian Perspectives, p. 193
- Bovill, E.W.:The Golden Trade of the moors, .p.225

(٢) - Hodgkin,T. : op. cit., p. 193

(٣) - Smith, M. G. : op. cit., p. 416

(٤) -Cissoko, Sekènè – Mody: Historire de l Afrique Occidentale, p. 275
- Urvoy, Y. : op. cit., p. 150

فتح انتصار الشيخ عثمان على ملك غوبر عيون سلاطين الإمارات الهوسوية على مدى خطر الدعوة الإسلامية التى تتسم بالجهاد والنضال والتى استهدفت حكمهم. فأرسل سلطان غوبر إلى إخوانه زعماء كتسينة وكانو وزرية ودورا وأهير – رسائل يحذرهم فيها من أنه أهمل إطفاء شرارة من النار فى إمارته حتى اتسعت رقعة تلك الشرارة، وأصبحت فوق احتمالات قدراته بحيث لم يقو على السيطرة عليها. ولما كان عاجزًا عن إخمادها فقد التفت حوله الآن لتحرقه فليتخذ كل زعيم حذره حتى لا تقع طامة مماثلة[١].

شنّ العديد من سلاطين الهوسا هجومهم على أنصار الشيخ عثمان الذين كانوا يعيشون فى إمارات أولئك السلاطين. ونتج عن هذا الهجوم، أن انضم إلى أنصار عثمان العديد من الفولانيين، الذين لن تؤثر فيهم أصداء دعوته أول الأمر، والذين كان من الممكن أن يظلوا غير منتبهين إليها[٢].

وفى نهاية عام ١٨٠٤، وعلى أثر انتصار الفولة على جيش غوبر، أعلن عثمان بن فودى الحرب على سلاطين الإمارات الهوسوية يحثهم على اتباع التعاليم الصحيحة للإسلام. وفى عام ١٨٠٥ أقام عثمان معسكرًا دائمًا فى سابون كارى(Sabon Qari) التى تقع على بعد عشرين ميلاً شمالا زمفرة. حيث استقبل وفود الفولانيين من جميع بقاع الشمال. وأعطى لكل قادة الوفود علمًا يباركهم ويدعوهم إلى تخليص الدولة من الكفار، وإرساء قواعد الإسلام فى جميع أنحاء الأراضى الهوسوية[٣].

ولعب الفولانيون المحليون دورًا هامًا فى دفع حركة الجهاد، فكلما هب سلطان هوسوى لمساعدة سلطان آخر على الشيخ عثمان وجماعته، أسرعت الجماعة الملتفة حوله لاتخاذ موقف حازم ضد هذا السلطان فتحمله على التخلى عن عزمه[٤].

---

(١) Trimingham. J.S.: op. cit, PP. 198 – 199
(٢) Trimingham, J.S.: op. cit, P. 199
(٣) Crowder, M.: oP. cit, pp 95 – 96
(٤) Ibid., p. 94

ويذكر المؤرخون أن الهوسويين قاوموا الفولة مقاومة باسلة ولكنها غير منسقة، فسقطت كل من كبى وزرية عام ١٨٠٥ فى يد الفولة، كما سقطت كتسينة عام ١٨٠٧، ثم سقطت دورا، وأخيرا الكالاوا (Alkalawa) عاصمة غوبر فى عام ١٨٠٨، وكانت أعتى الحصون. أما زمفرة التى أصبحت وحيدة بسبب هجمات القوات الفولانية على قراها – فقد انضمت إلى غوبر التى كانت تناصبها العداء قديمًا مع كبى، فى محاولة لقمع حركة ابن فودى. ولقد نجح هذا التحالف فى بادئ الأمر عندما هزم الفولانيين فى الواسا (Alwassa)، واستولى على كل الأراضى تقريبا التى سبق أن استولى عليها الفولانيون فيما عدا جواندو (Gwandu) التى أصبحت مقر قيادة الفولانيين. ورغم كل هذه الانتصارات، أصبح ملوك غوبر – على ما يبدو – غير قادرين على مقاومة القوات الفولانية[1]. ولم تكد تحل سنة ١٨١٠ حتى كانت جميع إمارات الهوسا السبع قد خضعت لسلطان الشيخ عثمان وجماعته[2]. وحيث إن عثمان بن فودى كان رجل علم ودين ولم يكن مهتمًا بالأمور السياسية العملية، فقد اعتزل الحياة السياسية، واكتفى بالزعامة الروحية[3].

ولذا فقد عهد بإدارة حركة الجهاد وإدارة دفة الحكم فى الإمبراطورية الوليدة إلى ابنه محمد بلّو (Bello) وأخيه عبد الله وكان من نصيب بلو الشطر الشرقى من الامبراطورية، فشيد عاصمة جديدة فى سوكوتو فى منطقة الحدود بين غوبر وكتسينة وزمفرة؛ حيث كان الشيخ عثمان يتخذ منها مقرًا له أثناء حركة الجهاد. بينما كان عبد الله القاطن فى جواندو (Gwandu) التى تبعد بضعة أميال غربى كبى مسؤولاً عن الشطر الغربى من الامبراطورية. وأما الشيخ عثمان نفسه فقد استمر فى سوكوتو حتى موته عام ١٨١٧[4].

(١) Bovill. E.W.: The golden trade of the moors. P. 231.
(٢) Horgereaves. J.D.:Preludeto the partition of west Africa.p.5.
(٣) Dec hamps: H. et des atures: Histoire generale de I Afrique noire. Tome II.P.152.
(٤) .Anderson.J.D.:West africa & East Africa p.63.

الصراع بين الفولة وبرنو
وظهور محمد الأمين الكانمى:

كانت أوضح نتائج الثورة الفولانية فرض سلطة الفولانيين على منطقة كبيرة كان يحكمها عدد الأمراء المتنافسين. ولم تكن الامارات الهوسوية فقط هى التى خضعت لهذا النظام الجديد، بل حاول الفولانيون دفع حدودهم إلى مناطق أخرى من بينها برنو[١].

فقد سرى الضعف فى أوصال امبراطورية برنو فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، فأخضع الفولة أقاليم الهوسا التابعة لها، ثم رأوا أن تمتد حركتهم الإصلاحية إلى بلاد برنو[٢]. فقد بدأ الفولة يشنون الغارات عليها وفى عهد سلطانها أحمد بن على؛ الذى حكم برنو فى الفترة من عام ١٧٩٣ إلى عام ١٨١٠[٣].

وكان هذا السلطان مثقفا كريمًا، ولكنه كان خاملاً، وقد وصفه المؤرخون بأنه (أمير متعلم وأن نظرته تحررية تجاه طبقة العلماء، وأنه أكبر موزع للصدقات والزكاة، وأنه صديق للعلم والتعليم، وأنه كريم رحيم) وفى ذلك الوصف كانت تكمن الحقيقة التى أدت إلى المصير الذى انتهت إليه برنو فى آخر الأمر[٤].

ورغم حالة الضعف التى كانت عليها برنو، فقد كان لأصداء انتصاراتها القديمة أثر ملحوظ فى تردد الفولة فى الإقدام على مهاجمتها طوال عامين كاملين.

وهكذا لم يبدأ الفولة أعمالهم العسكرية ضد برنو إلا فى نهاية عام ١٨٠٤ وأوائل عام ١٨٠٥[٥]. وعندما استنجد سلاطين الهوسا بسلطان برنو لمؤازرتهم فى حربهم مع الفولة، أرسل هذا السلطان جيشًا بقيادة وزيره لمناصرة هؤلاء

---

(١) Hodgkin,T. : op. cit., p. 95

(٢) يوفر، ج: البرنو؛ دائرة المعارف الإسلامية، مج٣، ع٩، سنة ١٩٣٨، ص ٥٨٨.

(٣) Meek, C. K:op. cit., Vol. I. P. 81

(٤) Ifemesia. C.C: States of The Central Sudan P. 73

(٥) Urvoy, Y.: op. cit, P. 97

السلاطين. وعندما سمع الشيخ عثمان وأتباعه بخبر هذا الجيش، أرسلوا جيشاً قويا التقى ببعثة النجدة البرنوية فى منطقة أنغروا عام ١٨٠٥، فاقتتلوا هناك قتالاً عنيفا تم فيه النصر للفولانيين على جيش برنو، وأصيب وزير السلطان بجراح بالغة(١).

والحقيقة أن ما حدث لبرنو، حدث لغيرها من البلاد التى تعرضت للغزو الفولانى فلم يأتها الهجوم من الخارج – وإنما جاءها من الفولة الذين كانوا قد استقروا فيها منذ فترة طويلة. فما أن ترددت أنباء انتصارت الفولة على إمارات الهوسا – حتى بادر الفولانيون إلى عقد حلف مع بنى وطنهم الذين استقروا منذ القرن السادس عشر فى عدة جهات من برنو من أجل غزو البلاد. ففى عام ١٨٠٨ زحفت مجموعات الفولة داخل برنو واستولت على أيو (Awyo)(٢).

وتمكن السلطان أحمد فى بادئ الأمر من إحراز النصر على الفولة، لكنه ما لبث أن هُزم ؛ إذ بادرت أغلبية الجماعات الفولانية – بعد أن استشعرت قوة جيش برنو – إلى الاشتراك فى القتال، ونجح جونى مختار (Gowni muktar) – أحد قادة الفولة – فى الاستيلاء على نجازار جامو (N'gazargamu) عاصمة السلطان أحمد(٣).

ولكن بعد أن جمع الفولانيون الأسلاب والغنائم، عادوا إلى ديارهم تاركين وراءهم كتيبة صغيرة من الجند – حينئذ استطاع السلطان أحمد استرداد عاصمته، وتمكن من دخولها على رأس جيشه بعد أن عجزت كتيبة الجند الفولانية عن التصدى له. لكن شمل جيشه سرعان ما تشتت بالقرب من قصر أكمو، إذ عاد الفولانيون بسرعة فائقة لتعزيز قواتهم. ونجا السلطان أحمد بصعوبة – إذ فر من أحد أبواب المدينة فى الوقت الذى كان أعداؤه الفولانيون يدخلون من باب آخر. ونقل معسكره إلى (كرنوه) عام ١٨٠٨. وقد خرب الفولة قصر أكمو بعد أن أصبحوا أصحاب الشأن فيها(٤).

---

(١) Smith, H. F. C. : op. cit., pp. 62- 63

إبراهيم صالح بن يونس : تاريخ الإسلام وحياة العرب فى امبراطورية كانم – برنو، ص ١٠٧.

(٢) Urvoy, Y.: op. cit, PP. 97 - 98

(٣) Trimingham, J.S.: op. cit, P. 207

Urvoy, Y.: op. cit, P98

(٤) يوفر، ج: المرجع السابق، ص ٥٨٩.

ولكن برنو أنقذت فى هذا الوقت العصيب بفضل تدخل رجل أجنبى عن البلاد، هو محمد الأمين الكانمى، الذى ينتمى إلى أسرة من كانم. وكان يعرف بالشيخ لامينو (Lamino)(١).

نشأة محمد الأمين الكانمى:

كان يدعى الأمين بن محمد الأمين الكانمى(٢) أو محمد الأمين بن محمد الكانمى أو أحمد الأمين الكانمى وهو فقيه من فقهاء الحديث وشيوخه. ولد فى فزان (Fezzan) من أبوين كانميين(٣)، فكان والده محمد ننجا (Ninga) معلمًا متدينًا فزانيًا، وكانت أمه ابنة أحد الفزانيين من زويلة (Zuwila) اسمه عبد الجليل(٤) وقد صحب والده فى رحلة للحج، فزار المدينة ثم رحل إلى فاس ثم مصر(٥).

تأثر الكانمى إلى حد كبير بعلماء القاهرة ومكة والمدينة والقدس الشريف وفاس، حيث تلقى تعليمه فى الأزهر الشريف لمدة خمس سنوات ثم بدا له أن يزور القدس وأقام به مدة عامين ثم أقام بمكة ثلاث سنوات، والمدينة المنورة سنتين. وبفاس خلال سنتين وخلال هذه الفترة التى تقرب من خمسة عشر عامًا درس فيها، إلى جانب فقه المذهب المالكى، العديد من فروع العلم كالتاريخ والاجتماع والسير وأخبار الدعاة وطبقات علماء الأمصار والملوك، فضلاً عن علوم التصوف الإسلامى التى أثرت فى حياته الدينية أكثر من غيرها(٦)

وبعد أن زار مصر مصر توجه إلى كانم بوصفه رجل علم ودين، وهناك اكتسب حب الناس واحترامهم بسبب حكمته وورعه واعتداله، وما طبع عليه من إحسان وخير. ثم تزوج الكانمى بعد ذلك ابنة حاكم مقاطعة نجالا (Nagalg)(٧).

---

(١) يوفر، ج: المرجع السابق، ص ٥٨٨.
(٢) انظر الملحق رقم (١)، ص ٢٠٣.
(٣) نعيم قداح: أفريقية الغربية فى ظل الإسلام، ص ٨٥
(٤) Hallam, W.K.R: op. cit., p. 164
(٥) Hogen, S. J: op. cit., p. 192
(٦) إبراهيم صالح بن يونس: المرجع السابق، ص ١٠٧.
(٧) Hallet, R.: El – Kanemi of Bornu; eminet of the nineteenth Century, p. 67

أغلفت جميع المراجع ذكر تاريخ ميلاد الكانمى، وأن كان هالت (Hallet) يذكر أن الكانمى كان يبلغ من العمر ثلاثين ربيعًا وقت ظهوره على مسرح الأحداث في برنو أى عام ١٨٠٨. ويؤكد صحة هذا الرأى ما ذكره بوفل (Bovill) من أن عمر الشيخ الكانمى كان وقت زيارة البعثة الإنجليزية لبرنو بقيادة المأجور دنهام عام ١٨٢٣ – لا يزيد على خمسة أو ستة وأربعين عامًا[١]. أى أن الكانمى قد ولد خلال العقد الثامن من القرن الثامن عشر.

جهود الكانمى ضد الغزو الفولانى عن برنو:

وقد هب الكانمى لنجدة جيرانه البرنويين فى وجه الغزاة الفولانيين، فطلب الكانمى من سكان كانم من الكانمبو والعرب العون والمساعدة[٢]. فتدفق عليه عدد كبير من المتطوعين، فدعم بهذه العناصر الجديدة قوة برنو العسكرية، كما طلب من سكان برنو أيضًا أن يقدموا العون المادى[٣].

غير أن الكانمى رأى أن الاتصالات السياسية قد تؤدى إلى إنهاء حالة الحرب بين برنو والفولة. فكتب إلى الفولة مستفسرًا عن سبب قتالهم فى برنو، فأجابوه بأن أهلها ليسوا على الإسلام وإنهم يناصرون كفار الهوسا فى قتالهم ضد الفولة المسلمين. وقد حاول الكانمى أن ينهى حالة الحرب بين برنو والفولة، ولكن الفولة أصروا على موقفهم[٤]، فلم يجد الكانمى مفرًا من ردهم بالقوة.

فبدأ القتال ومعه خمسة من الفرسان ومائتان من المشاة المسلحين بالرماح، ثم انضم إليه الكثيرون من المتطوعين، وتمكن من هزيمة الفولة من موقعة بالقرب من نكرنو سنة ١٨١٠. وبهذا حرر القطاع الشرقى من برنو كله، ومكن السلطان

---

(١) Bovill،E.W.:The Niger explored.p. 95

(٢) Hallet. R.: op.cit. p 68

(٣) ابراهيم صالح بن يونس: المرجع السابق، ص ١٠٤

(٤) محمد بلو: المرجع السابق ، ص ١٩٢ – ١٩٧، انظر الفصل السادس

أحمد بن على من أن يدخل عاصمته من جديد. وبعد ذلك انسحب الكانمى من مسرح الأحداث[١]

وعندما توفى السلطان أحمد بن على فى عام ١٨١٠، ولى العرش من بعد ابنه دونمة الذى حكم البلاد زهاء ثمانية أعوام من ١٨١٠ – ١٨١٨ [٢]

لم يرض الفولانيون لما انتهت إليه الأمور عام ١٨١٠ فدخل المعلم إبراهيم زكى – أحد قادة الفولة – برنو مرة أخرى على رأس جيوش من كاتاجوم (Katagum) وهاديجية (Hadejia). وفى نفس الوقت هاجم البجرميون برنو من الشرق. وفى عام ١٨١١ استولى الفولانيون على جازار جامو للمرة الثانية[٣]. وحاول دونمة أول الأمر أن يستأنف القتال وحده ضد الفولة، ولكنه هُزم واضطر للاستعانة بمحمد الكانمى[٤]. وقد استأنف محمد الأمين الكانمى القتال بمعاونة سلطان برنو عام ١٨١٣ وهزم جيشاً فولانيًا لا يقل تعداده عن ثمانية آلاف جندى تقريبًا، واستطاع فى أقل من عشرة شهور أن ينتصر فى نحو أربعين معركة[٥]. واقتفى آثار الفولة إلى أن تمكن من استعادة جزء كبير من الأراضى التى كانوا قد استولوا عليها، وقد كف الفولة بعد هذا عن مهاجمة برنو[٦]

---

(١) Barth, H: op. cit, Vol. 2, p. 600

(٢) إبراهيم صالح بن يونس: المرجع السابق، ص ١٠٥

(٣) Hallam, W.K.R: op. cit., p. 164

(٤) يوفر ، ج : المرجع السابق، ص ٥٨٩

(٥) - Oliver, R. & Atmore, : A. : Africa since 1800, 2nd ed., p. 32
- Hodgkin,T. : op. cit., p. 206

(٦) Urvoy, Y.: op. cit, P. 101

تثبيت سلطة الكانمى فى برنو:

وفى عام ١٨١٤ قرر السلطان دونمة أن تؤول نصف إيرادات الأقاليم التى تم تحريرها من الفولة إلى الكانمى، مكافأة له على جهوده فى صد الغزو الفولانى عن برنو[١].

وقد استقر الكانمى فى بادئ الأمر فى نكرنو بالقرب من بحيرة تشاد، واستقر دونمة فى بربروا[٢]. وكان الكانمى يعمل فى نفس الوقت على تجريد الأسرة الحاكمة الضعيفة من جميع النفوذ والسلطة، فاتخذ من بحيرة تشاد ظهرًا استراتيجيًا له وجعل دونمة يستقر فى كابيلا (Kabela). وقد اعتمد الكانمى على نفر من القادة العرب الأكفاء الذين كان قد اختارهم ضمن قواته التى حاربت الفولة، وعلى أتباعه الكانميين من شرق تشاد، وما لبث أن اكتسب ثقة الطبقة الأرستقراطية فى برنو[٣].

ويذكر بوفل أنه منذ ذاك الوقت أصبح لبرنو حاكمان: محمد الأمين الكانمى صاحب النفوذ الفعلى، ودونمة الذى كان يحكم بالاسم فقط. ولكن الأمور لم تدم طويلاً على هذا الحال ؛ إذ لم يكن الشعب قادرًا على أن يطيع سيدين فى وقت واحد، وكان عليه أن يختار واحدًا منهما. وقد التف الناس حول الرجل الذى حررهم وخلصهم من الغزو الأجنبى. فما كان من أنصار الأسرة السيفية إلا أن حرضوا السلطان دونمة على أن يتخلص من منافسه الذى سبب له المتاعب لكنه لم يستطع ؛ إذ تزايدت سلطة الكانمى يومًا بعد يوم[٤].

أثار هذا الوضع السلطان دونمة فحاول التخلص من الكانمى باغتياله ليحتفظ لنفسه بالسلطة فلم يفلح[٥].

---

(١) Ibid., p. 103
(٢) Hallam, W.K.R: op. cit., p. 167
(٣) Hogben, S.J. Kirk – Greene , A. H. M.: op. cit. 326
(٤) -Bovill, E.W.:The Niger explored.p.91
-Bovill, E.W.:The Golden trade of the moors, .p.231
(٥) Barth, H: op. cit, Vol. 2, pp. 501 – 602.

وعندما وجد الكانمى أن السلطان دونمة ما زال عنيدًا، خلعه نهائيًا وبايع الجديد بالسلطة محمدًا وهو أخو السلطان أحمد بن على وعم دونمة، إلا أن السلطان أبى هو أيضًا أن يخضع للشيخ، فجرده الكانمى من سلطانه. وأعاد دونمة إلى العرش مرة أخرى بشرط أن يقتسم معه إيرادات السلطنة [١].

ويحدد بعض المؤرخين بداية حكم الأسرة الكانمية لبرنو بسنة ١٨١٤.

ولكن الصراع على السلطة لم يكن قد انتهى فى هذا الوقت، وما كان له أن ينتهى دون إراقة الدماء[٢]. ولا شك أن محمد الأمين الكانمى – تأكيدًا لاستقاله عن الأسرة الحاكمة – قرر فى عام ١٨١٤ أن ينتقل من نكرنو ويؤسس عاصمة جديدة اختار لها موقعًا قرب بحيرة تشاد، وهى كوكاوة أو كوكة[٣].

أصبح الشيخ محمد الأمين الكانمى منذ ذلك الوقت سلطان برنو الحقيقى، إذ مال أكثر المواطنين إليه وولوه أمورهم، نظرًا لما يتمتع به من تأييد غالبية السكان بما فيهم الكنوريين، والكانميين والعرب الذين جلبهم من شرق بحيرة تشاد[٤].

لكن الأسرة السيفية الحاكمة لم تستسلم، وإنما ظلت تعمل للتخلص من الكانمى. فقد استاء السلطان دونمة مرة أخرى من موقف الكانمى، فاتصل دونمة ببوركومندا حاكم بجرمى (Burkumanda of Bagirmi)، وتآمر معه على غزو برنو، ومساعدته فى التخلص من الكانمى. ودخل جيش بجرمى برنو ودمر قصر الكانمى فى كوكاوة. ولكن البجرميين قتلوا السلطان دونمة خطأ. ففى عام ١٨١٨ عندما أغاروا على برنو – كان السلطان دونمة ينتظرهم فى معسكر بمدينة نجالا – غير أن البجرميين هاجموا ذلك المعسكر ظنًا منهم معسكر للكانمى، وقتل دونمة. وقفل الجيش البجرمى عائدًا من حيث أتى[٥].

---

(١) يوفر، ج: المرجع السابق، ص ٥٨٩.

(٢) نفس المرجع والصفحة.

(٣) Hogben. S.J. & Kirk – Green. A.H.M.: op.cit. p.329

(٤) إبراهيم صالح بن يونس: المرجع السابق، ص ١٠٦.

(٥) Barth, H: op. cit, Vol. 2, p. 602

وقد بلغت الأسرة السيفية من العجز حدًا جعل إبراهيم شقيق دونمة يتوسل إلى الكانمى – قائلاً "إن أخى قد أعطاك نصف السلطة ونصف الإيراد فى السلطنة، فاخلع علىَّ لقب السلطان، ولك أن تنتفع بالسلطة والإيراد برمته". فاستجاب له الشيخ محمد الأمين الكانمى وولاه سلطانًا سنة ١٨١٨[١].

استقر فى ذهن السلطان إبراهيم بن أحمد منذ اللحظة الأولى، أنه ليس فى استطاعته التصدى لنفوذ الكانمى، وأنه لا مفر من أن يتنازل له عن الحكم.

وفعلاً قام هذا السلطان بتسليم السلطة للكانمى عن رضا نفس وطيب خاطر، لم يقع بينهما أى خلاف. فقد أمر السلطان بأن تدفع أموال الجبايات والخراج والجزية إلى الكانمى، كما أمر كذلك بالرجوع إليه فى كافة الأمور. ولكنه احتفظ لنفسه بلقبه كسلطان رمزى للبلاد، كما أن الكانمى تعهد له من جانبه بأن يدفع إليه نفقاته كل عام[٢].

جهود الكانمى للنهوض ببرنو:

واصل الكانمى سياسته نحو تأكيد استقلاله عن الأسرة الحاكمة القديمة[٣]. وعندما تيقن أن السلطة الفعلية أصبحت فى يديه[٤]، حاول أن يعيد لبرنو سيادتها الأولى، فاستعاد من الفولة جزءًا كبيرًا من الأراضى التى استولوا عليها[٥]. ثم بذل محاولة أخيرة لينزع من الفولة القطاع الشرقى لامبراطورية سوكوتو، ويعيد بذلك لبرنو أمجادها السابقة فيما قبل عام ١٨٠٨، فدفع بقواته غربًا وطرد أمير كاتاجوم، وواصل انتصاراته على الفولة، ثم أعد جيشه للزحف على كانو (Kano) وجمعت سوكوتو قواتها لتواجه الخطر الداهم.

---

(١) -Hallam, W.K.R: op. cit., p. 167
- Palmer, R.: op.cit., p. 268

(٢) إبراهيم صالح بن يونس: المرجع السابق، ص ص ١١٠ - ١١١

(٣) يوفر ، ج: المرجع السابق، ص ٥٨٩.

(٤) Hallam, W.K.R: op. cit., p. 69

(٥) عبد الرحمن زكى: تاريخ الدول الإسلامية السودانية بأفريقيةالغربية، ص ٢٠٤.

ولكن أمير بوشى تمكن من هزيمة جيش برنو عام ١٨٢٦ فى مكـان يبعـد بضعة أميال شرقى كانو. ومن انطوت كل من سوكوتو وبرنو على نفسها(١).

واصل الكانمى سياسته الخارجية لتأمين برنو ضد أعدائها واستعادة هيبتهـا فى المنطقة، فشن منذ عام ١٨١٦ حتى عام ١٨٢٤ الحرب على إقلـيم بجرمـى. ورغم النصر الذى أحرزه، فإنه لم يستطع أن يضم هذا الإقليم إلى برنو(٢).

ولقد كان الكانمى حريصًا على إقامة علاقات طيبة مع يوسف قـره مـانلى باشا طرابلس، الذى كان دائم الإغارة على منطقة تشاد بغـرض الحـصول علـى الرقيق اللازم لجيشه، والذى كان يملك الأسلحة النارية المتطورة – ولم يكـن فـى استطاعة الكانمى التصدى له، إذ ساءت العلاقات بين برنو وطرابلس وفكر يوسف باشا فى غزو برنو(٣)

وعلى كل حال فلقد كان للحروب الناجحة التى خاضها جيش برنو بقيـادة الكانمى، أثر فعال أدى إلى انبثاق عاطفة الفتح حتى فى صدور البرنـويين. فلقـد كانت هذه الانتصارات حافزًا لهم على بذل مزيد من الجهود، فأصـبحوا يـألفون المناوشات وحرب العصابات، بصرف النظر عن الأخطار التى كانوا يلاقونها من جراء ذلك كله(٤).

وخلال السنين التى تولى فيها الكانمى السلطة الفعلية – منـذ سـنة ١٨١٤ حتى وفاته سنة ١٨٣٧ – كان يعمل للصالح العام. فنجح فى إعادة بناء الـسلطنة، وقاد عدة حملات تأديبية للقضاء على الفتن الداخلية، منها الحملة التى خاضها ضد إقليم مندرة المتمرد، واستطاع الكانمى أن يعيده إلى طاعته. وهكذا استعاد لـبلاده القانون والنظام وشجع المحافظة على سنن الدين الإسلامى ونشر التعلـيم. وعمـل على إقامة جيش وطنى مجهز بالأسلحة الحديثة، وبذل ما فـى وسـعه للنهـوض بالزراعة والتجارة، فدخل فى علاقات تجارية مع الإنجليز ليضمن إقامـة تجـارة

---

(١) Barth, H: op. cit, Vol. 2, p. 602

(٢) Bovill,E.W.:The Niger explored.pp.92 - 93

(٣) Ibid, pp. 112 - 114

(٤) Ibid, p. 112

مشروعة فى بلاده محل تجارة الرقيق التى كانت منتشرة آنذاك، والتى كان الـشيخ يمقتها بشدة لأنها تتنافى مع تعاليم دينه الإسلامى. وعمل فى نفس الوقت علـى إصدار عملة رسمية لبرنو بمساعدة إنجلترا(١).

شخصية الكانمى:

اشتهر الكانمى بالورع والتقوى وتعليم الناس، ويدلى الماجور دنهـام الـذى زار برنو عام ١٨٢٣ فى عهد الشيخ الكانمى بصورة رائعة عن "خـادم الله" ذلـك النموذج الكامل الذى اكتسب حبًا كبيرًا واحترامًا واسعًا من جانـب شـعبه بـسبب استقامته واعتداله المتناهيين، وبسبب ما انطوت عليه فطرته من إحـسان. فكـان وسيمًا حسن المظهر ينطوى وجهه على الرأفة والرحمة، وكانت عينـاه واسـعتين لامعتين، وكان معتادًا على تغطية وجهه على طريقة الطوارق. وكان حسن الهندام، بسيطًا فى غير تكليف، وكان عقله شغوفًا بحب الاستطلاع(٢).

كانت تتجمع فى شخصيته مقومات وعناصر القائد العظـيم، فكـان يتمتـع بعبقرية فذة وحكم سديد وكياسة فى التصرف. ويذكر المؤرخون أنـه كـان فـى شخصيته قدر يسير من الغرور مشوب بطموح لدرجة أنه رفض لقـب الـسلطان واكتفى بلقب الشيخ، ثم نصب محمدًا – شقيق السلطان أحمد بـن علـى – علـى العرش، وكان أول من سعى إلى تكريمه بنفسه، ثم أصر على أن يحـذو الجـيش حذوه ويقدم الاحترام لهذا السلطان. وعمل الشيخ على تشييد المقر الجديد للـسلطان محمد وهو برنى الجديد، ثم وطد نفسه فى نكرنو التى تبعد عن مقر السلطان ثلاثة أميال(٣).

---

(١) Denham, D.& Clapperton, H.: Narrative of travel & discoveries in Northern & entral Africa, p. 333.
أنظر الملحق رقم (٤) ، ص ٢٠٥.

(٢) -Hogben. S.J. & Kirk – Greene A.H.M.: op.cit. p.322
أنظر الصورة المدرجة على صفحة ٣٧

(٣) Hodgkn,: op.cit. p. 206.



الشيخ محمد الأمين الكانمى

Denham, D. & Clapperton H: op. cit. Facing Title Page.

ويذكر هدجكن (Hodgkin) أن الكانمى كان من أكثر الزعماء طموحًا، ويعد مثالاً فريدًا فى العالم الشرقى لرجل رفع نفسه إلى مستوى السلطة وهو من أصل بسيط، دون إراقة دماء أحد أو اغتياله أو إبعاد الذين وقفوا فى طريقه بواسطة القوس أو الكأس المسمم. لقد اكتسب الكانمى حب الجميع حتى أن كافة السكان آنذاك، كانوا يتوافدون عليه راغبين فى تنصيبه حاكمًا مطلق السلطة – كما كانوا راغبين فى تكوين قوة له لتعزيز تلك السلطة ؛ فمن بين العروض التى قدموها له أن يمدوه بعشرين جوادًا كل يوم حتى يمكن تكوين قوة أشد تنظيمًا[١].

اتخذ الكانمى لنفسه لقب المحرر أو المنقذ للدولة، وكانت أكبر مطامحه ترمى إلى استعادة المجد القديم لامبراطورية برنو. ولذلك نراه بعد أن طهر الدولة من الفولانيين، شرع فى إنزال العقاب بجميع الدول التى أيدت الفولانيين وعضدتهم، وكافأ الشيخ الكانمى أهل كانم وأتباعه الآخرين بالرقيق الذين تمخضت عنه تلك الحروب جزاء لما أظهروه من أخلاص وود[٢].

ورغم ما حققه الكانمى من انتصارات متعددة، فقد كان متواضعًا، فعندما زارته البعثة الإنجليزية لتوضح له الغرض من زيارتها برنو، وجدته فى غرفة مظلمة جالسًا على سجادة، ورداؤه غاية فى البساطة يتكون من ثوب أزرق وعمامة ذات شال[٣].

وكان يتمتع بذكاء واسع، فعندما أهدته البعثة الإنجليزية صندوق موسيقى (كورديون)، لم يقتنع الشيخ إلا بعد أن اهتدى إلى كيفية إدارته، وكان هذا موضع إعجاب رجال بلاطه[٤]. بل أن ذهنه كان شغوفًا بمعرفة عجائب

---

(١) Ibid.

(٢) Bovill,E.W.:The Niger explored.p.111

(٣) Hallet. R.: op.cit. p.p 70.

(٤) Bovill. E.W.: The Niger explored. P. 97.

ومعجزات الحضارة الأوروبية[1]، ولما كان يخشى دائمًا أن تتعرض برنو لأى عدوان خارجى، لذلك كانت معلومات الإنجليز عن الأسلحة النارية تستحوز على اهتمامه[2]. وقد طلب من إنجلترا إمداده بالأسلحة النارية حتى يتمكن من مواجهة أعداء برنو[3].

وقد حرص الشيخ محمد الأمين الكانمى على تطبيق قواعد الشريعة الإسلامية فى بلاده بكل دقة، فيذكر أحد المؤرخين أنه أمر بتوقيع عقوبة الجلد على أحد رعاياه، فجلد حتى مات بعد أن نال أربعمائة جلدة من سوط صنع خصيصًا من جلد الخرتيت، وذلك لمجرد الاشتباه فى كونه مقترفًا لجريمة الزنا خلال شهر رمضان[4].

ويذكر المؤرخون أن الشيخ محمد الأمين الكانمى كان شاعرًا جيدًا، كتب أنشودة رائعة عقب عودته من بجرمى سنة ١٨٢١[5]، وكتب قصيدة أخرى فى نصيحة الحكام[6]، ثم ثالثة فى التوسل بالأسماء الحسنى ومطلعها:

أيا طيب الأسماء يامن هو الله ومن لا يسمى ذلك الاسم إلا هو[7].

وقد كتب عمر التكرورى سنة ١٨٣٣ سلطان التكاررة قصيدة فى مدح الشيخ الكانمى[8].

---

(١) أنظر الملحق رقم (٤)، ص ٢٠٥.
(٢) Bovill. E.W.: The Niger explored. P. 98
(٣) أنظر الملحق رقم (٤)، ص ٢٠٥.
(٤) Brenner. L.:The shehus of Kukawa. P.57.
(٥) Hodgkin. T.:op.cit. pp.208- 209.
(٦) ابراهيم على طرخان: الإسلام واللغة العربية فى غرب أفريقية، مجلة كلية الآداب / جامعة القاهرة، (مايو) ديسمبر ١٩٦٥، ص٨٠.
(٧) آدم عبد الله الألورى : الإسلام فى نيجيريا ، ط٢. ص ٦٤
(٨) ابراهيم على طرخان: المرجع السابق، ص ٨٠.

لم يقتصر الأمر على ذلك فقد كان الكانمى دبلوماسيًا دخل فى علاقات سياسية[1] مع الدولة الجاورة، وكذلك مع الإنجليز لإقامة علاقات اقتصادية بين برنو وهذه الدول لينعش اقتصاد برنو عن طريق إحلال التجارة المشروعة مكان تجارة الرقيق التى كانت منتشرة فى المنطقة آنذاك[2].

وقد أجمع كل من زار الكانمى وقابله أو حتى سمع عنه (أنه كان ملاكًا مقارنًا بمن حوله)، فقد أخضع الكثيرين بسبب كرمه وحلمه وحبه للخير. ومع ذلك فعندما كان يستدعى لواجب الحرب، كان يبدو ثابت الجأش، ماهرًا فى القيادة. ويضيف هالت (Hallet) [أنه أمام ذلك، لا يستطيع المرء إلا أن يشعر أن الشيخ الكانمى وهو الشجاع العاقل الطيب، كان حاكمًا ممتازًا، وهو لذلك جدير بالذكرى الطيبة على الدوام [3].

الشيخ عمر[4] بن محمد الأمين الكانمى

(١٨٣٧ - ١٨٨٠):

استخلف الشيخ محمد الأمين الكانمى من بعده ابنه الأكبر عمر، ولقب بلقب الشيخ جريًا على ما كان معروفًا عن أبيه[5]. ويذكر المؤرخون أن الشيخ عمر كان غاية فى البساطة والإحسان، كما كان رجلاً له ملامح رقيقة تستريح إليها النفس، فقد كان أسمر اللون على نحو ملحوظ، ومما لا شك فيه أنه قد ورث هذا اللون عن والدته وهى أميرة من بجرمى[6]. وكان لباسه غاية فى البساطة، فكان يرتدى ثوبا

---

(١) أنظر الفصل السادس، ص ١٧٠ وما بعدها.

(٢) Hodgkin T.: op.cit. p. 210.

(٣) Hallet. R.: op.cit. p.70.

(٤) استولى عبد الرحمن شقيق عمر على السلطة فى برنو سنة ١٨٥٣ وطرد الشيخ عمر، ولكن أنصار الشيخ عمر تمكنوا من القضاء على عبد الرحمن ومكنوا الشيخ عمر من العودة إلى حكم البلاد فى سبتمبر سنة ١٨٥٤، أنظر الفصل الثانى، ص٤٨.

(٥) *Hogben. S.J. & Kirk – Greene. A.H.M.: op.cit. p.329.*

(٦) Hobgen. D.J.& Kirk – Greene. A.H.M: op. cit.p. 329.

خفيفا وبرنسًا. وكان وجهه عاريًا تماما، وهو أمر يثير الدهشة، حيث أن والده كان معتادًا على تغطية وجهه على طريقة الطوارق[١].

كان الشيخ عمر محبًا للسلم وظلت صلاته طيبة مع جيرانه، وخاصـة مـع الفولة وبجرمى[٢]. وعلى الرغم من هذا فقد كان يرمى إلى أن يحكـم الأراضـى الغربية التى فقدتها برنو عام ١٨٣٠، ولهذا استأنف فى الأعوام من ١٨٣٧ حتـى عام ١٨٤٠ الغارات ضـد جيمـارى (jemaeare) ومـسوى (Misau) ومنـاطق لير(Lare) فى كاتاجوم. وبعد ذلك تلت فترة الهدوء بينه وبين الفولة لانشغاله فـى حرب مع واداى، وبالتالى تحسنت علاقات عمر مع الفولة[٣].

إنهاء الحكم الرسمى للأسرة السيفية:

قنع الشيخ عمر أول الأمر بأن يحكم برنو باسم السلطان ابراهيم (١٨١٨ – ١٨٤٦). والحقيقة أن الشيخ عمر حكم البلاد عن طريق وزيره الحاج أحمـد ابـن تيراب الذى سيطر على عقل الشيخ وشخصيته، بل وعلى مجلس الحكم فى برنـو. والواقع أن الشيخ عمر كان فى حاجة ماسة إلى مستشار أمين ومخلص يعاونه فى موقفه الحرج فقد أضير الشيخ عمر من جراء هجوم كبير من جانب جيش واداي، بينما قامت أحزاب الأسرة السيفية فى ثورة تمرد، ولم تكتف فقط بأن تجمع حولهـا جزءًا كبيرًا من قواته التى يمكن أن يواجه بها أعداءه، ولكنها كانت محور تهديـد لوجوده. وفى نفس الوقت قام أخ من إخوته فى تنافس ضار وترأس جيشًا غفيـرًا للإغارة عليه بهدف الاستيلاء على السلطة فى البلاد[٤].

---

(١) -Kirk – Greene , A. H. M.: Barths travels in Nigeria p. 146

(٢) عبد الرحمن زكى: تاريخ الدول الإسلامية السودانية بأفريقية الغربية، ص ٢٠٧.

(٣) Ifemesia, C.C: Bornu under the shehus; A thousand years if African history, edited by J, E. Ajay; & others, pp. 294 – 295.

(٤) -Kirk – Greene , A. H. M.: op. cit, 152
- Hogben, S.G. Kirk – Greene , A. H. M.: op. cit, 30

عانى الشيخ عمر الكثير فى سبيل إخضاع ولاة الأقاليم الذين حاولوا الاستقلال. وانتهز أنصار الأسرة السيفية فرصة قيام هذه الاضطرابات، فحاولوا إعادة أسرتهم القديمة إلى ما كانت عليه من سيادة، وأن يقضوا على نفوذ الأسرة الكانمية، مستعينين فى ذلك بسلطان واداى[١]

ففى عام ١٨٤٦ – وبعد فترة سلام نسبى – تمردت الولاية الصغيرة زندر (zinder) على حكم الشيخ عمر، وانتهز السلطان ابراهيم الفرصة – وكان مستاء من الشيخ عمر الذى أنقص الراتب الذى خصصه له الشيخ محمد الأمين الكانمى إلى النصف ثم أسقطه كله بعد ثلاث سنوات[٢]. فدخل فى سلسلة من المفاوضات مع السلطان محمد الشريف سلطان واداى لغزو برنو ومساعدته فى الحصول على ملكه. وعندما تواترت هذه الأنباء إلى أسماع الشيخ عمر، أمر بوضع السلطان إبراهيم فى الأصفاد والأغلال[٣]. وأرسل الشيخ عمر قواته لمقابلة جيش واداى، ووقع القتال بين الفريقين بمنطقة الفترى[٤] وكان النصر فى جانب قوات برنو[٥].

فى ذلك الوقت اشتدت حركة اليمنوك أبو القدم الأصلحى زعيم قبائل الأصالح فى بلاد برنو، وكان صديقًا شخصيًا لسلطان واداى. وقد كانت حركته موجهة أساسًا ضد حكم الشيخ عمر. وقد حاول الاستقلال بأتباعه عن حكومة برنو، وإتخذ المنطقة الواقعة شرقى نهر شارى محلاً لإقامته، وعضده أكثر القبائل التى تسكن على شاطئ النهر. ولما أصبح لدى اليمنوك جيشًا كبيرًا، بدأ ينظم الحملات ضد حكومة برنو، وتركزت حملاته أولاً على المناطق المجاورة له، ثم امتدت إلى لوجون – وهى من الإمارات التى كانت تتبع برنو. ولقد أقلقت هذه

---

(١) عبد الرحمن زكى: الإسلام والمسلمون فى غرب أفريقية، ص ١٢١.
(٢) أنظر الفصل السادس.
(٣) إبراهيم صالح بن يونس: المرجع السابق، ص ١٢٢
- انظر الفصل السادس.
(٤) انظر ما سبق، ص (٧).
(٥) Kirk – Greene , A. H. M.: op. cit. 152

التصرفات بال الشيخ عمر. وقد ساعد على تغلغل نفوذ اليمنوك فى أنحاء البلاد، ما كانت تعانى منه برنو فى ذلك الوقت من الضعف والتفكك(١).

دعا الشيخ عمر أعضاء مجلسه ومن بينهم وزير الشيخ تيراب، واستطلع رأيهم حول حركة اليمنوك. فأشار إليه الجميع بأن يخرج لقتاله، إلا الشيخ تيراب فقد اعترض على ذلك لكثرة أتباعه، ورأى أن الحيلة أجدى من القوة للتخلص من اليمنوك. وفعلاً تمكن تيراب بحيلة ماكرة من استدراج اليمنوك هو وبعض أتباعه إلى مكان بعيد عن قواته بحجة التفاوض، وأمر جنده الذين أخفاهم بالقضاء عليه ومن معه(٢)

آثار هذا الأمر سلطان واداى، علاوة على ما كان يضمره من عداوة تجاه برنو بسبب هزيمة قواته أمام جيش الشيخ عمر، فهاجم برنو وتمكن من إحراز النصر على قواتها فى كوسيرى، وقتل فى هذه المعركة الشيخ تيراب وزير الشيخ عمر. ويبدو أن القوات المعادية كانت كبيرة جدًا حتى أن الشيخ عمر لاذ بالفرار إلى الأقاليم الغربية ونهب جيش واداى برنو وسلبها، كما أحرق كوكاوة. ولكن الشيخ عمر تمكن من تنظيم صفوف جيشه، وأجبر الأعداد الغفيرة من جيش واداى على الانسحاب، متخلية عن الهدف الذى وفدت من أجله وهو إعادة الأسرة الحاكمة القديمة إلى صولجان الحكم مرة أخرى(٣).

وخلال وجود جيش واداى فى برنو، عين سلطان واداى، على دلاتومى بن إبراهيم ابن أحمد البالغ من العمر سبعة عشر عامًا فى منصب سلطان برنو سنة ١٨٤٦. ولما ترك هذا الشاب فى أتون المعارك، لم يستطع أن يقاوم قوات الشيخ عمر. وبعد بضعة أشهر هزم وقتل على يد قوات برنو فى مكان يقال له منارج

---

(١) إبراهيم صالح بن يونس: المرجع السابق، ص ١٢٢ – ص ١٢٤.
(٢) أنظر الفصل السادس، ص ١٨٤.
- إبراهيم صالح بن يونس: المرجع السابق، ص ١٢٤ – ص ١٢٥.
(٣) – Nachitigal, C.: Sahara and Sudan, Vol. 4, PP. 222-223.
Urvoy, Y.: op. cit, P. 110

(Minarge) على نهر يوبى (Yobe)[١]. وبموته اختفى آخر ممثلى الأسرة السيفية التى حكمت البلاد ما يزيد عن الألف عام[٢]. ومنذ تلك اللحظة أصبح الشيخ عمر حاكمًا لبرنو بالاسم والفعل وبعد ذلك بقليل أعاد تشييد مدينة كوكاوة[٣].

وعلى العموم فإن تغيير الأسرة الحاكمة وتغيير العاصمة لم يطرأ من جرائه أى اختلاف فى تكوين وتنظيم برنو. فإن انتقال النفوذ الكانمى كان تدريجيًا وسهلاً عن طريق التشبع والامتصاص لا عن طريق الاعتداء[٤].

هكذا حكمت الأسرة الكانمية برنو بالفعل منذ سنة ١٨١٤ على الرغم من وجود الأسرة السيفية. فلما سقطت الأسرة السيفية أصبحت الأسرة الكانمية تحكم برنو بالفعل والاسم معًا.

***

---

(١) Ifemesia, C.C: Bornu under the shehus, P. 295.

(٢) Hogben, S.J. & Kirk – Greene , A. H. M.: op. cit, 328.

(٣) إبراهيم صالح بن يونس: المرجع السابق، ص ١٢٧.

- Al – Nagar, Urmar: the Pilgrimage tradition in West Africa, P. 79.

(٤) Hogben, S.J. & Kirk – Greene , A. H. M.: op. cit, 328.

الفصل الثانى
سقوط الدولة الكانمية

التنافس على السلطة بين الأسرة الكانمية:

بعد أن تخلص الشيخ عمر من الأخطار الخارجية التى تعرضت لها برنو والتى تمثلت فى مهاجمة واداى لها، لم يكن هناك خطر يخشى منه سوى خطر أخيه عبد الرحمن الذى كان جنديًا ممتازًا يتسم بطباع عنيفة. ولما كان عمره يقل بضعة شهور عن عمر الشيخ عمر، فقد كان يعتقد أن حقه فى اعتلاء عرش البلاد لا يقل عن حق عمر. ونظرًا لسوء سلوكه الذى اشتهر به، رفض الشيخ عمر أن يسند إليه أى منصب فى الحكومة خشية أن يسئ استخدام نفوذه فى أول فرصة تسنح له. ولهذا السبب لم يجد الشيخ عمر بدًا من أن يختار ابن وزيره السابق تيراب ليكون موضع ثقته ومستشاره الأمين بدلاً من أخيه الحقود الذى ظل ناقمًا على الشيخ عمر من جراء ذلك التصرف(١).

وهكذا كان الحاج بشيربن تيراب وزير الشيخ عمر مسؤولاً عن إدارة دفة الحكم فى برنو. ومما لا شك فيه أن سياسة هذا الوزير كان المفروض فيها أن ترمى إلى مصالحة كافة رجال البلاط بقدر المستطاع، حتى يتسنى له أن يزعزع نفوذ عبد الرحمن. ولكن يبدو أن هذا الوزير ارتكب فى هذا الصدد خطأ بينًا، إذ أن شهواته أعمته عن أداء مهمته الأساسية. فكان متطرف الولع بالنساء، فقد كان قوام حريمه يتراوح بين ثلاثمائة وأربعمائة من الجوارى.. وخشى أن ينافسه فى هذه الامتيازات أى من رجال البلاط، ولذلك لم يجعل أيا منهم يرتبط به أويرتبط هو بهم(٢).

---

(١) Kirk – Greene , A. H. M.: Barths travels in Nigeria,.p 295

(٢) Ibid.

وقد تفاقم الأمر وازداد سوءًا لدرجة أن بعضًا من الأمراء لم يكن بوسعهم أن يتلقوا أى شيء من الشيخ دون اللجوء أولاً إلى وزيره الحاج بشير بن تيراب، فقد كان صاحب السلطة العليا فى البلاد، فاشتد حقدهم عليه وكونوا جبهة معادية لحكم الشيخ عمر وجدت تأييدًا من جانب عبد الرحمن شقيق عمر، الذى كان هو الآخر يكن العداء لهذا الوزير، الذى احتل مكانة فى برنو عجز عبد الرحمن - وهو شقيق شيخ برنو - عن الوصول إليها. واستمر الوضع هكذا حتى كان عام ١٨٥٣ حين اندلعت حركة تمرد ضد حكم الشيخ عمر بزعامة شقيقه عبد الرحمن الذى أرغم الشيخ على التنازل عن سلطته، ثم نفاه إلى دكوة، وأصبح هو شيخًا على البلاد فى سنة ١٨٥٣. وبطبيعة الحال، وجد المقربون إلى عمر أنفسهم قد تجردوا من كافة ما كانوا يتمتعون به من نفوذ أو سلطان، وعين عبد الرحمن أصدقاءه المقربيين إليه فى مناصب استشارية له[١].

وقد وقعت المعارك فى بداية حكم عبد الرحمن الذى أعدم الكثيرين من مؤيدى حكم الشيخ عمر، ولم تنته الأمور عند هذا الحد، فقد اعتقل الحاج بشير ومعاونه المعلم محمد كبير قضاة عمر - بواسطة أحد رؤساء قبائل الشوة القاطنة على ضفاف نهر الشارى - عقب هربه من كوكاوة خوفًا من عبد الرحمن. وأرسل عبد الرحمن أخاه بكرًا برسالة مضمونها أن الشيخ قد أخذ على نفسه عهدًا وأقسم على القرآن بألا يوقع أى أذى أو مكروه بالرجلين، إذا ما عادا أدراجهما إلى كوكاوة. وفى بادىء الأمر رفض الحاج بشير أن يعود وقطع بأن قسم عبد الرحمن لا قيمة له، لأنه سبق أن حنث أكثر من مرة فى عهوده، أما المعلم محمد فقد اعترض على ذلك قائلاً أنهما كمسلمين لا بد أن يصدقا قسمه، وهنا وافق الوزير على العودة، ومن سوء الحظ أن مخاوف الحاج بشير كانت فى موضعها، فعندما ظهر أمام عبد الرحمن أمر عبيده بالقبض عليه وتنفيذ حكم الإعدام فيه[٢].

---

(١) - Brennre, L.: The shehus of Kukawa; A history of the Al Kanemi dynasty of Bornu, pp. 76 – 77.
Ifemesia, C.C: Bornu under the shehus, edited by J. E, Ajayi & Others, pp. 194 – 495..

(٢) – Brennre, L.:op. cit., 79 - 81

ولقد كانت فترة حكم عبد الرحمن قصيرة، فسرعان ما أدرك رجال الـــبلاط أن الأساليب الاستبدادية التى اتبعها الشيخ الجديد كانت أشد قسوة من الحماقات التى وقعت من جانب الحاج بشير. إن الاعتراض على حكم الشيخ عمر مـــن جـــانبهم، كان يكمن فى اعتماده اعتمادًا يفوق الحدود على وزيره الذى أعدم ولم يعد يـــشكل أى خطر، وبالإضافة إلى هذا فقد تسببت قسوة عبد الرحمن فى انصراف أنـــصاره من حوله. وقد اتصل بعضهم بعمر وعرضوا عليه ولاءهم واستعدادهم لتأييده فـــى جهوده لاستعادة عرشه. ومنذ ذلك الحين تطورت الأحداث تطورًا ســـريعًا. وفـــى مطلع شهر سبتمبر سنة ١٨٥٤ تمكن حزب عمر من التصدى لأنصار عبد الـــرحمن وهزيمته ثم أعدم عبد الرحمن، وأعاد عمر شيخًا على برنو.. ومنذ ذلـــك الحـــين ساس عمر أمور الحكم بلا منازعة حتى وفاته فى سنة ١٨٨٠[١].

ويجمع المؤرخون على أن الشيخ عمر كان يتسم بالاعتـــدال والاســـتقامة، ولكن كان لضعف شخصيته أكبر الأثر فى إتاحة الفرصة للمحيطين به أن يبسطوا نفوذهم عليه. فبعد موت وزيره بشير وقع الشيخ عمر تحت نفوذ وزيره الجديد عبد الكريم الذى أصبح الحاكم الحقيقى لبرنو باسم الشيخ[٢].

وقد آل الحكم بعد وفاة الشيخ عمر إلى ابنه بكر. وكان قويًا، واشتهر بالكرم والدهاء فى الحرب[٣]. فقد كان عسكريًا ذائع الصيت. وقد عهد إليه والـــده خـــلال ثمانية عشرة حكمه بتوجيه وقيادة حملة عسكرية كان النصر فى أغلبها فى جانـــب برنو. وقد كان لهذه الخطوة الكبيرة التى أولاها الشيخ عمر لابنه بكر، أثر فى خلق نوع من العداء بين بكر وشقيقه إبراهيم. وهكذا دب الشقاق الذى أساء إلى العلاقات بين والدهما وأخيه عبد الرحمن[٤].

---

(١) إبراهيم صالح بن يونس: تاريخ الإسلام وحياة العرب فى إمبراطورية كانم – برنو، ص ١٣٠.
– Brennre, L.:op. cit., - 80

(٢) Ifemesia, C. C.: op. cit., PP 295 – 596.

(٣) Ibid., p. 295

(٤) إبراهيم صالح بن يونس: المرجع السابق، ص ١٣٧.
– Brennre, L.:op. cit., 86.

وعندما توفى عمر عام ١٨٨٠ حاول إبراهيم أن ينصب نفسه شيخاً على برنو. بيد أن الأعداد الغفيرة من أتباع بكر، وما كان يحظى به من ولاء وإخلاص من جانب رجال البلاط، كل ذلك كان يؤكد أنه المرشح لتولى السلطة فى البلاد. وبالفعل خلف بكر والده الشيخ عمر فى حكم برنو(١).

وقد واجهت برنو فى عهد الشيخ بكر حالة من الكساد الاقتصادى جعلت برنو عاجزة عن دفع ديونها. وقد بذل بكر جهدا لتقويم هذا الوضع، فشجع التجار العرب على استثمار أموالهم فى برنو. ولكن جهوده قد فشلت نتيجة انخفاض حجم التجارة العابرة للصحراء الكبرى انخفاضًا كبيرًا. ولم يعد الرقيق أصنافاً تجارية مرغوبة كما كان فى السابق، بعد أن أعلنت إنجلترا عزمها على محاربة الاتجار بالرقيق. ولم تعد الضرائب العادية كفيلة بأن تحقق الثراء الذى كان يراود الشيخ ورجال البلاط والأتباع. وبمقدم عام ١٨٨٣ أصبح الموقف أكثر خطورة فى برنو، وأصبح بكر فى حاجة ماسة إلى رؤوس الأموال، مما حدا به إلى اتخاذ إجراء متطرف إلى أبعد الحدود، وهو الاستيلاء على نصف ثروة الفلاحين من المواشى والجياد والرقيق. ومات وهو يستعد للقيام بحملة ضد واداى عام ١٨٨٤(٢).

وبعد وفاة الشيخ بكر، كان هناك أربعة يتنازعون على عرش برنو هم كيارى الابن الأكبر للشيخ بكر وإبراهيم وهاشمى شقيقاه وماستاكورا عمه.

وقد ضاق نطاق النزاع عندما فشل كل من كيارى وهاشمى فى تأكيد حقوقهما فى منصب الشيخ. وقد رشح مجلس الحكم فى برنو ماستا لهذا المنصب، فقد كان الجميع يخشون إبراهيم، لأن معظم رجال البلاط كانوا من أقرب المقربين إلى بكر وكانوا يدينون له بما هم فيه من مناصب وثراء. وكانوا يتكهنون بأنهم فى ظل حكم إبراهيم – الذى اشتهر بعدائه ضد أخيه – سوف يكونون بمعزل عن موقع الحظوة والسلطة(٣).

---

(١) إبراهيم صالح بن يونس: المرجع السابق، ص ١٣٧.

Urvoy, Y.: L'histoire de lempire du Bornou, P. 127. (٢)

– Brennre, L.:op. cit.. 86(٣)

إبراهيم صالح بن يونس المرجع الابق ص ١٣٧ – ص ١٣٨

Urvoy, Y.:.:op. cit.. 127.

بيد أن إبراهيم لم يكن ينوى قبول ترشيح ماستا، ونجح فى أن يرشى الجنود الملكيين لتأييده فى قضيته. ثم طالب رجال البلاط وكبار رجال الدين بعد ذلك أن ينصبوه شيخاً، وكان له ما أراد. لكن ماستا رفض تعيين إبراهيم فى منصب الشياخة أو الاعتراف به شيخاً. وعندما وجد أنه بلا مؤيدين من رجال البلاط، نزح هو وأتباعه من كوكاوة. وتعقبه الشيخ إبراهيم وبذل محاولة لإقناعه بالخضوع والاستسلام. وقد اقتنع ماستابذلك فى أول الأمر، وقبل أن يرجع إلى كوكاوة لتأييد الشيخ الجديد. ولكن بعد وصوله إلى عاصمة برنو، أعلن عصيانه من جديد، وحاول اغتيال الشيخ إبراهيم الذى أمر جنوده بقتله[١].

وبذلك أصبح إبراهيم شيخاً على برنو بلا منازع، بيد أن العداء والكراهية السياسية سرعان ما ظهرت من جديد بين أفراد الأسرة الكانمية. فأصيبت برنو خلال فترة حكم إبراهيم (١٨٨٤ – ١٨٨٥) بحالة من الضعف وعدم الاستقرار السياسى[٢].

وبعد إبراهيم تولى السلطة فى برنو الشيخ هاشمى من سنة ١٨٨٥ إلى سنة ١٨٩٣. وهو ثالث أولاد الشيخ عمر بن محمد الأمين الكانمى، وفى عهده أصابت برنو حالة شديدة من الضعف فى جميع النواحى بسبب غارات المتمردين وهجوم المحاربين وعصيان بعض القبائل البدوية. وفى نهاية عهده سقطت برنو فى يد رابح بن فضل الله[٣].

رابح بن فضل الله وسقوط برنو:

كانت المنطقة الواقعة بين برنو ودارفور خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر بما فيها بجرمى وكانم محوراً للمنافسة بين برنو ووادای، إلا أن دول

---

(١) Brennre, L.:op. cit., 87 –

(٢) Ibid

(٣) إبراهيم صالح بن يونس: المرجع السابق، ص ١٣٨.

المنطقة بما فيها برنو وواداى كانت تعانى مـن مـشاكل سياسـية واضـطرابات داخلية[١].

ويعتبر صراع المصالح هو الموضوع الرئيسى فى المنطقـة خاصـة فـى سنوات النصف الثانى من القرن التاسع عشر حتـى عـام ١٨٨٠، فـدخلت دول المنطقة فى صراعات مدمرة فيما بينها، ثم فيما بينها وبـين القـوى الاسـتعمارية الأوروبية. ولهذا السبب كانت المنطقة برمتها فريسة للغزو بواسطة جيش أو قـوة عسكرية منظمة.

وكان هذا ما حدث على وجه الدقة للمنطقة فى عـام ١٨٨٠، عنـدما تـم غزوها من الشرق بواسطة الفاتح السودانى رابح بن فضل الله. وبمقدم عام ١٨٩٣ كان رابح قد توغل بفتوحاته حتى وصل إلى مشارف برنو[٢].

ورابح بن فضل الله صديق شخصى للزبير باشا حاكم مديرية بحر الغـزال من قبل الحكومة المصرية[٣]، والذى ساهم فى فتح بلاد دارفور، إلا أن الحكومـة المصرية اعتقلت الزبير باشا بعد أن ساورتها الشكوك فى مدى إخلاصه لها وذلك أثناء زيارته للقاهرة[٤]. فثار ابنه سليمان على الحكومة المـصرية انتقامًـا لأبيـه وانضم إليه لنفس السبب رابح بن فضل الله، الذى عنى أول الأمر بالجهاد فى نشر تعاليم الإسلام بين قبائل أفريقية الوسطى الوثنية[٥]، إلى جانب عملية النخاسة[٦].

استمر سليمان بن الزبير فى معارضة الحكومة المصرية حتى وافته رسـالة من أبيه يأمره فيها بالتسليم لها وعدم معارضتها[٧]. فلما دعاه مدير بحـر الغـزال

---

(١) Adeley, R. A.: Rabih Fadlallah 1879 – 1893: expoits and impact on political relations in central Sudan; journal of historical society, vol. V, No. 2 June 1970, pp. 223- 224.

(٢) Ibid., p. 224

(٣) شوقى الجمل: تاريخ سودان وادى النيل. ج٢، ص ١٧٥

(٤) سعد الدين الزبير: الزبير باشا رجل السودان ص ١٠٠.

(٥) إبراهيم صالح بن يونس: المرجع السابق، ص ١٤٤ - ١٤٦.

(٦) Thomson. A. A. & Middleton. D. Lungard in Africa. P. 157

(٧) مكى شبيكة: السودان عرب القرون. ص ٢٣١.

جسى باشا (Gessi Bacha) للتسليم قبل ذلك ولكن رابحًا رفض فكرة التسليم وانقسم الجيش بينهما إلى حزبين: حزب مال إلى التسليم ورئيسه سليمان، وحزب أعرض عنه ورئيسه رابح(١).

وفى صبيحة الرابع عشر من يوليو سنة ١٨٧٩ أتى سليمان إلى جسى طواعية ومعه سبعمائة من رجاله. وكان فى جيش جسى الكثير من الدناقلة والجعليين الذين كانوا يكرهون سليمان، فوشوا به إلى جسى بأن تسليمه إنما هو خدعه. فصدق جسى الوشاية، وأعد خطة للتخلص من سليمان وأقاربه. ففى صباح اليوم التالى دعاهم لتناول القهوة فى خيمته. وكان قد أوعز لبعض جنوده فأحاطوا بالخيمة ثم خرج منها، ودخل بعضهم وأوثقوا سليمان وأقاربه، وأطلقوا عليهم النيران(٢). وعلى أثر ذلك انسحب رابح فى الاتجاه الجنوبى نحو بحر الغزال على رأس ما يقرب من ألف رجل من الموالين، بعد أن فشل فى حث سليمان وأتباعه محذرًا إياهم من مخاطر تسليم أنفسهم لجسى. وسرعان ما أصبح أتباع رابح نواة جيش حقيقى كان بمثابة تهديدلكافة الدويلات المتاخمة والشعوب التى تقطن غرب وجنوب بحر الغزال(٣).

ويبدو أن مقاصد رابح بعد توطيد مركزه فى بحر الغزال، كانت ترمى إلى التحرك فى الاتجاه الغربى بعيدًا عن متناول الحكومة المصرية، التى كانت تتحين الفرصة للتخلص منه هو وأتباعه. وعلى كل حال فبعد فشل حملة رابح التى أرسلها إلى دارفور عام ١٨٨٠، اتخذ من بحر الغزال قاعدة لشن الغارات فى الاتجاه الجنوبى أولاً داخل بلدة أزاندى (Azande). ثم بعد ذلك توغل فى أقصى

---

(١) – Boibaku. Saburi & Al – Hajj, Muhammad: the Sudanese Mahdiyya & the niger – Chud region: Islam in tropical Africa: edited by I. M. Lewis. P. 434.
- Helmpstone, S.: the New Africa, P. 599.

(٢) نعوم شقير: جغرافية وتاريخ السودان. ص ٦١٧.
- إسماعيل سرهنك باشا: حقائق الأخبار عن دول البحار. ج٢، ص ٣٢٥.

(٣) شوقى الجمل: تاريخ كشف أفريقية واستعمارها. ص ٥٠١.
- Adeleye, R. A.: Rabih Fadlallah 1879 – 1893, p. 227.
– Ademoyega, W.: the federation of Nigeria from earliest times to independence, p. 100.

الجنوب حتى وصل إلى وادى مبومو (Mbomu)، ثم تقدم غربًا داخل دار باندا (Dar Banda) فى منطقة الروافد الشمالية لنهر أبانجى. وقد ظل هذا النشاط هو شغل رابح الرئيسى حتى عام ١٨٨٢، بعد أن نجح فى تكوين قوة عسكرية كبيرة[١].

ويرجع النجاح العسكرى الذى حققه رابح فى وسط السودان، إلى عدم وجود دولة فى المنطقة من القوة والشكيمة بحيث يمكنها أن تصد قواته المنظمة. ومع ذلك فقد رأى رابح فرصته الحقيقية فى بناء إمبراطورية راسخة فى وسط السودان ليضمن لقواته مصدرًا ثابتًا من المواد التموينية التى تحتاجها. حيث أن واداى كان لها علاقات تجارية حقيقية مع شمال أفريقية وبرنو ووادى النيل، علاوة على أن لها السيطرة على معظم أجزاء المنطقة[٢]

فرغم أن واداى كانت تمزقها الخلافات والانقسامات ولا سيما المنازعات حول تولى الحكم والسلطة، إلا أنها كانت القوة البارزة فى منطقة تشاد. ولقد كانت بجرمى هى القوة التالية لواداى فى المنطقة، وكانت فى وضع يلزمها بالخضوع لكل من واداى وبرنو منذ العقد الثانى للقرن التاسع عشر، وبالتالى كانت تدفع الجزية لكلتا الدولتين[٣]. كما كانت كانم التى مزقتها النزاعات الداخلية المزمنة تدين لواداى وبرنو بالولاء – شأنها فى ذلك شأن بجرمى[٤].

وهكذا أدرك رابح أهمية العلاقات الودية بالنسبة له مع واداى، إذا لم يتمكن مع الاستيلاء عليها. وفى عام ١٨٨٠ حاول رابح أن يدخل فى علاقات تجارية مع

---

(١) - Adeleye, R. A.:Power & diplomacy in Northen Nigeria, P. 170

- Crowder, M.: the story of Nigeria, P. 222,

Bolbaku, Sabuiri & Al – Hajj, Muhmmad: op. cit., PP. 434 – 435.

(٢) - Adeleye, R. A.: Rabih Fadlallah 1879 – 1893, p. 228

(٣) انظر الفصل السادس، ص ١٨٣.

(٤) انظر الفصل السادس، ص ١٨٢.

واداى. ولكنه لم ينجح فى ذلك مما دفعه إلى أن يشن غارة فاشلة عليها، حيث أنه كان يعانى من ندرة التموينات والإمدادات العسكرية ولا سيما الذخيرة(١).

وفى عام ١٨٨٣ ظهر رابح فى داركوتى وأقام قاعدته العسكرية فى مكان يقال له شا (sha)، ومن ذلك المكان توغلت قواته داخل المناطق التابعة لواداى(٢). ولجأ إلى نظام حرب العصابات فشن رجاله غارات سريعة وخاطفة، وكانوا ينتشرون بسرعة داخل غابات داركوتى عندما تهاجمهم قوات واداى. وشمل نشاط رابح المنطقة بين منتصف الشارى فى بلدتى سارا (Sara) وداركوتى. ويبدو أن قبضته على أقاليم واداى لم تكن قوية، فلم تكن منطقة داركوتى بمثابة قاعدة مأمونة لعلاقاته التجارية التى كان يسعى لإقامتها مع دول المنطقة، فلم تسمح واداى وبجرمى بفتح الطرق التجارية أمامه. لذلك كان عليه أن يعود أدراجه إلى الخطوط الأولى فى بحر الغزال، دون أن يتنازل عن أى حق من حقوقه على القطاع الجنوبى من واداى، بوصفه المدخل إلى وادى النيل(٣).

حاول رابح أن يكسر الحصار الذى فرضته كل من واداى وبجرمى، بإقامة علاقات تجارية مع سلطان بجرمى، إلا أن هذا الأخير رفض ذلك. وكانت المسألة بالنسبة لرابح هى صراع من أجل البقاء. ولذلك كان رابح أن يزيل أية عقبات قد تؤثر على التجارة والتى قد تتسبب فيها بجرمى، وسرعان ما وقعت الحرب بين قوات بجرمى وجنود رابح فى الشهور الأولى من عام ١٨٩٢. وقد أرسلت بجرمى إلى برنو وواداى تستنجد بهما لمساعدتها فى مواجهة رابح. ولكن الشيخ هاشمى رفض الاستجابة لنجدة بجرمى ضد رابح، ربما لأن حالة برنو لا تسمح لها بالتورط فى مشاكل خارجية، أو لسوء تقديره فى أن سقوط بجرمى قد يكون مجرد تمهيد لسقوط برنو(٤)

(١) - Adeleye, R. A.: Rabih Fadlallah 1879 – 1893, pp. 228-229.
(٢) Urboy, Y.:.:op. cit., 126.
(٣) - Adeleye, R. A.: Rabih Fadlallah 1879 – 1893, pp. 229-230.
(٤) - Crowder, Mop. cit, P. 222,
-Urvoy, Y,.:op. cit., 126. - 127
- انظر الفصل السادس، ص ١٨٥.

أما عن واداى فقد كان سقوط بجرمى فى يد رابح يمثل خسارة فادحة لهـا. حيث أن توطيد مركز رابح فى الجزء الأسفل من الشارى يتضمن تهديدًا مباشـرًا لكانم والإقليم المجاور وجميعها تحت نفوذ واداى. وإذا ما وطد رابح نفوذه فى هذا الإقليم، فقد يشكل تهديدًا مباشرًا على القطاعات الغربية لأقاليم واداى القريبة مـن العاصمة[١].

ولذلك فإن سلطان واداى كان يرى أن غزو رابح لبجرمى يتسم بـالخطورة الكبيرة لواداى. وعلى ذلك أرسل السلطان يوسف حـاكم واداى كتيبـة عـسكرية لمساعدة المدافعين عن بجرمى. ولكن هذه الكتيبة سرعان ما هزمت على يد رابـح عام ١٨٩٢ وسقطت بجرمى فى نهاية الأمر وهرب ملكها[٢].

ولم تكن بجرمى هدف رابح النهائى. فبعد أن اكتسح الشارى، تلقى دعوة من صالح حاكم لوجون لزيارة بلده. وقد شجع رابح على قبولها ما أشيع وقتهـا مـن نقص المواد الغذائية فى لوجون، فقدم عرضًا بتوفير القمح والمواد اللازمـة فـى مقابل مساعدته بالمواد اللازمة لصنع ملابس جنوده. فما كان من حاكم لوجون إلا أن قبل هذا العرض العرض، وكان ذلك خطرًا على برنو. وتقدم رابح نحو لوجون وهى عاصمة الإقليم ومدينته الرئيسية، واستقبلته فى ترحاب وعلى رأسها حاكمها، إلا أن ذلك الأخير قد استدرج فى الشرك على نحو يتسم بالخيانة وكبل بـالأغلال، ثم قتل فى نهاية المطاف بواسطة رابح الذى اغتنم الفرصـة لاحـتلال المدينـة. وأصبح رابح آنذاك مستعدًا أن ينطلق داخل برنو إما عن طريق العلاقات الـسليمة أو بالحرب[٣].

---

(١) - Johnston, H. H.: A history of Colonization of Africa, P. 235,
- Adeleye, R, A: Rabih Fadlallah 1879-1893, p. 232

(٢) -Palmer, R.: Bornu sahara & Sudan, P. 269,
- Brenner, L.: op. cit., p. 123.

(٣) - Adeleye, R, A: Rabih Fadlallah 1879-1893, p. 232

وفى عام ١٨٨١ اندلعت الثورة المهدية فى غرب سـودان وادى النيـل[١]. ولقد كانت الحركة المهدية حركة استقلالية ودينية[٢].أقامت سدًا منيعًا بـين رابـح والحكومة المصرية التى انتهى تعقبها له باندلاع تلك الثورة[٣].

وقد أرسل المهدى العديد من الرسائل إلى رؤسـاء الـدول التـى ربطـت العلاقات القديمة بينهم وبين السودان، والذى يخشى منهم علـى حكومتـه، فكتـب المهدى إلى كل من محمد يوسف سلطان واداى، وإلى الفولة وإلى رابح بن فـضل الله. كما أرسل إلى مصر[٤]. وبرنو وسوكوتو[٥].

وقد رد رابح على رسالة المهدى ردًا يتسم بالمراوغة، إذ أن تدهور حركـة المهدى المعادية للحكومة المصرية من شأنه أن يطلق العنان لهذه الحكومة لتعقـب آثاره. ولكن رابحًا أمام ما واجهه من عداء كافة دويلات وسـط الـسودان التـى هاجمها، لم يجد بدًا من الانضمام إلى الحركة المهدية[٦].

كما كان هناك عامل آخر أثر فى موقف رابح، وهو الحركـة الـسنوسية[٧] التى كان مقرها آنذاك جغبوب. وقد رفض السنوسى الانضمام لحركـة المهـدى، واستمر التباعد بين الحركتين، بينما ازدادت الصداقة بين السنوسى ويوسـف بـن محمد الشريف سلطان واداى الذى قبل الانضمام للحركة السنوسية[٨]. أما رابح فقد

---

(١) نعوم شير: المرجع السابق، ص ٦١٧.

(٢) قام بها محمد أحمد المهدى عام ١٨٧١ فى السودان، وكان يدعو إلى إقامة عالم جديد يطبق فيه مبادئ الإسلام بعد أن انتشرت البدع والرذائل، وأعلن الثورة على نظام الحكم فى السودان، واستطاع عام ١٨٨٣ أن يسيطر على شرق السودان كله، ولكنه مات عام ١٨٨٥م.
- جلال يحيى : الثورة المهدية وأصول السياسة البريطانية فى السودان ، ص ٢٠.

(٣) نعوم شقير: المرجع السابق، ص ٦١٧.

(٤) محمود فؤاد شكرى: مصر والسودان، تاريخ وحدة وادى النيل السياسية فى القرن التاسع عشر، ص ٤٢٤.

(٥) Biobaku, Saburi & Al – hajj. Muhammad. Op. cit., p. 333.

(٦) - Adeleye, R, A: Rabih Fadlallah 1879-1893, p. 232

(٧) انتشرت الدعوة السنوسية فى ليبيا عام ١٨٣٧، ثم انتشرت فى قلب الصحراء الكبرى، وفى مجاهل أفريقية، فوصلت إلى قبائل التبود والطوارق فى الأقاليم الممتدة جنوبًا إلى تشاد، ثم امتدت إلى نهر النيجر والسنغال غربًا. محمد فؤاد شكرى:السنوسية دين ودولة، ص ٢١، ٦٣.

(٨) نفس المرجع، ص ٦٥، ٧٣.

رفض الانضمام إلى السنوسية وعلى أثر ذلك تزايدت الهوة التى وقعت بين رابح والسنوسى، وبالتالى بينه وبين واداى التى كانت تناصر السنوسية(١).

وقد رفضت برنو وسوكوتو دعوة المهدى لاتباعه واعتناق مبادئه. ولكن المهدى وجد نصيرًا ملكيًا فى شخص حياتو بن سعيد بن بلو الذى انشق على أسرة ابن فودى الحاكمة فى سوكوتو. وفى غضون عام ١٨٩٠ سعى حياتو - الذى استقر فى أدموة - بلا جدوى لتحويل خلافة سوكوتو إلى نظام مهدوى. وقد انضم إليه أتباع عديدون، وأعلن عداءه لسوكوتو. واستطاع حياتو مع مؤيديه أن يثيروا القلاقل والاضطرابات فى ممتلكات برنو، ولاسيما، ما قاموا به من نشاط فى مندرة وهى إقليم تابع لبرنو(٢).

على هذا النحو، أصبحت الحركة المهدية مشكلة سياسية خطيرة فى كل من سوكوتو وبرنو. وقد أدى ذلك إلى قطيعة بين سوكوتو وبرنو من ناحية، وبين المهدى وأنصاره من ناحية أخرى. وقد عرضت تلك القطيعة موقف رابح للخطر قبل أن يصل إلى تلك الأقاليم. فقد بدأت صعوباته مع برنو وسوكوتو بعد استيلائه على بجرمى التى تدين لهما بالولاء، ثم استيلائه على لوجون التابعة لسوكوتو. ولذلك قبل التحالف الذى عرضه عليه حياتو وأنصاره من المهديين ليكونوا يدًا ضد المعارضين لهذه الدعوة (برنو وسوكوتو). وقد أكد هذا التحالف موقف رابح كعضو فى الحركة وأصبحت سوكوتو تنظر إلى رابح على أنه عدو لها(٣).

---

(١) نفس المرجع، ص ٧٣.

(٢) - Adeleye, R, A: Rabih Fadlallah 1879-1893, p. 232
Biobaku, Saburi & Al – hajj. Muhammad. Op. cit., p. 334
- Al – hajj, M. A.: Hayatu B. salid: A Revoluutionary Mahdist in the Western Sudan; sudan in Africa edited by Yusuf Fadl Hasan, P, 35.
- Holat. P. M.: the Mahdist state in Sudan , PP. 148 – 149.

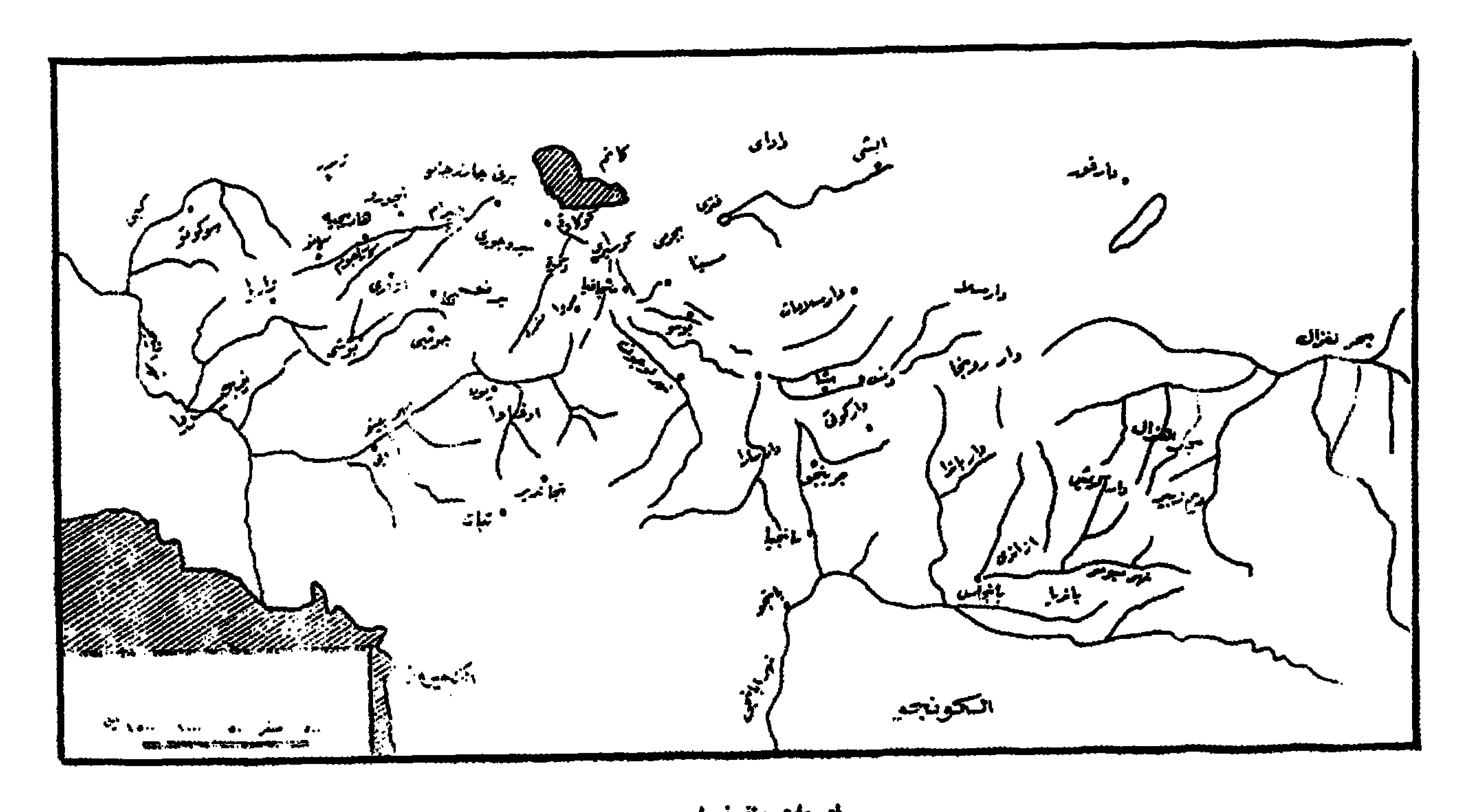
(٣) - Brenner, L.: op. cit., p. 124.

وما أحرزه رابح من تقدم وما قام به من عمليات فى منطقة تشاد[1] كان من شأنه أن يعرضه لخطرين. هما: عدم إمكانية الاتصال بالأسواق الغنية لبحر الغزال ووادای والشمال بصفة عامة، وخطر المواجهة المباشرة بينه وبين القوى الأوروبية الاستعمارية (فرنسا وأنجلترا وألمانيا) المتقدمة من الكنغو وساحل أفريقية الغربى[2]. وفى الشمال كانت قوة السنوسى وقبضة أتباعه على الطرق التجارية تشكل سد منيعًا. ومما جعل عزلته كاملة ذلك العداء المستحكم من جانب واداى. وقد تصاعد ذلك العداء - كما ذكرنا - عندما تصادقت واداى مع السنوسى، كما أن أقاليم الجنوب المجزأة سياسيًا حيث كان رابح يقوم بعملياته فيها حتى عام ١٨٩٠ - لم يكن من شأنها أن تقدم أى شىء فيما عدا قاعدة ضرورية لتعزيز انتصاراته. وعندما أغلقت واداى - غير مستسلمة - طرقها الشرقية والشمالية أمام رابح، لم يكن أمامه سبيل يسلكه سوى الاتجاه الغربى نحو برنو[3].

(١) انظر الخريطة المدرجة على الصفحة ٦٠.

(٢) Perham, M: Lugard,.:the years of authority 1898 – 1945, p. 439

(٣) Adeleye, R.A. : Rabih Fadlallah 1879 – 1893. pp. 236



فتوحات ونفوذ رابح

Adeleye, R.A. : Rabih Fadallah 1879-1893, p. 241.

فمن لوجون وكذلك من بجرمى التى سبق أن استولى عليها، أقام رابح علاقات ودية مع برنو حيث كان يحصل منها على ما يحتاجه من مؤن، ولم يكن محظورًا عليه من الأصناف التجارية سوى الأسلحة النارية والذخيرة. وقد حاول الحفاظ على صداقة برنو عن طريق إغداق النفيس من الهدايا والهبات على شيخ برنو، والتقرب إليه لإقامة علاقات طيبة. وقد تبودلت الهدايا وكان رسل رابح يستقبلون بترحاب كبير مع كوكاوة. ولكن مسألة ضمان استمرار حصول قوات رابح على المواد التموينية، كان يتوقف على مدى محافظته على صداقة برنو، وعليه أن يواجه الصعاب إذا ما فقد هذه الصداقة – خاصة أنه كان محاطًا بالعديد من الدويلات المعادية له بسبب هجوم قواته عليهم. علاوة على أنه ما زال في حاجة إلى قاعدة آمنة للحفاظ على تقدم قواته في سلامة. ولذلك كان رابح يرى أن ضم برنو إلى ممتلكاته يحقق له هذين المطلبين. وعندما استولى على لوجون استسلمت مدن كوتوكو لرابح دون قتال. ولم يحل بينه وبين برنو أى شئ(١).

وعلى الرغم من المظاهر الخارجية الصورية للقوة. فقد كانت برنو التى واجهت رابح على درجة كبيرة من الانقسام والتفكك. فكانت النزاعات الحزبية المتطرفة السائدة فى بلاط الحكم عاملاً مستديمًا. فلم تكن فترة حكم الشيخ هاشمى استثناء مما كان مألوفًا – ولكنها ألقت الضوء على هذا الضعف الذى تفاقم بسبب افتقار الشيخ لأساليب الإدارة الحاسمة. والحقيقة أن شيوخ الأسرة الكانمية لم يكن لأحد منهم قوة ونفوذ جدهم الشيخ محمد الأمين الكانمى(٢).

وهكذا ظهرت برنو فريسة سهلة فى نظر رابح. فتقدم رابح لغزو برنو بحجة شيوع الفساد هناك، وانتشار الفاحشة بين أهلها. وأصبح سقوطها مؤكدًا بعد

---

(١) - Brenner, L.:op.cit., p.125.
- Adeleye, R.A. : Rabih Fadlallah 1879 – 1893, pp. 236-237

(٢) Hogben, S.J. &Kirk-Greene, A.H.M.:The Emirates of northern Northern NigeriaK p. 333.

أن انهزم الجيش البرنوى – الذى أرسله هاشمى لرد قوات رابح عبر الشارى – هزيمة منكرة فى أمجا (Amja) جنوب نجالا.

وبأوامر من رابح وضع قائد الجيش وهو محمد طاهر فى جلد ثور، وعُرض الجلد بعد ذلك لحرارة الشمس فمات ميتة شنعاء(١).

وعقب انتصار رابح على جيش برنو، توجه نحونجالا فدخلها هو وجيشه دون مقاومة وأقام بها مدة تزيد عن الشهر(٢).

ولم تكن لدى الشيخ هاشمى الشجاعة الكافية لمواجهة رابح. غير أنه أمام ضغط مستشاريه ومقربيه، اضطر لقيادة الجيش دفاعًا عن البلاد. فتوجه إلى نجالا على رأس قوات كبيرة(٣). وأدرك رابح أنه من الأسلم أن يلتقى بجيش برنو فى العراء، أفضل من الالتقاء به داخل المدينة التى قد يهب سكانها ضده. وجعل جيشه يتمركز على ضفتى مجرى مائى صغير خارج حدود نجالا مباشرة. واستخدم رابح خطة تتسم بالمهارة، فسمح لجيش برنو أن يهاجم من أرض وعرة واستخدم قوات متحركة مختفية فى كلا جناحى الجيش ليستفيد من الارتباك الذى يحدث من جراء إطلاق النار بين صفوف الجيش. وقد أطلق عليهم رجاله عدة طلقات نارية جعلتهم يهربون. وفى موقعة أخرى فى جونجى (Goange) بالقرب من كوكاوة، هزم جيش برنو على يد رابح وهرب الشيخ هاشمى، ولم يستطع رابح اللحاق به. ولكنه اغتيل بتدبير من ابن أخيه كيارى الذى كان يشعر بالخزى من جبن عمه(٤).

أقام رابح فى كوكاوة مدة شهرين ولما لم يعد إليها الشيخ غادرها إلى دكوة وجعل منها عاصمة لملكه، وكان ذلك فى شهر يونيو ١٨٩٣، ووسعها وأحاطها

---

(١) -Brenner. L.: op.cit..p. 125.
- Urvoy. Y.op.cit.. p. 127.
(٢) ابراهيم صالح بن يونس: المرجع السابق، ص١٤٨.
(٣) نفس المرجع، ص ١٥٠.
(٤) -Ademoyega. W.: op.cit..pp. 100-101.
- Hogben. SJ. & Kirk – Greene. A. H. M.: op. cit., p. 334

بسور حصين وأقام لنفسه بيتًا عظيمًا[١]. وأعلن رابح نفسه مؤسسًا للأسرة الحاكمة الثالثة فى برنو على مدار القرن التاسع عشر. وبالنسبة للامبراطورية البرنوية السابقة، فإن انتصار رابح كان يحمل نذير الدمار والخراب لها. فقد حصلت زندر على استقلالها، بينما ظلت مندرة منشقة عن التبعية لبرنو، وقد نالت جومل (Gumel) استقلالها[٢].

فشل جهود الأسرة الكانمية لاسترداد برنو:

اضطربت أمور برنو بعد غزو رابح لها، وتشتت شمل الأسرة الحاكمة، وملأ الخوف قلوب الناس من رابح وقواته. وبدأ الشيخ كيارى يدعو لنفسه بالبيعة، وسرعان ما استجابت له القلوب واختارته شيخًا على البلاد سنة ١٨٩٣ خلفًا لعمه هاشمى. وجمع كيارى شعب برنو الذى تفرق فى أنحاء البلاد خوفًا من رابح، ودعاه للوقوف صفًا واحدًا فى وجه هذا المعتدى ليخرجوه من بلادهم[٣].

وعندما استقر رابح فى دكوة، لم يتخل عن أعماله التخريبية ضد مدن برنو. فأمر رجاله بحرق كوكاوة وتشريد أهلها. إذ أن بقاءها كان يشكل تهديدًا كبيرًا له حيث أنها كانت مركز المقاومة ضد قواته. وكان تدميره لكوكاوة لا هوادة فيه، فقد حطم ما لم يقو على حمله، وفتك بالسكان، وأقام المذابح لهم، فتهدمت كوكاوة وانطمست معالمها[٤].

وفى أعقاب ذلك قامت انتفاضة ضد رابح فى القطاع الشرقى لبرنو بزعامة شاب باسل يدعى بوكى (Buki)، فى محاولة لقمع وصد هجمات قوات رابح. وهزم بوكى أول الأمر جميع القوات التى أرسلت من دكوة. ولكن رابحًا قاد بنفسه قوة

---

(١) نعوم شقير: المرجع السابق، ص ٦١٧.

(٢) Adeleye, R.A. Power & diplomacy in Northern Nigeria, p. 171.

(٣) ابراهيم صالح بن يونس: المرجع السابق، ص١٥٢.

(٤) Adeleye, R.A.: Power & diplomacy in Northern Nigeria, p.171.

كبيرة التقت بقوات بوكى عند كولى (Kuli)، وتمكن من هزيمة قوات بوكى ثم قتله. وبعد ذلك تقدم رابح زاحفًا نحو الشيخ كيارى الذى ترأس جيشًا، وكان فى طريقه لإعادة السيطرة على كوكاوة واستردادها.

وقرر رابح أن يعترضه على الرغم من أن قواته لم تكن تبلغ إلا سبعمائة جندى، إلا أن جنوده كانوا مدربين على القتال وقادرين على استعمال الأسلحة النارية[١].

ولكن روح الحماس التى أشعلها كيارى بين جنده، علاوة على الكثرة العددية التى كانوا يتمتعون بها، كان لهما أثر فعال فى إحراز النصر على رابح، مما اضطره إلى التقهقر تاركًا معسكره ونساءه فى أيدى كيارى المنتصر[٢]. غير أن قوات كيارى ارتكبت خطأً كبيرًا عندما اعتقدت أن رابحًا انسحب إلى غير رجعة بعد أن هزمته شر هزيمة. فطرح الجنود النظام جانبًا وانهمكوا فى جمع أكبر قدر ممكن من الغنائم والسبايا على نحو همجى، فى الوقت الذى كانت فيه قوات رابح الاستطلاعية ترقب جيش برنو وتستقرئ الموقف، فوجدت أن بعض أفراد الجيش يأكل والبعض الآخر يغط فى النوم، والنساء تتولى العناية بالخيول. فرأى رابح أن الفرصة سانحة ليضرب قوات برنو ضربة قاضية، فأعاد تنظيم قواته.

وفى ستار من الظلام قرر الهجوم على الفور، وكانت المفاجأة شاملة، فأعقبها فزع وذعر بين قوات برنو التى استبسلت فى الدفاع عن نفسها. ولكن رابحًا تمكن من إحراز النصر عليها، وصب جام غضبه وانتقامه على جنود كيارى ونصب لهم المذابح الجماعية، كما أسر كيارى ونفذ فيه حكم الإعدام[٣].

---

(١) perham, M. & Bull, M.:the dairies of Lord Lugard, Vol. 4 , p. 47.
-Boibaku, S. & Al-hajj, Muammad: op.C. t. p 434.

(٢) Hogben, S.J. & Kirk-Green A.H.M.: op.cit.. p. 335.

(٣) Ibid.. pp. 335-336.

وقد بذلت أسرة الكانمى التى تتسم بشجاعة الكنوريين محاولة أخرى لسحق رابح وقواته، فأعلن سنده ليمنم بى (Sanda Limanam Be) نفسه سنة ١٨٩٤ شيخاً على البلاد خلفاً للشيخ كيارى، وقاد المقاومة ضد رابح غير أنه وقع فى الأسر، ومثل أمام رابح ثم أعدم . وهنا بدأ رابح تثبيت أقدامه فى برنو، ولكنه استمر على سياسته القاسية ضد السكان لعدم إخلاصهم الطاعة له منذ قتله كيارى. ولكنه بعد قليل من الوقت غير سياسته فى البلاد بسبب استقرار الأمن، وبسبب خفة عداء السكان له.

وبذلك تم لرابح الاستيلاء تمامًا على البلاد وأصبح السلطان الرسمى لبرنو[١].

هكذا سقطت الدولة الكانمية. وبسقوطها أصبحت برنو تحت حكم رابح بن فضل الله من سنة ١٨٩٣ إلى سنة ١٩٠٠. وقد اتسم حكمه فى أول الأمر بقسوة واضحة فى كل مكان من برنو، وبخاصة فى المدن التى تحولت إلى أنقاض، كما أن الفقر الاقتصادى أصاب البلاد[٢].

ولكنه بمجرد أن خضعت البلاد لسلطانه، شرع السلطان الجديد فى إعادة تنظيمها. وقد أدرك – بحكم كونه غريبًا على البلاد – أنه لا يمكن أن يتولى إدارة البلاد إدارة مباشرة، خاصة أن تلك البلاد كانت لها لغتها وتقاليدها وعُرفها غير المألوف له ولأتباعه. ولهذا قسم رابح برنو إلى مناطق إدارية صغيرة وترك الزعماء المحليين ليكونوا مسؤولين عن مناطقهم العديدة، وليكونوا بمثابة حلقة اتصال بين الشعب والحاكم. ولكنه جعل أولئك الزعماء خاضعين لكبار ضباطه الذين كانوا يتلقون أوامره، والذين كانوا موضع ثقة كبيرة منه[٣].

---

(١) ابراهيم صالح بن يونس: المرجع السابق، ص١٥٤

(٢) Hogben, S.J. & Kirk-Greene. A.H.M.: op.cit.. p. 336.

(٣) Ibid.. pp. 336-337.

وهكذا استبدل رابح بالنظام الإقطاعى القديم للحكومة نوعًا من الدكتاتورية العسكرية، ولكنه نظم الضرائب، فطالب كل منطقة أن توافيه بمبلغ محدود بصفة منتظمة. وكان يستولى لنفسه على نصف تلك المبالغ، ويترك النصف الآخر للزعماء العسكريين والإداريين لينال كل منهم نصيبه منه(١).

وقد استغل رابح الأموال التى ترد عليه فى تغطية نفقات ولوازم قواته، وعمد إلى تخزين المؤن اللازمة لإعداد الحملات مستقبلاً. وقد تضاعف العائد الذى كان يحصل عليه من فرض الضرائب، وذلك عن طريق عمليات السلب والنهب التى كانت تتمخض عنها الغزوات على بجرمى وما جاورها من البلاد(٢).

وعندما استقرت الأحوال فى برنو، بدأ رابح يغزو البلدان المجاورة لبرنو، والتى كانت لا تزال تطمع فى استعادة أجزاء من سلطنة برنو، فغزا مندرة وقبائل البادى وكتاجوم. وقد كلفته هذه الحملات الكثير من الأموال والرجال(٣).

وكانت أكثر الأمور خطورة على رابح مباشرة أكثر منها على البرنويين، هو تدمير التجارة الخارجية لبرنو، كما أن سلب كوكاوة ونهبها – تلك المغامرة التى قضى فيها على نحو عشرين من كبار التجار، كان من شأنه أن يتسبب فى قطيعة خطيرة للعلاقات التجارية بين برنو ودول المنطقة. وعلى هذا النحو تم إغلاق خطوط رابح التموينية فى كافة الاتجاهات(٤).

وقد بلغ اليأس برابح درجة جعلته يفتح باب المفاوضات مع عدوه اللدود سلطان واداى. ولهذا الغرض أرسل إليه كميات كبيرة من الهبات، بيد أنها جميعًا كانت دون جدوى. وفى الغرب فشل فى تحقيق إخضاع أمارة مسوى (Missau) عن طريق المفاوضات والمساعى السليمة. وقد استقبل رسله إلى زندر فى أواخر عام ١٨٩٤ ومطلع عام ١٨٩٥ أفضل استقبال، ولكنهم ردوا دون وعد بالخضوع أو إقامة علاقات تجارية مع كتاجوم وكانو(٥).

---

(١) Ibid.. p. 337.
(٢) Hogben. S.J. & Kirk-Greene, A.H.M.: op.cit.. pp 337-338
(٣) ابراهيم صالح بن يونس: المرجع السابق، ص ١٥٩.
(٤) Adeleye, R.A.: Rabih Fadlallh 1879-1893. pp. 238-239.
(٥) Ibid; p.239.

ووصف موقف رابح هذا بأنه كان محاطًا بقوى معادية، كطائر زج به فى القفص، وهكذا وجد رابح نفسه فى مأزق صعب، فلقد هزم برنو هزيمة نكراء، فأضعف اقتصادها بحيث لم يكن هناك ما يستطيع الإنفاق منه على إعداد حملاته العسكرية، كما أن تقدمه ناحية الغرب حيث سلطنة سوكوتو، سيؤدى بالضرورة إلى صدام مع البريطانيين الذين كانوا يستقرون قبل ذلك[١] فى المناطق النهرية لنيجر – بينوى (Niger – Benue)، والذين يتحينون الفرصة لإحتلال سلطنة سوكوتو[٢].

لذلك يعتبر غزو رابح لبرنو عام ١٨٩٣ نهاية مرحلة هامة من مراحل عدم الاستقرار السياسى فى برنو فى أواخر القرن التاسع عشر، وفى مجرى تاريخ حياة الفاتح نفسه. فلقد مزق رابح العلاقات السياسية التى تبودلت قبل ذلك بين الجماعات والدويلات فى المنطقة الممتدة من بحر الغزال إلى برنو، دون أن يكون قادرًا على أن يدعم سلطانه ونفوذه، على تلك المنطقة على أساس ثابت. وقد اكتشف أن عداء الدول المجاورة – الذى تولد من دافع الخوف منه – كان يحرمه ثمار النصر. وقد استطاع رابح ورجاله أن يقذفوا الرعب فى القلوب، ولكنهم فشلوا فى كسب حب الشعوب التى هزموها. ولذلك ظل هو ورجاله ملفوظين وغير مقبولين كحكام[٣].

---

(١) Burns, Sir Alan: History of Nigeria, p. 52.
-Adeleye, R.A.: Rabih Fadallah 1879-1893, p. 240.

(٢) -Ibid.

الفصل الثالث

عودة الأسرة الكانمية إلى الحكم

عادت الأسرة الكانمية إلى الحكم فى برنو سنة ١٩٠٠، واستمر حكمها حتى الوقت الحاضر. غير أنه بثلاث فترات مختلفة وهى: الحماية الفرنسية والحماية البريطانية، والاستقلال.

أولاً ـ الحماية الفرنسية:

فى عام ١٨٨٠ شرع الفرنسيون فى القيام بعدة حملات عسكرية لربط مستعمراتهم فى شمال أفريقية وخط الاستواء الأفريقى وغرب أفريقية، وكذا مستعمراتهم فى وسط أفريقية بما فى ذلك مناطق تشاد – النيجر – بينوى، بغرض توحيد تلك المستعمرات فى قطاع واحد متكامل. ونفس الشئ حدث بالنسبة لبريطانيا، ففى عام ١٨٧٩ تم إدماج الشركات البريطانية الاستعمارية التى تعمل فى مجال التجارة فى النيجر فى شركة واحدة، هى الشركة الأفريقية المتحدة. وقد أصبحت تلك الشركة فيما بعد، الشركة الأفريقية القومية، وعرفت فى عام ١٨٨٦ باسم شركة النيجر الملكية، وقد نجحت فى تأكيد الحقوق البريطانية فى مواجهة الحقوق الأوروبية الأخرى فى استعمار مناطق وسط أفريقية.[١]

وفى مطلع عام ١٨٨٣ استطاع الفرنسيون أن يتوغلوا فى السنغال، وأن يمدوا نفوذهم حتى مدينة بماكو الواقعة على نهر النيجر، واتخذوا من هذه المدينة ذات الموقع الممتاز قاعدة للتوغل للداخل. ونتيجة للتطور السريع للشركة

---

(١) - Adeleye, R.A.: Rabih b. Fadallah & the diplomacy of European Invasion in the Central Sudan, Journal society of Nigeria, vol. 5, No. 3, Dec. 1970, pp. 399-400.
- Flint, J.E.: Sir George Goldie & The Making of Nigeria, p. 33. 44.
- صلاح صبرى: أفريقية وراء الصحراء. ص١٣٧

البريطانية الاستعمارية، وتحكمها فى الطرق الرئيسية للنيجر - بنيوى، أعلن وزير المستعمرات الفرنسى أن بلاده لابد أن تركز جهودها للسيطرة على منطقة البينوى كخطوة ضرورية لتحقيق أطماعها نحو التوسع فى أدموة وبحيرة تشاد(١).

وبعد مؤتمر برلين ١٨٨٤ - ١٨٨٥ عن غرب أفريقية، شرع الألمان - مدفوعين بتأثير التسابق الاستعمارى - فى كشف نواياهم فى السباق نحو وسط السودان(٢).

وهكذا أصبحت برنو منذ عام ١٨٩٠ محور نزاع كبير بين فرنسا وبريطانيا وألمانيا. وقد حاولت فرنسا وبريطانيا تسوية هـذا النزاع بمقتضى معاهدة خط ساى / بروا(٣) التى عقدت بينها فى ٥ أغسطس ١٨٩٠. وقد احتفظت هذه المعاهدة للبريطانيين بكافة الأقاليم التابعة لسوكوتو. وبدلاً من أن توقف هذه المعاهدة حدة المنافسة، فأنها صعدتها لما كانت تنطوى عليه من غموض وتفسيرات متضاربة؛ ولقد كان هناك استعداد كبير من جانب كلا الطرفين للاستفادة من غموض المعاهدة. وكانت السياسة الفرنسية تدور حول إثبات استقلال برنو وأدموة عن سوكوتو حتى تتمكن من الاستيلاء عليهما دون معارضة بريطانيا، وبذلك يتحقق هدفهـا النهائى فى جعل بحيرة تشاد فرنسية. وبالتـالى يتحقق هدفهـا النهائى، وهو ربط السودان بالكنغو عبر البلاد النيجيرية(٤)

---

(١) Adeleye. R.A.: op.cit. p.400.

(٢) أدت قرارات مؤتمر برلين إلى زيادة التنافس الاستعمارى بين بريطانيا وفرنسا وألمانيا، فقد نصت بأن على أية دولة تدعى حقوق الإستيلاء أو الحماية على منطقة أفريقية يجب أن تخطر الدول الموقعة على اتفاق هذا المؤتمر، كما أضاف المؤتمر شرطًا بأنه لكى تعلن أى دولة حمايتها أو استيلائها على أية منطقة يجب أن يكون احتلالها للإقليم احتلالاً فعليًا ودائمًا.
- سامى منصور: نيجيريا عملاق أفريقية التائه. ص٣١-٣٢.

(٣) اتفقت بريطانيا وفرنسا بمقتضى هذه المعاهدة على حدود تقع بين سلى - على نهار النيجر وبروا على بحيرة تشاد - بشرط أن تكون امبراطورية سوكوتو داخل نفوذ شركة النيجر الملكية. نفس المرجع، ص٣٣.

(٤) - Hertsit, K. C. B.: The map of Africa by treaty, Vol. 2, p. 7.
- Perham. M: Lugard,.:the years of authority 1898 – 1945, p. 344

وأتـــاحت هـــذه المعاهدة لفـــرنسا وبريطانيا الفرصة لإرسال حملاتهما إلى المنطقة فى الفترة من سنة ١٨٩٠ إلى سنة ١٨٩٣. فقد توجهت حملة فرنسية بقيادة مونتى (Monteil) فى نهاية عام ١٨٩١ من السنغال مارة عبر سوكوتو نحو برنو التى كانت مقصدها، حيث مكثت فترة تزيد على أربعة أشهر(١). أما الحملات التى قادها الملازم مزون (Mazion) نحو أدموة ما بين ١٨٩٠ و ١٨٩٢، فكانت جزءًا من برنامج فرنسى للتوسع فى تشاد. وكانت هناك حملات فرنسية أخرى بدأت من برنو وهى حملات كرامل (Crampel) ودى برازا (De Barazza) ودى ماستر (De Maister)، وكان مقررًا لها جميعًا أن تتحد وتتعاون مع الحملات المتجهة نحو أحواض تشاد وبنيوى(٢).

إن تلك الحملات الفرنسية والعديد من الحملات الألمانية(٣) التى ظهرت فى أدموة فيما بين سنة ١٨٩١ و ١٨٩٣ كانت كل منها تؤكد حقوق بلادها فى التقدم العام نحو منطقة تشاد(٤).

وفى أعقاب معاهدة ساى – بروا مباشرة حاول البريطانيون أن يبرموا معاهدة مع شيخ برنو، فوصلت إلى كوكاوة حملة بريطانية فى أكتوبر / نوفمبر ١٨٩٠، ولقيت الترحيب من قبل الشيخ هاشمى بن عمر فى بداية الأمر. ولكنه خشى من أن بقاء الحملة فى برنو قد يمهد لتدخل استعمارى من جانب بريطانيا، فطلب الشيخ هاشمى من قائد الحملة مغادرة بلاده(٥).

وكان لفشل هذه الحملة أثره فى جعل شركة النيجر الملكية تتهادى فى سباق التسابق الاستعمارى إلى منطقة تشاد. ورغبة فى مواجهة التحركات الفرنسية

---

(١) – Robinson, R. & Others: Africa & the Victorians, pp.390- 391.
(٢) – Heusslet, R.: The British in Northern Nigeria, p. 19
– perham, M.: Lugard; the years of adventure 1858 – 1898, p. 489.
(٣) – Anderson, J.D.:West Africa, East Africa , p. 148.
– Flint, J. E.: op. cit., p. 166
(٤) – Ibid. P. 170
(٥) – Ibid. pp.170 - 171

السريعة فى أدموة والمناطق المتاخمة لبحيرة تشاد، أبرمت الحكومة البريطانية معاهدة مع ألمانيا سنة ١٨٩٢ – خولت للأخيرة مطلق الحرية فى أن توسع منطقة نفوذها فى المنطقة الساحلية للكاميرون. ولقد كانت منطقة النفوذ الألمانى فى برنو بين الشارى ونهر يد سرام (Yed Seram) بمثابة إقليم محايد بين المناطق البريطانية والفرنسية. وقد أكدت معاهدة فرنسية ألمانية عقدت عام ١٨٩٤ مناطق النفوذ الألمانية، غير أن ذلك لم يكن من شأنه أن يضع حدًا للمنافسة القائمة[١].

وقد اصطدمت حركة رابح فى وسط السودان وتوسعه بالمصالح الاستعمارية الأوروبية، ومن أهمها المصالح المتضاربة للفرنسيين والبريطانيين. كما أن الحركة المهدية التى اندلعت فى غرب سودان وادى النيل، كانت بمثابة حاجز بين البريطانيين ورابح. وكان من الممكن للفرنسيين الزاحفين من الكونغو أن يكون لهم مطلق الحرية، إذا ما قدر لرابح أن يتحالف معهم للقيام بمهام عسكرية بين بحر الغزال وبحيرة تشاد لإفساد المصالح والمطامع البريطانية فى المنطقة إفسادًا كاملاً. ولكن حقيقة الاتصال بين رابح والفرنسيين قد اتضحت أمام البريطانيين عقب حملة كرامل (Crampel) الفرنسية، التى هاجمتها قوات رابح وقتلت قائدها وعددًا كبيرًا من أفرادها وأسرت الباقين[٢].

وكان البريطانيون يخشون من أن يتحالف رابح مع أكثر القوى الأوروبية شكيمة ونفوذًا فى المنطقة المتاخمة لهم وهم الفرنسيون؛ الذين قد يجدون لديه العون والمساعدة فى أن يطالبوا بالنقاط والمناطق التى كانوا حريصين على اكتسابها. ومن ثم دأبت السياسة البريطانية على العمل للحيلولة دون وقوع مثل هذا الاحتمال، كما أن رابحًا عكف على الحفاظ على استقلاله، كما أن سياسة رابح كانت غير معلومة، ولا يمكن التنبؤ بتحركاته، وكانت مشكلته الأساسية فى برنو تدور حول

---

(١) – Ibid. pp. 179- 185
– Adeleye. R.A.: op.cit. p.401
- ابراهيم على طرخان: إمبراطورية البرنو الإسلامية. ص ١٤٣.

(٢) – Adeleye. R.A.: op.cit. p p.401- 402

إقامة علاقات خارجية لتوفير المواد والاحتياجات اللازمة لجنوده. ولقد كانت الاتجاهات المرغوب فيها لتلك العلاقات هى الغرب والجنوب مع خلافة سوكوتو ومحطة النيجر الملكية على البنيوى والشمال عبر كوار ومرزوق مع شمال أفريقية، والشرق مع واداى. وقد فشل رابح فى إقامة أى علاقة مع هذه الجهات، رغم محاولاته المستميتة فى هذا الشأن، وأغداقه الكثير من الهدايا والهبات وإرساله الرسل إلى حكامها دون جدوى(١).

إن المشاكل التى أثارها رابح بين دول المنطقة بسبب وجوده فى برنو - كانت على درجة كبيرة من الخطورة بالنسبة لبرنو وغيرها من الدول المجاورة. فقد كانت برنو دولة معزولة بسبب عداء الدول له، كما أن العداء بين سوكوتو وبرنو قد تفاقم لخضوع برنو لرابح؛ لأن رابحًا لم يكن مهدى المذهب فحسب، بل كان متحالفًا أيضًا مع حياتو بن محمد بلّو، الذى كان على خلاف مع البيت الحاكم فى سوكوتو، والذى قام بحركة تمرد ضد وطنه باسم مهدى السودان الذى نبذته سوكوتو(٢).

وقد أدى وجود رابح على الحدود الشرقية لسوكوتو إلى خلق جو من الذعر بدرجة كبيرة. فقد ساد الاعتقاد بأن ذلك العدو على وشك الإغارة على سوكوتو. وقد تمخض وجوده فى المنطقة عن عدد من النتائج منها:

١. إن اقتراب زحف الأوروبيين من خلافة سوكوتو وتنافسهم على منطقة بورجو (Borgo) إحدى توابع سوكوتو تمهيدًا لابتلاع الإمبراطورية نفسها، وكذا

---

(١) Ibid., pp. 402-403.

(٢) – Crowder, M.:West Africa undet colonial rule, p. 132

– Adeleye, R.A.:op.cit, p 403.

–Hodgkin, T.: Madism, messiansim and marxism in the Africa setting: Sudan in Africa, edited by Yusuf Fadl Hasan, p. 115

Al – Hajj – MA: Hayatu B. Said: A Revolutinary Mahdist in the Western Sudan; Sudan in Africa edited by Yusuf Fadl Hasan, p. 85.

اقتراب رابح منها أوجد فى سوكوتو شعورًا بالخوف من الغزو، وقد انعكس هـذا الخوف فى سياسة تجنب إقامة أية علاقات مع جميع الأجانب.

٢. اضطر المتنافسون الأوروبيون إلى مضاعفة جهودهم لوضع إدعاءاتهم وحقوقهم النظرية موضع التنفيذ فيما يتعلق بخلافة سوكوتو أو أجزاء منها، وكـذا الأقاليم المتاخمة لها خوفًا من أن يضم رابح الأقاليم التى كانوا يتنافسون عليها زمنًا طويلاً قبل اتخاذ إجراءات فعلية من جانبهم لاحتلالها(١).

وقد كان لهذا الاعتبار أثر فى تصعيد حمية المنافسة بين الطرفين، مما أسفر بدوره عن تصعيد مخاوف الحكام الأفريقين ومقاومتهم للتدخل الأوروبـى. ولقـد بذلت جهود نشطة من جانب الفرنسيين والبريطانيين للتحالف مع رابح اعتقادًا منهم أن فتوحاته سوف تكون من نصيب القوى التى تفلح فى إبرام معاهدة معه(٢).

وفى أواخر عام ١٨٩٦ كان رابح قد قرر على الأقل أن يحـصن مواقعـه على الحدود الشرقية لسوكوتو، حتى يضمن استمرار حـصوله علـى الإمـدادات الضرورية، إذا لم يكن بغرض اكتساح الأمارات الشرقية. ولكن الاستفزازت التـى واجهها رابح من جانب سوكوتو وزندر خلال هذا العام وفشله فى تحقيق إمتيازات تجارية معها، اضطره -على ما يبدو- أن يستأنف غزواته مرة أخرى فى الاتجـاه الغربى. وفى مطلع عام ١٨٩٧ أرسل قوة بقيادة ابنـه فـضل الله إلـى جوجوبـا (Gujba)، كما أرسل قوة أخرى بقيادة أحد قادته هو الشيخ داب (Dab)، وتقـدمت هذه القوات حتى أصبحت على بعد ستة أميال من كتـاجوم. وهكـذا كـان رابـح والأوربيون معًا مصدرًا لإضعاف معنويات سوكوتو(٣).

---

(١) – Brennre, L.: The shehus of Kukawa; A history of the Al – Kanemi dynasty of Bornu, pp123
- Adeleye. R.A.: op.cit. p.405

(٢) – Brennre, L.:op. cit., P. 123

(٣) Adeleye. R.A.: op.cit. p 405.

وفى الفترة من عام ١٨٩٤ حتى ١٩٠٠ أصبحت مناطق النيجر الأوسط ومناطق نفوذ رابح (منطقة بحيرة تشاد) الهدفين الهامين الملحين للتوسع الفرنسى في وسط السودان. وكان هدف الفرنسيين أن يحولوا بين البريطانيين وادعاءاتهم فى احتلال أى جزء من تلك المناطق. وكان هناك تنافس حاد بين البريطانيين والفرنسيين فى برنو من سنة ١٨٩٤ حتى سنة ١٨٩٧. وفى غضون ذلك التنافس كان كل طرف يسارع إلى إقامة مراكز عسكرية له الواحد بعد الآخر. لذلك سارع البريطانيون فى أوائل سنة ١٨٩٧ بغزو بيدا (Bida) والورين (Ilorin) حتى يمهدوا الطريق لمد نفوذهم إلى خلافة سوكوتو، مما يؤدى فى نهاية المطاف إلى الاتصال برابح وضم أقاليمه الشاسعة بما فيها برنو. ولهذا السبب كان هدف البرنامج الفرنسى هو التوغل السريع إلى منطقة بحيرة تشاد بهدف كسب صداقة رابح والتحالف معه إن أمكن. وكان هناك تقدم ذو اتجاهين نحو منطقتى تشاد والشارى. وحيث أن برنو لم تكن لها أى علاقات قائمة على أية معاهدات مع أى دولة أوروبية، فقد كان هناك اعتبار بأنها مفتوحة أمام أية قوة يمكنها إقناع رابح أن يعقد معاهدة معها(١).

وقد أدرك البريطانيون عام ١٨٩١ الخطر الذى تستهدف له مصالحهم من جراء إتاحة الفرصة للفرنسيون للتحالف مع رابح. وعلى ذلك فقد عمل البريطانيون على تزايد الصلات بين رابح وشركة النيجر الملكية والحكومة البريطانية فى مصر ووزارة الشؤون الخارجية منذ عام ١٨٩٣، بغرض تحقيق تحالف بريطانى مع رابح. والمعروف أن رابحًا كان فى خدمة الزبير باشا قبل أن تعتقله الحكومة المصرية فى القاهرة سنة ١٨٧٤(٢). وبعد ذلك استأنف رابح خدمته تحت حكم ابن الزبير سليمان حتى لاذ بالفرار من قوات الحكومة المصرية عام ١٨٧٩. وقد

---

(١) Brenner, L.: op.cit., p. 124.

(٢) انظر الفصل الثانى، ص ٥٢.

حاول البريطانيون استغلال الصلة بين رابح والزبير لصالحهم، فمارست الحكومة البريطانية ضغطًا على الزبير باشا ليكتب خطاب تقديم وتعريف إلى رابح يستحثه فيه أن يقيم علاقات سليمة مع البريطانيين والألمان الذين كانوا يرغبون فى توطيد نفوذهم فى برنو وغربها. وقد أكد الزبير فى خطابه إلى رابح أن هدف القوى الأوروبية هو ممارسة التجارة على نحو سلمى، ولتحقيق هذا الهدف كانوا يجدّون فى السعى نحو تحقيق التعاون مع رابح. ولكن التأكيد الذى أوضحه الزبير فى خطابه على ماكان يتلقاه من حسن معاملة من جانب الحكومة المصرية – وهو أمر لم يستلهم حب رابح – وكذا إفصاح الزبير غير المقنع عن وجهة نظر معادية للخليفة المهدى، قد يكون من شأنه أن يخلق استعدادًا مقدما لدى رابح أن يرفض التماس سيده السابق. وكانت هناك اتصالات أخرى بين الزبير ورابح، بيد أن وجهة نظر الأخير ظلت كما هى دون أن يطرأ عليها أى تغيير(١).

ومهما كان الأمر فإن التجربة بين عامى ١٨٩٣ و ١٨٩٥ قد علمت البريطانيين أن أى قوة أوروبية لا يمكنها أن تبرم معاهدة مع رابح، ولهذا فقد تخلوا عن فكرة استخدامه كوسيلة لضم برنو دون تخليهم عن احتلالها. وبعد عام ١٨٩٥ كان مأمولاً أن يتحقق أمل البريطانيين فى احتلالهم لبرنو على ضوء الحقيقة التى مؤداها أن المتنافسين عليها لن يكونوا فى وضع يمكنهم من الاتفاق مع رابح. ولقد أثار اشتداد حمية المنافسة بين البريطانيين والفرنسيين فى الفترة من ١٨٩٧ حتى ١٨٩٨ فى النيجر الأوسط، موضوع رابح من جديد وبطريقة ملحة، بحيث دفعت شركة النيجر الملكية لتعد خططًا للزحف نحو (رابح) فى الموسم الجاف لعام ١٨٩٧/ ١٨٩٨. وكانت الخطة تنصب حول سحبه فى الاتجاه الغربى، ثم القضاء على جناحى جيشه وطرده فى مواجهة أدموة أو بوشى أو كانو وهى الأمارات الوحيدة من أمارات سوكوتو التى قد تكون على استعداد للتعاون ضده. ولكن

---

(١) Perham, M. & Bull, M.: The dairies of Lord Lugard, 4, p. 81.
- *Flint. J.E.: op.cit., p. 296.*
- Adeleye. R.A.: op.cit., pp. 408-409.

مشروع الشركة قد تهاوى فجأة عندما أصبح واضحًا أن ميثـاق تأسيسـها سـوف ينتهى العمل به(١).

وكانت السياسة البريطانية – قبل إعلان الحماية البريطانيـة علـى شـمال نيجيريا – تدور حول ترك رابح للفرنسيين والألمان. وكان مـأمولاً أنهـم سـوف يطردونه إما شرقًا أو غربًا. فإذا ما طرد غربًا، كانت هناك حملة بريطانية تقف له بالمرصاد فى ذلك الاتجاه، وكانت تلك الحملة متحالفة مع إمارات سوكوتو الشرقية التى كانت تكن كراهية كبيرة لرابح(٢).

وفى نفس الوقت لجأت الحكومة الفرنسية فى تحركها الجديد لإحباط التهديد البريطانى المزعوم وتفادى خطره على طموحها الاستعمارى، إلى نفس الأسـاليب فيما يتعلق برابح، تلك الأساليب التى مارسها البريطانيون، وهو اسـتغلال صـلة الزبير باشا برابح. وحصلوا من الزبير على خطاب تقديم إلى رابح، دعا فيه ذلـك الأخير إلى أن يستقبل الحملات الفرنسية بترحاب والتى هدفها إقامة علاقات وديـة بينه وبين الحكومة الفرنسية. وأوضح له أن هدف الفرنسيين، هو الترويج للتجـارة الفرنسية والعمل على تنميتها فى المنطقة، وكذا تدعيم وتعزيز سلطة رابح فى كافة البلدان الواقعة بين تمبكتو ونهر النيل. وأعطت الحكومة الفرنسية نسخة من ذلـك الخطاب لجنتى (E. Gentil) وهو قائد حملة فرنسية توجهت إلى بجرمى والـشارى وبرنو، وقد بدأت هذه الحملة رحلتها من الكونغو عام١٨٩٧. كما أعطت الحكومـة الفرنسية نسخة من ذلك الخطاب إلى الكابتن جازماجو (Gazamajou)، وكان علـى رأس حملة فرنسية أخرى تسمى بعثة وسط أفريقية، كانت متوجهة إلى رابح مـن داهومى عبر النيجر(٣).

---

(١) -Williamson, J.A.: The foundation & growth of the british empire, p. 329
- Adeldye, R.A.: op.cit., pp. 408-409.

(٢) Ibid., p. 409

(٣) Crowder, M.: The Story of Nigeria, p. 222.

ولقد كان لهذا التسابق الاستعماری نحو تشاد أثر فی أن جعل رابحًا عـاملاً حيويًا غاية فی الحساسية فی العلاقات السياسية للقوی العديدة المتـصارعة، سـعيًا وراء إبرام معاهدة مع سوكوتو من أجل مناطق أقاليم سوكوتو وبرنو فی مطلع عام ١٨٩٨ كانت قوات رابح مصدر الإمارات سوكوتو الشرقية. ويبدو أن ضغط جيش رابح استمر، ولكن دون تقدم فعلی خلال عام ١٨٩٧. وكانت النتيجـة المباشـرة للتوغل الفرنسی، هی أنه أدی بلا عمد أو قصد إلی حل أزمة سوكوتو، حيـث أن قـوات رابـح كانت قد أسرعت بالعودة من هناك لصد حملة جنتـی (E. Gentil)، التی كانت قد وصلت إلی مشارف بجرمي. وكانت ضربة الحظ هذه قـد تأكـدت علی ضوء تمزق التحالف بين رابح وحياتو عام ١٨٩٨، الذی لقی مـصرعه فـی معركة وقعت بعد ذلك ضد قوات رابح بقيادة ابنه فضل الله، كما أن التقدم الفرنسی من الكونغو نحو الشاری ومناطق بحيرة تشاد جعل رابحًا بعيدًا بصفة دائمة عـن أراضی سلطنة سوكوتو حتی وفاته[١].

وفی نفس الوقت فإن الحملة المناظرة لحملة جنتی (حملة جازاماجو) والتـی خصصها الفرنسيون لاستطلاع خط ساى – بروا وفتح العلاقات مـع رابـح، أدت إلی إحداث تطورات جديدة فی وجهة نظر سوكوتو تجـاه الفرنـسيين، حيـث أن اقترابها من المنطقة كان مثار مخاوف بغزو سوكوتو، رغم أنها كانت مكلفة فقـط بعملية استطلاع هذا الخط وليس الهجوم علی سوكوتو. إلا أن مجرد العلـم بـأن الحملة قد أرسلت لزيارة رابح – عدو سوكوتو – جعل موقـف فرنـسا موضـع ارتياب بصورة غير عادية فی سوكوتو. وكانت تعليمات الحكومة الفرنسية إلی قائد الحملة أنه إذا ما كانت سيطرة رابح علی برنو كاملة وبوسعه أن يكسب ثقته فيجب ألا يتردد فی أن يبرم معه معاهدة تجارية أو تحالفًا أو حتی حماية. وكـان هنـاك تأكيد بأن الأمر الهام هو إيجاد حقوق لا نزاع فيها لفرنسا علی الصفة الغربية لنهر

---

(١) Brenner, L.: op.cit., p. 243.

تشاد، أو على الأقل جوانبه الشمالية والشرقية. ولهذا السبب كانت شكوك سـوكوتو سليمة وفى موضعها(١).

وكانت هذه الحملة الفرنسية (حملة جازاماجو) وغيرها من الحملات الأخرى التى تعاقبت بعد ذلك، تهدف إلى مد النفوذ الفرنسى حول منطقة تشاد بالتحالف مع رابح أو معارضته. وكانت لهذه الحملات أثرها ومغزاها، إذ أنها أعطـت خلافـة سوكوتو انطباعًا مضللاً، بأن العدو الذى يخشى خطره هـو الفرنـسيون ولـيس الإنجليز.

ولقد منيت هذه الحملة الفرنسية بنهاية مؤسفة بمصرع قائدها فى زندر فـى مايو ١٨٩٨، وذلك على ما يبدو بسبب الارتياب فى أنه كان يقود حملة ودية إلـى رابح. وقد حاولت بريطانيا استغلال الخوف الذى أثارته هذه الحملة الفرنسية فـى سوكوتو لصالحها، فانتهزت كل فرصة متاحة لتؤكد للخليفة الخطر الـذى شـكلته الحملة الفرنسية على سيادته. وعلى كل حال فعندما حاول البريطانيون أن يرسـلوا ممثلاً مقيمًا فى سوكوتو كرمز على الاستعداد البريطانى لحماية الخليفـة، رفـض الخليفة ذلك بقوة(٢).

وهكذا مع وجود خلافة سوكوتو المعادية لكل من شركة النيجر الملكية (بريطانيا) ورابح، كان المجال مفتوحًا من جديد أمام الفرنسيين لمتابعة طموحهم فى منطقة تشاد. ومن ثم فقد تعاقبت حملاتهم واحدة إثر الأخرى. وفى أثناء أولى حملات جنتى التى كان هدفها فى المقام الأول هو تحقيق الملاحة فى الشارى وحوض تشاد، وقع جنتى معاهدة حماية مع السلطان مبانج (Mbang)

---

(١) محمود شاكر: نيجيريا. ص ٧١.

(٢)
- Kanya – Forstner. A. S.: op. cit., p. 243.
- Adeleye. R.A.: op.cit. p.410
- Crowder. M,: The story of Nigeria. p. 77.

سلطان بجرمى سنة ١٨٩٧، ثم تقدم حتى وصل بحيرة تشاد. واستقبل استقبالاً حارًا من قبل مدن لوجون وكوسيرى وجولفى التى كانت تعد مواقع عسكرية تحت حكم رابح. وخشى رابح أن يباغته الفرنسيون من هذا الاتجاه، فاستدعى حامياته للتوجه غربًا نحو دكوة قبل قدوم جنتى، ولكنه لم يستطع تعقب حملة جنتى، فكان يصل إلى كل موقع كانت تزوره بعد يوم مغادرتها له. وقد أنزل رابح العقاب بحكام المدن الواقعة على بحيرة تشاد التى أحسنت استقبال حملة جنتى(١).

وقبل أن تغادر حملة جنتى منطقة تشاد، وكانت هناك حملة فرنسية أخرى فى طريقها إلى المنطقة بقيادة دى بهاجل (De Bahagle) وكانت محملة بالمواد التموينية، واتخذت من تشاد مركزًا لها، ثم اتسعت دائرة نشاطها حتى وصلت بجرمى وواداى ودارفور ثم كانم. وتمكن قائدها أن يصل برنو فى مايو ١٨٩٩، وأصبح دى بهاجل أول أوروبى يزور رابح فى دكوة، وقد استقبل استقبالاً حارًا على أساس إعلانه أنه قدم إلى المنطقة لممارسة التجارة على نحو سلمى(٢).

وفى أواخر عام ١٨٩٩ بدأت ثلاث حملات فرنسية مدججة بالسلاح رحلتها إلى المنطقة؛ وهى حملة فولى شانوانى (Voulet Chanone) التى كانت وافدة من الغرب والتى أصبحت تحت قيادة جولان (Joulland) بعد حركة تمرد بين أفرادها، ثم حملة لامى (Lamy) التى كانت تقترب من الشمال عبر الصحراء الكبرى(٣). وأخيرًا حملة جنتى (القادمة من الشارى) وكانت تتقدم من الكونغو. وقد رأسها برتونى (Bretonnet) بوصفه المقيم المعين فى بجرمى. وبعد تجربة عام ١٨٩٧ شدد رابح حراسته على المداخل الشرقية والجنوبية لمناطق نفوذه ولهذا كان على علم مسبق بمقدم برتونى؛ الذى كان يحتل تل نيلم فى توجيو وكان يطل على النهر فى

---

(١) – Crwder, M,: The story of Nigeriaa. P. 222 – 223.
– Adeleye. R.A.: op.cit. p.411

(٢) – *Urvoy,: lHistoire de lEmpire du Bornou, PP. 126 - 127.*

(٣) – Kanya – Forstner. A. S.: op. cit., p. 243.

منتصف الشارى. ودارت معركة بين الطرفين قادها رابح بنفسه، وقتل فيها برتونى وأغلب أفراد حملته. وفى ذلك الوقت وصلت الحملة الرئيسية بقيادة جنتى إلى كونو (Kuno) لتواجه جيشًا كبيرًا بقيادة رابح، ولكن النصر فى هذه المرة كان إلى جانب الفرنسيين وفر رابح بهزيمة قاسية. وكانت النتيجة المباشرة لهذه المعركة هى أن بجرمى ضاعت من رابح نهائيًا [١].

وفى نهاية المطاف تجمعت الحملات الفرنسية الثلاث فى حوض نهر تشاد فى الشهور الأولى من عام ١٩٠٠ تنفيذًا لمخطط حكومتها فى هذا المقام. وفى نفس الوقت، فإن حملات وسط أفريقية ولامى كانت قد احتلت دماجرام (Damagram)، وتحقق لها إخضاع كانم وهى فى طريقها. وقد فرض رابح حماية مشددة للمدخل الجنوبية للشارى. وفى أوائل أبريل ١٩٠٠ دخل رابح وابنه فضل الله فى مناوشات مع الفرنسيين تحقق فيها النجاح للفرنسيين، وتحرك رابح من جولفى إلى مكان يقرب حوالى أربعة أميال من كوسيرى. ولكن المدينة كانت هدفًا عسكريًا للفرنسيين واستطاعوا الاستيلاء عليها. فاضطر رابح إلى نقل قواعده من جولفى إلى كوسيرى ومن كوسيرى إلى لوجون[٢].

وفى ٢١ أبريل ١٩٠٠ تشكلت القوات الفرنسية فى حملة واحدة قوامها ٧٠٠ مقاتل مسلحين بالأسلحة النارية، و٣٠ فارسًا و١٥٠٠ جندى من البجرميين تحت القيادة الشمالية للامى (Lamy). وتصدت هذه القوة لرابح فى معركة كبيرة فى ٢٢ أبريل ١٩٠٠ وحقق الفرنسيون فيها نصرًا كبيرًا على رابح الذى لقى حتفه[٣]. وأعلنت كافة الدويلات الخضوع والاستسلام للفرنسيين. وسرعان ما تجمعت فلول الجيش الهارب لرابح حول فضل الله لتلحق بنيوبى (Niebe)؛ وهو ابن آخر لرابح كان على رأس قوات أخرى فى دكوة، وتركوها ولاذوا بالفرار غربًا. وفى يوم ٢٢

---

(١) - Urvoy,: lHistoire de lEmpire du Bornou, P. 129

(٢) - Urvoy, Y.: Histore des Populations du soudan central. P.326

(٣) Boibaku, S. & Al-hajj, Muammad: The Sudanese Mahdiyya & The Niger – Chad. Region; Islam in tropical Africa, edited by I. M. Lewis, p. 345.

أبريل عام ١٩٠٠ تقدمت حملة فرنسية من موسيرى تعقبًا لآثار فضل الله وتمكنت من احتلال دكوة دون مقاومة فى شهر مايو ، ثم طاردت فضل الله من مكان دون أن تستطيع اللحاق به. وأخيرًا اضطر فضل الله بعد أن يأس من هذه المطاردة إلى الهرب نحو الاتجاه الشمالى الغربى، ومن هناك اتجه نحو كلبًا (Kilba)، فاضطرت الحملة الفرنسية إلى الرجوع إلى قاعدتها فى كوسيرى[١].

وكان المتنافسون الأوربيون وهم بريطانيا وفرنسا وألمانيا قد خشوا من قبل أن تؤدى حدة صراعهم حول استعمار منطقة تشاد إلى الصدام فيما بينهم. فاتفقوا على تقسيم المنطقة بمقتضى اتفاقيات التقسيم التى وقعت فيما بينهم عام ١٨٩٨، ونصت على تقسيم البلاد المحيطة ببحيرة تشاد بينهم فتحددت منطقة تشاد والكاميرون لفرنسا، ومن دكوة إلى برنو دخل نيجيريا للبريطانيين، ومنطقة الكاميرون البريطانى من وسيرى إلى دكوة ثم إلى أدموة لألمانيا[٢].

وبعد أن حقق الفرنسيون النصر الحاسم على رباح وتمكنوا من طرد ابنه فضل الله خارج مناطق نفوذهم ، تمكنوا من تعزيز مواقعهم فى دلتا الشارى وتشاد، وأعادوا الأسرة الكانمية إلى الحكم فى برنو حيث أعلنوا تنصيب سندة كورا (كيورا) بن إبراهيم شيخًا على برنو فاتخذ لنفسه اسم الشيخ عمر سندة وانتقل إلى دكوة فى يونيو عام ١٩٠٠[٣].

وهكذا عادت الأسرة الكانمية إلى حكم برنو ولكن تحت الحماية الفرنسية وقد فرض الفرنسيون مبلغ ٨٠,٠٠٠ دولار ماريًا تريزا على برنو كإتاوة تدفع لهم، ولكنهم أطاحوا بالشيخ عمر سندة بعد ذلك ببضعة أشهر بسبب المؤامرة التى حاكها

---

(١) نعوم شقير : جغرافية وتاريخ السودان ، ص ٦١٧.
(٢) -Hertslet, K. C. B. : op. Vol.2, pp. 787 – 788.
-Thomson, A. A. & Middleton, M Lugard in Africa, p. 157
- ابراهيم صالح بن يونس : تاريخ الإسلام وحياة العرب فى إمبراطورية كانم – برنو، ص ١٦٥.
(٣) نفس امرجع ، ص ١٦٦.

أخوته ضده من ناحية، ولعدم ولائه لهم من ناحية أخرى. وفى نهاية سنة ١٩٠٠ أحلوا محله أخاه بوكار بن إبراهيم المعروف باسم غرباى[١].

وقد قبل بركار شروط الفرنسيين فى دفع ديون عمر سندة ، كما قبل أن يدفع ٨٠٠٠ دولارًا جديدًا عن نفسه. وقد برهن بوكار على أنه متطرف الإخلاص للفرنسيين، وفى وضعه هذا الخاضع فيه للحماية الفرنسية تخلى عن طيب خاطر عن حقوق برنو فى دويلات كوتوكو وجومل وزندر[٢].

وفى ظل عدم استقرار أحوال برنو لم يكن لديه أى خيار سوى أن يتمثل الولاء للفرنسيين، كما أن الخطر الذى شكله فضل الله بن رابح – الهارب من الفرنسيين على نظام حكمه، جعل اعتماده على العون الفرنسى ضرورة عملية بالنسبة له. غير أنه فر إلى كانم – موطن أجداده – عام ١٩٠١ لخوفه من فضل الله من ناحية أخرى[٣].

ولم يتخل فضل الله بن رابح مطلقًا عن حقوقه فى مناطق نفوذ والده. ومن ثم أعاد تعزيز قواته من قاعدته كلبًا (Kilba) حيث بقى هناك ، ودأب على ذلك حتى أواخر عام ١٩٠٠. وقد وجه نشاطه إلى تحقيق روابط وصلات ودية مع الإمارات الشرقية لخلافة سوكوتو ومع البريطانيين؛ الذين أعلنوا حمايتهم على شمال نيجيريا فى أول يناير ١٩٠٠. ففى شهر سبتمبر سنة ١٩٠٠ أرسل فضل الله رسولاً من كلبًا إلى إبى (Ibi) يحمل إلتماسًا للحكومة البريطانية للاعتراف به كأحد الرعايا البريطانيين. وعلى ضوء المناوشات الفرنسية داخل برنو كان لوجارد –

---

(١) –Thomson, A. A. & Middleton, M,op., p157
– Crwder, M,: The story of Nigeriaa. P. 223.
– Burns, Sir Alan: History of Nigerua, P. 47

(٢) – Hogben, S.J. & Kirk – Greene , A. H. M:. The emairates of Northern Nigeria, p. 338
– Crowder,m.: The story of Nigeria, P. 104.

(٣) –Thomson, A. A. & Middleton, M,op., p157
Adeleye, R.A.:op.cit., p. 415.

كبير القادة البريطانيين فى شمال أفريقية – تواقًا إلى أن يتخذ إجراء حاسمًا لتعزيز الوجود البريطانى فى تلك المنطقة، مستغلاً فى ذلك موقف فضل الله ومطالبته بمناطق نفوذ والده التى أصبحت تحت الحماية الفرنسية. وهكذا كان هناك اتفاق فى الأحداث على هذا النحو، وكذلك اتفاق فى المصالح السياسية بين فضل الله والبريطانيين. ولقد حاول الطرف الأخير منذ ذلك الحين أن يستخدم الطرف الأول كوسيلة لاحتلال برنو[1].

وعلى الفور تحرك فضل الله إلى جوانى (Gwani) وفى نوفمبر سنة ١٩٠٠ شن هجومًا على الشيخ بوكار شيخ دكوة وحقق انتصار ساحقًا على قواته بالقرب من نجالا فى ٢٦ نوفمبر ١٩٠٠. وفى خلال الفترة من نوفمبر إلى ديسمبر من نفس العام حينما غادر جنتى المنطقة إلى فرنسا لقضاء إجازته هدد فضل الله دويلات كوتوكو بالهجوم عليها وفى ٦ ديسمبر ١٩٠٠ قام فضل الله مرة أخرى بشن هجوم على قوات بوكار ، وكتب إلى القائد الفرنسى فى المنطقة طالبًا أن يعيد السبايا والغنائم والأسرى الذين تم الاستيلاء عليهم من والده. وفى تحد كامل للفرنسيين اجتز رأس رسولين أرسلهما له الماجور روبلو (Robillot) ليحملا إليه، وعد ذلك الأخير بالابقاء على حياته ومعاملته معاملة حسنة، إذا ما أعلن استسلامه. وقد أرسل الفرنسيون قوة كبيرة لقمع فضل الله فى يناير ١٩٠١، بيد أنها لم تستطع اللحاق به إذ أنه لاذ بالفرار غربًا داخل برنو البريطانية[2].

ويبدو أن مساعى فضل اله الملحة فى الإمارات الشرقية لسوكوتو نحو تحقيق صداقتها والتعاون التجارى معها فى مطلع عام ١٩٠١ – كانت لها نتائج طيبة. فلقد أقام علاقات حسنة مع أمير جومبى (Gombe) التى كانت جوانى ضمن إمارته. أما أمير بوشى فقد رفض باتًا وقاطعًا أن تكون هناك معاملات من أى نوع مع فضل الله. ومن ديسمبر ١٩٠٠ إلى يوليو ١٩٠١ استمر فضل الله فى الكتابة

---

(١) Crowder,m.: The story of Nigeria, pp. 222-223

(٢) إبراهيم صالح بن يونس : المرجع السابق ، ص ١٦٤ – ١٦٥.

بإلحاح إلى الممثل البريطاني المقيم في إبي (Ibi) ليعترف به حاكمًا على برنو. ورغم أن البريطانيين كانوا يشجعون فكرة تعيين فضل الله حاكمًا على برنو مما يمهد لهم ضمها إلى مناطق نفوذهم، إلا أنهم كانوا مترددين في ذلك. لأن فضل الله كان مسؤولاً عن موت بهاجل أحد قواد الحملات الفرنسية، وإذا اعترف البريطانيون به كحاكم على برنو فسوف لا يجد ذلك قبولاً من جانب الفرنسيين[١].

وأخيرًا لم يجد البريطانيون أمامهم سوى الموافقة على تعيين فضل الله حاكمًا على برنو بعد أن رفض الشيخ بوكار الخضوع لإمرتهم، فغادر الماجور ماكارتي موري إبي (Ibi) في أكتوبر متوجهًا إلى معسكر فضل الله لينتقل إليه رغبة الحكومة المصرية في تعيينه حاكمًا على برنو، ولكن جهود البريطانيين راحت أدراج الرياح؛ إذا اكتشفت حملة مورو وهي في طريقها إلى هناك مصرع فضل الله. حيث قتل في اشتباك مع الفرنسيين في جوجبا (Gujba)[٢]. بعد أن شن هجومًا آخر على الشيخ بوكار؛ الذي كان قد استعاد مواقعه القريبة من دكوة، ولكنه خوفًا من انتقام فضل الله هرب إلى كانم موطن أجداده. وقد قامت قوة فرنسية بتعقب فضل الله واقتفاء أثره في دكوة وقتلته أثناء العمليات الحربية. وهكذا سقط فضل الله وهو يحاول الاستيلاء على منصب شياخة برنو الشاغر ، بينما كان يتفاوض مع البريطانيين وبموته انتهت تلك المغامرة التي بدأها والده[٣].

ثانيًا – الحماية البريطانية:

استفاد البريطانيون من سقوط فضل الله، فبمجرد أن علم بذلك لوجارد الذي تولى في ذلك الوقت مسؤولية إدارة المصالح البريطانية في المنطقة – نظم حملة

---

(١) – Crowder, M.:West Africa undet colonial rule, p. 138
– Crowder, M.:West Africa undet colonial rule, p. 223

(٢) –Thomson, A. A. & Middleton, M,op., p157
– Burns, sir Alan: op. cit, p. 89

(٣) – Urvoy,: Histoire de l'Empire du Bornou, P. 129.
- شوقي الجمل : تاريخ كشف أفريقية واستعمارها، ص ٥٠٢.

على عجل بقيادة مورلاند (Morland) تحركت داخل برنو فى مارس عام ١٩٠٢، حيث أعاد البريطانيون الأسرة الكانمية إلى الحكم. فعندما سمع البريطانيون أن الشيخ غرباى قد هرب إلى كانم عام ١٩٠١ بسبب الأعباء الضريبية الثقيلة التى فرضها عليه الفرنسيون وكذلك لخوفه من فضل الله بن رابح – عرضوا عليه أن ينصبوه شيخًا على برنو تحت حمايتهم إذ ما عاد. وقد استجاب غرباى لهذه الدعوة ونصب بالفعل شيخًا على البلاد فى عام ١٩٠٢[١].

عين البريطانيون إلى جانب شيخ برنو – الذى كان له سلطة إسميه فقط – حاكمًا بريطانيًا يدعى مستر هيبى كان صاحب السلطان الفعلى فى البلاد ويتبعه عدة نواب فى الأقاليم والبوادى ووظيفتهم لا تعدو جمع الجبايات والضرائب وتقديمها إليه واستمر هذا النظام حتى استقال برنو عام ١٩٦٠[٢].

ولم تعد كوكاوة عاصمة برنو صالحة للإقامة – بعد أن دمرها رابح ، علاوة على أنها تحتاج إلى وقت طويل للإصلاح ، ولذا فقد أقام الشيخ غرباى فى مونجونو (Monguno). وفى عام ١٩٠٣ تم تشيد مدينة كوكاوة بصورة متواضعة, وخلال الفترة من عامى ١٩٠٣ و ١٩٠٤ ازدحمت بالسكان بصورة ملحوظة ، ولكنها لم تعد صالحة لتكون عاصمة لبرنو لعدم توسطها البلاد، علاوة على سوء أحوالها المناخية. وكان المكان الذى وقع عليه الاختيار للعاصمة يقع على حافة هضبة منخفضة ترتفع بمقدار قدم تقريبًا عن سطح البحر على الضفة اليسرى من نهر الو (Alo) ، ويقع بين قرية ميدوجورى (Maiduguri) وبين قلعة مايفونى (Maifoni)، وكان هذا الموقع يتحكم فى طريق التجارة إلى الأراضى الواقعة على ضفتى النيل[٣].

---

(١) شوقى الجمل : المرجع السابق ، ص ٥٧٣ ـ ٥٧٤.
- إبراهيم صالح بن يونس: المرجع السابق، ص ١٦٩.
(٢) نفس المرجع، ص ١٧٠.
(٣) – Urvoy, Y.: Histore des Populations du soudan central. P.326.
– Hogben, S.J. & KIRK-Greene. A.H.M.: op. 338.

وتعتبر ميدو جورى منطقة صالحة للسكنى أكثر من غيرها، فـإن تربتهـا خصبة وتحيط بها الوديان والسهول والأنهار الصغيرة من جميع نواحيها ومناخهـا معتدل وهى الآن (١٩٦٦) أكبر مدينة فى شمال نيجيريا[١].

انتقل الشيخ غرباى ورجال بلاطه إلى العاصمة الجديدة فى التاسع من يناير عام ١٩٠٧، وعمدت هذه العاصمة باسم يروا (Yerwa)، غير أن الإدارة المدنيـة للشيخ اتخذت ميدو جورى مقرًا لها. وقد شيدت العديد من المبـانى مـن الطـراز الحديث، كما أقيمت إلى جانب ذلك ثكنات لحرس الشيخ[٢].

وقد استمر الشيخ غرباى شيخًا على برنو حتى وفاته عام ١٩٢٢، فخلفه أخوه الشيخ سنده كيورا شيخًا على برنو تحت الحماية البريطانية[٣]؛ وفى عهدا هذا الـشيخ حدثت حادثة كان لها أبعد الأثر على علاقة الأسرة الكانمية بالعرب المقيمـين فـى برنو؛ وهى حادثة قتل محمود بن موسى لابن الشيخ سنده المعروف بغيدمة. والسبب فى ذلك أن محمودًا كان أحد أبناء القواد العرب الذين عاونوا الشيخ محمـد الأمـين الكانمى فى تأسيس حكم أسرته فى برنو، ونظرًا للصلات القوية بين خلـف هـؤلاء القواد والأسرة الحاكمة الكانمية، ظل محمود يتمتع كغيره من ذوى الامتيازات بمنزلة عالية، كما ولى فى الحكومة عدة وظائف. وقد أصبح أخيرًا حاكمًا إقليميًـا بمنطقـة مونجونو، ولكنه كان يتصرف فى شؤونه بصفة مستقلة. فساور الشيخ الشك فى ولاء محمود، فأسرع قبل أن يستفحل أمره بعزلة من تلك الولاية، وشق على محمود هذا التصرف، ففكر فى القيام بتمرد ضد السلطة الحاكمة[٤].

وحدث أن شكاه بعض الناس للشيخ مطالبًا إياه بمبلغ كبير أخذه محمود منـه كدين عندما كان حاكمًا. ومارس الشيخ سلطته فى هذا الأمر تجاه محمود وأجبـر على الدفع أمام حاضريه. وقد أثار هذا الموقف غضب محمود، وكان قد اصطحب

---

(٢) إبراهيم صالح بن يونس: المرجع السابق، ص ١٧٠ ـ ١٧١.

(٣) Hogben. S.J. & Kirk-Greene. A.H.M.: op.cit.. pp. 338-339.

(٤) - Palmer. R.: The Bornu Sahara & Sudan. p. 269.

- إبراهيم صالح بن يونس: المرجع السابق، ص ١٨٠.

(٥) نفس المرجع، ص١٨٠.

معه بندقية صغيرة فى جيبه وأخذ يخرجها برفق، ولكن أحد الحاضرين فطن لحركته، فصاح على الحراس الذين أحاطوه، فأمر الشيخ بخروجه إلى منزله[١]. ظل محمود يفكر فى طريقة ينتقم بها من الشيخ بعد أن نزع من يديه كل شئ، ولما رأى أنه لا يسمح له بدخول دار الشيخ، احتال ونادى رجلاً من المقربين إلى الشيخ وأفهمه أنه يريد أن يصلح ما بينه وبين أبيه، فصدقه الرجل ودعا الابن المذكور حتى جاء به إلى بيت محمود، وذهب إلى حال سبيله. وعندما تأكد لمحمود أنهما وحدهما أجهز عليه بمسدسه فأرداه قتيلاً. وكان رجل بالقرب من مكان الحادث وشاهد جثة ابن الشيخ ملقاة فى الطريق بالقرب من منزل محمود، فتعرف عليه، واستدعى حرس الشيخ حيث دارت معركة بالأسلحة النارية بين الحرس ومحمود انتهت بمقتله. ويدل ذلك على أن محمود كان يعد نفسه للقيام بتمرد ضد الشيخ، فقد عثر الحرس فى منزله على مخزن للأسلحة يكفى بهجوم شامل. وقد تركت هذه الحادثة التى وقعت عام ١٩٣٥ أسوأ الأثر فى نفوس الكنوريين[٢].

وفى عهد الشيخ سنده كيورا، دعمت الإدارة نفسها، ووجهت عنايتها إلى تطوير مراعى برنو الكبيرة وإعدادها لرعى الماشية وبدأت برنو تنتعش إقتصاديًا ويظهر عليها أثار التطور العمرانى والاقتصادى. وقد توفى الشيخ كيورا عام ١٩٣٧. وكان عمره ٩٥ عامًا، وقد بذل جهدًا كبيرًا من أجل تقدم برنو. وخلفه عمر بن محمد الأمين (الكيارمى)[٣].

وقد زار الشيخ عمر لاجوس عاصمة نيجيريا عام ١٩٣٨ بعد توليه الحكم بعام واحد. وفى عام ١٩٥٢ نظم حفلة خاصة كرمز لليوبيل الذهبى لحادثة هامة فى التاريخ البرنوى وهى إعادة الأسرة الكانمية إلى حكم برنو على يد البريطانيين. وفى عهده حصلت الأراضى النيجيرية ومن بينها برنو على استقلالها من بريطانيا عام ١٩٦٠. وفى عام ١٩٦٢ انضمت دكوة إلى برنو وأصبحتا إقليمًا واحدًا[٤].

---

(١) إبراهيم صالح بن يونس: المرجع السابق، ص١٨٠ – ١٨١.
(٣) نفس المرجع، ص١٨١.
(٤) Hogben, S.J. & Kirk-Grene, A.H.M.: op.cit., p. 340.
(٤) ابراهيم صالح بن يونس: المرجع السابق، ص ١٨٣.

وقد استطاع الشيخ عمر طوال فترة حكمه – التى امتدت من سنة ١٩٣٧ حتى وفاته سنة ١٩٦٩ بعد الاستقلال، أن يعمل على تقدم برنو وازدهارها حتى تمكنت من استرداد مجدها التليد بين أقاليم نيجيريا. وقد خلفه على برنو الشيخ عمر بابا الذى ظل شيخاً على برنو حتى الآن(١).

ثالثاً – الاستقلال:

يرجع تأخر الحركة الوطنية فى نيجيريا إلى العديد من الاعتبارات أهمها التخلف الاقتصادى الذى عاشت فيه نيجيريا، ثم التشتت الجغرافى لشعوبها، وانعدام مقومات الاندماج الاجتماعى والثقافى والنفسى بين المجموعات القبلية التى تسكن أقاليم نيجيريا. ورغم ذلك فقد شهدت الأراضى النيجيرية بعض الأنشطة السياسية منذ أوائل القرن العشرين(٢).

فلقد عرف التاريخ النيجيرى حركات الكفاح المسلح ضد سيطرة المستعمر البريطانى، متمثلة فى الحركة المهدية بالمناطق الشمالية عام ١٩١٥، كذلك قامت قبائل اليوربا بمقاومة البريطانيين فى الإقليم الغربى. وعندما انتهت الحرب العالمية الأولى، بدأ دور الحركة الوطنية يظهر بوضوح. فقد كان لمبادئ الرئيس الأميركى ويلسون المعلنة عام ١٩١٨ عن حق تقرير المصير أثر كبير فى نفوس أبناء نيجيريا وغيرهم من الأفريقين ممن كانوا يتلقون تعليمهم خارج بلادهم سواء فى أوروبا أو فى الولايات المتحدة الأمريكية(٣).

وتجسدت الأفكار التحررية الحديثة لهذا الشباب النيجيرى والأفريقى المتعلم فى حركتين تمتا خارج حدود نيجيريا والقارة الأفريقية كلها، وتمثلت الحركة الأولى فى انعقاد أول مؤتمر للوحدة الأفريقية فى باريس عامى ١٩١٨ – ١٩١٩،

---

(١) Hogben, S.J. & Kirk-Greene, A.H.M.: op.cit , pp. 340-341.

(٢) Coleman,J.: Nigeria. Background to Nationalism, pp. 188-191.

(٣) Coleman, J.: op.cit., pp. 190-191.

ودعا المؤتمر إلى توحيد كفاح الشعوب السوداء. ثم عُقد مؤتمران مشابهان للأول، أولهما فى لشبونة سنة ١٩٢٣ والآخر فى نيويورك سنة ١٩٢٧[١].

أما الحركة الثانية للأفريقين خارج أفريقية، فقد تجسدت فى حركة ماركوس جارفى (Marcus Garvey)، الزعيم الزنجى الجاميكى، الذى أسس منظمة (التقـدم العالمية للزنوج) واستهدف توحيد كل زنوج العالم تحت لواء هيئة كبرى تعمل على إنشاء دولة لهم. ولجأ جارفى إلى الترحال عبر أنحاء العالم ليـدعو إلـى أهدافـه ومبادئه المذكورة، حتى جاء إلى لاجوس سنة ١٩٢٠ وأقام بها فرعًا لمنظمته جذب إليه كثيرًا من زعامات نيجيريا الحديثة وعلى رأسهم الـدكتور نامـدى أزيكـوى (Namdi Azikiwe)[٢].

ولقد كانت أهم نتائج وجود جارفى فى نيجيريا، قيام الجماعات المثقفة مـن أبناء منطقة غرب أفريقية بعقد (المؤتمر الوطنى لغرب أفريقية البريطانية) فى أكرا عام ١٩٢٠، الذى حضره مندوبون عن الفئات المتعلمة فى كل من نيجيريا وساحل الذهب وسيراليون وجامبيا. وانتهى المؤتمر بإصدار مذكرة رفعهـا إلـى وزيـر المستعمرات البريطانى وتتضمن أهم المطالب الوطنية لتلك الحركـة ذات الطـابع الإقليمى، ومن أهمها: إنشاء مجلس تشريعى لكل إقليم بـشرط أن يكـون نـصف أعضائه من الأفريقين المنتخبين، والأخذ بمبدأ الفصل بـين الـسلطتين القـضائية والتنفيذية، وإعادة حق تعيين الرؤساء وإقالتهم إلى الشعب، وهو الحق الذى سـحب منهم بناء على نظام الحكم غير المباشر[٣].

إلا أن وزير المستعمرات البريطانى آنذاك، لورد ملز، رفض الاستجابة إلى أى من تلك المطالب المذكورة، كذلك فشلت حركة المؤتمر ذاتها بسبب ما قام بـين المتعلمين من انقسامات وصراعات حول الزعامة والمناصب كل فى بلاده[٤].

---

(١) سامى منصور: المرجع السابق، ص ٧٨.
(٢) نفس المرجع، ص ٧٩.
(٣) سامى منصور: المرجع السابق، ص ٧٩ – ٨٠.
(٤) نفس المرجع، ص ٨٠.

وفى الفترة ما بين سنتى ١٩٢٣، ١٩٣٨ تركزت الحركة الوطنية فى نيجيريا فى عاصمة البلاد لاجوس. وقد تركزت حول انتخابات المجلس التشريعى المركزى كل خمس سنوات. وانتخابات المجلس البلدى لمدينة لاجوس كل ثلاث سنوات. وكانت الشخصية القيادية البارزة فى لاجوس خلال تلك الفترة هو هربرت ماكولى (H. Macaulay) الذى أسس أول حزب سياسى فى نيجيريا هو (الحزب النيجيرى الديمقراطى الوطنى) عام ١٩٢٣[١].

كذلك ظهر إلى جانب الحزب الديمقراطى الوطنى، حزبان آخران هما: حزب الاتحاد الشعبى بزعامة الدكتور راندل، وحزب اتحاد شباب نيجيريا بزعامة الدكتور أوباسا. ولكن جهود هذه الأحزاب الثلاثة تركزت حول الحصول على مقاعد البلدية المخصصة بالانتخاب للأفريقين[٢]. وقد ظل الحزب الوطنى الديمقراطى بزعامة ماكولى حتى عام ١٩٣٨ أهم قوة سياسية منظمة فى لاجوس حيث فاز مرشحوه بجميع مقاعد المجلس التشريعى فى انتخابات أعوام ١٩٢٣، ١٩٢٨، ١٩٣٣[٣].

وفى عام ١٩٣٠ ظهر التنظيم الحزبى الهام الثانى فى حياة نيجيريا السياسية – فى فترة ما بين الحربين – وهو حركة شباب لاجوس بزعامة أولاوو (Awolwo). وقامت هذه الحركة بتمثيل الفئات المتعلمة المنتمية للطبقة المتوسطة فى أنحاء جنوب نيجيريا. وفى سنة ١٩٣٣ تغير اسم الحركة إلى حركة شباب نيجيريا، تعبيرًا عن اتساع نطاق أهدافها السياسية وقومية نظرتها إلى شمول نيجيريا ككل لا يتجزأ. وقد كسبت هذه الحركة المعركة الانتخابية سنة ١٩٣٨ أمام الحزب الديمقراطى الوطني، واستطاعت الفوز بجميع مقاعد المجلس التشريعى المخصصة للنيجيريين فى لاجوس[٤].

---

(١) Schwarz W.: Nigeria. p.83.

(٢) نازلى معوض أحمد يوسف: الحركة الانفصالية فى نيجيريا (قضية بيافرا). رسالة ماجستير، ص ٨٣.

(٣) Schwarz, W.: op.cit., p. 83.

(٤) Ibid., p. 84.

إلا أن النزعات القبلية عادت فتغلبت على الاتجاه الوطنى الوحدوى لحركة شباب نيجيريا، وسرعان ما انشق عنها أزيكوى سنة ١٩٤١ لينشئ حزب (المجلس الوطنى لنيجيريا والكاميرون) كما انسلخ عنها أولاوو وكون (حزب جماعة العمل)[١].

وكان الحزب الثالث الرئيسى فى نيجيريا الذى سيطر على الحياة السياسية للإقليم الشمالى هو حزب مؤتمر شعب الشمال ورأسه أبو بكر تفاو، الذى كان فى حقيقته تعبيرًا عن نظام الإدارة القائم فى الإقليم الشمالى على أساس من الدين الإسلامى والتقاليد الإسلامية الموروثة. ومن أهم أهدافه سيادة الإقليم الشمالى فى ظل اتحاد نيجيريا، وعدم تغيير حدود الإقليم الشمالى لحساب إقليمى الجنوب، والإبقاء على النظام التقليدى للإدارة والرؤساء مع العمل على تطويره تقدميًا[٢].

مما سبق يتضح لنا أن من أكبر الآثار التى خلفتها الحربان العالميتان فى الأراضى النيجيرية، خلق اتجاه عام نحو إقامة حكومة وطنية. ولم تجد بريطانيا مفرًا من الاعتراف بهذا المبدأ، ولكن الخلاف بينها وبين الوطنيين كان يدور حول مسألتين: إحداهما: مدى السرعة التى يتم بها منح الأراضى النيجيرية الحكم الذاتى، والأخرى: هى إصرار بريطانيا على أن تكون السلطتان التشريعية والتنفيذية من كل العناصر التى تسكن الأراضى النيجيرية[٣].

ولقد واجهت بريطانيا المسألتين بما تمتاز به من سياسة المرونة، فقدمت لنيجيريا سلسلة من الدساتير لمواجهة التطورات التى وقعت بها. ففى سنة ١٩١٩ تقدم بعض أعضاء مجلس نيجيريا باقتراح إلى الحاكم العام لإعادة تشكيل المجلس حتى يصبح أداة فعالة فى إدارة شؤون نيجيريا وجهازًا مسؤولاً بدلاً من أن يضيع الأعضاء وقتهم فى الأعمال الاستشارية فقط. ورفض الحاكم العام هذا الطلب، إلا

---

(١) Ibid.

(٢) نازلى معوض أحمد يوسف: المرجع السابق، ص٩٥.

(٣) سامى منصور: المرجع السابق، ص٥٥.

أنه اضطر بعد ذلك فى سنة ١٩٢١ إلى إعادة النظر فيه – تحت تأثير ضغط القوى الوطنية – وقرر إلغاء مجلس نيجيريا وتشكيل مجلس جديد. ومن هنا بدأت مرحلة الدساتير [١].

وتبدأ هذه المرحلة بإصدار أول دستور لنيجيريا سنة ١٩٢٢، ومن أهم ما تميز به أن أغلبية الأعضاء فى المجلس التشريعى معينون، كما تم الفصل بين السلطتين التشريعية والتنفيذية بعد أن كان المجلس الاستشارى للحاكم يزاولها معًا: فتكوّن بناء على ذلك مجلسان أحدهما تنفيذى والآخر تشريعى، وقد اختص المجلس التشريعى بشؤون الجنوب ولاجوس فقط، بينما احتفظ الحاكم العام البريطانى لنفسه بحق التشريع فى الشمال. والاختصاص الوحيد الذى كان لهذا المجلس على الشمال جاء من خلال سلطته فى نظر الميزانية السنوية لجميع أقاليم نيجيريا، وبذلك كان من حقه مناقشة الشؤون المالية للشمال [٢].

غير أن الحاكم العام عمل على حصر أغلبية مقاعد المجلس التشريعى بين الموظفين الذين يشغلون مقاعدهم فى هذا المجلس بحكم مناصبهم. وبذلك ضمن الحاكم أغلبية آلية يعتمد عليها فى تنفيذ رغباته فى صورة ديمقراطية، كما كان من حقه إصدار ما يشاء من التشريعات حتى ولو كان المجلس التشريعى قد رفضها من قبل. وكان هذا احتياطًا قانونيًا لمواجهة احتمال اتفاق ترابط الأعضاء الموظفين بالمجلس مع غير الموظفين ضد رغبة الحاكم [٣].

غير أن هذا الدستور لم يرض القوى الوطنية، مما جعل بريطانيا تصدر سنة ١٩٤٥ دستورًا جديدًا لنيجيريا عرف بدستور ريتشارد لمواجهة التطور الجديد فى البلاد. وتمثلت المبادئ الأساسية لهذا الدستور فى العمل على وحدة نيجيريا، وذلك بخلق مجلس تشريعى تمتد سلطاته إلى أقاليم نيجيريا الثلاثة بدلاً من المجالس

---

(١) نفس المرجع، ص ٥٥ – ٥٦.

(٢) Schwarz, W.: op.cit., p. 94.

(٣) سامى منصور: المرجع السابق، ص٥٦.

التى كانت تختص بإقليم دون آخر، ثم الاعتراف رسميًا بوجود اختلافات فى درجة تقدم كل إقليم وديانته وأصل سكانه. وذلك لإيجاد مجالس تشريعية إقليمية تنحصر سلطاتها فى اختيار ممثلين من بين أبناء كل إقليم، للذهاب إلى المجلس التشريعى بلاجوس، ومناقشة القوانين التى يعرضها عليهم الحاكم لمجرد الاستشارة. وأخيرًا زيادة دور الأفريقيين فى حمل أعباء ومسؤوليات بلادهم، وذلك بجعل الأغلبية لهم فى المجلس التشريعى(١).

ولكن الحركة الوطنية أعلنت عدم رضائها عن هذا الدستور الذى لم يحقق كل آمالها، ونجحت فى تغيير الحاكم العام لنيجيريا. واضطر الحاكم العام الجديد – أمام ضغط الوطنيين – أن يعلن فى المجلس التشريعى فى أغسطس سنة ١٩٤٨ بأن دستور سنة ١٩٤٥ سيتم تعديله فى سنة ١٩٥٠. وبالفعل أصبح المجلس التنفيذى مجلس وزراء اعتبارًا من سنة ١٩٥٠ يشغل الأفريقيون فيه ثلث المقاعد، وإن كانت الأقلية الأجنبية هى التى تشغل أهم مناصبه. كما أنشئت أيضًا مجالس تنفيذية للأقاليم ليشغل الأفريقيون فيها ٩ مقاعد والأوروبيون ٦ مقاعد(٢).

وقد كان هذا الدستور هو الذى انتهى بنيجيريا إلى الاستقلال فى ظل الكومنولث. ففى مارس سنة ١٩٥٣ أعلن الحاكم العام لنيجيريا أن دستور سنة ١٩٤٥ كان يجعل الوزراء الاتحاديين لا يشعرون بأدنى مسؤولية نحو الاتحاد، وكل ولائهم تجاه الإقليم الذى يمثلونه. ولذلك دعا زعماء نيجيريا إلى عقد اجتماعات لتعديل الدستور تحت إشراف وزير المستعمرات. واتفق فى هذه الاجتماعات التى عقدت فى يناير سنة ١٩٥٤ على تعديل الدستور بعد ثلاث سنوات. وبالفعل تم تعديل الدستور عام ١٩٥٧. ثم عدل مرة اخرى سنة ١٩٥٩ بعد أن طلب الإقليم الشمالى الحكم الذاتى(٣).

---

(١) نفس المرجع، ص ٥٦،٥٧.

(٢) نازلى معوض أحمد يوسف: المرجع السابق، ص٩٤.

(٣) سامى منصور: المرجع السابق، ص٦٢.

وبمقتضى هذا الدستور، تقرر أن يكون الانتخاب لمجلس النواب والمجالس الإقليمية انتخابًا مباشرًا، يشترك فيه من تتوفر فيهم الشروط التى حددها القانون من الذكور والأناث فى كل نيجيريا ما عدا الإقليم الشمالى الذى اقتصر فيه هذا الحق على الذكور فقط. كما خفض عدد أعضاء مجلس الوزراء من ثمانية عشر عضوًا إلى ثلاثة عشر عضوًا على أن يكون عشرة منهم أفريقيين والثلاثة الآخرون بريطانيين، وقد احتفظ الحاكم العام برئاسة مجلس الوزراء[١].

وأصبح تعيين الوزراء عن طريق زعيم الأغلبية فى مجلس النواب. وبعد ذلك أصبح زعيم الأغلبية فى مجلس النواب هو رئيس الوزراء. وقد عين أول رئيس نيجيرى للوزارة الاتحادية فى ٢٩ أغسطس سنة ١٩٥٧، رغم أن الحاكم العام قد بقى فى مجلس الوزراء حتى تاريخ حصول نيجيريا على استقلالها فى أول أكتوبر سنة ١٩٦٠، ولكنه كان رئيسًا شرفيًا للمجلس فقط[٢].

وهكذا قطعت الأراضى النيجيرية مرحلة هامة من تاريخ علاقاتها ببريطانيا حتى اجتمع مجلس نوابها الجديد فى ١٣ يناير سنة ١٩٦٠. وبعد ثلاثة أيام أصدر نداء لبرلمان بريطانيا لإنهاء القوانين الخاصة باستقلال نيجيريا وإخطار دول الكومنولث بعضوية نيجيريا فيه بعد استقلالها[٣]. وفى مايو سنة ١٩٦٠ انتهت كل مراحل إعداد إجراءات الاستقلال فى ظل الكومنولث، إذ وقع زعماء نيجيريا مع ممثلى بريطانيا وثيقة إنهاء الحكم البريطانى لنيجيريا. وفى أول أكتوبر سنة ١٩٦٠ أعلنت نيجيريا دولة اتحادية ذات سيادة مكونة من ثلاثة أقاليم تتمتع كل منهما بشئ كثير من الذاتية الاستقلالية[٤]. وقد تأسس نظام الحكم فى نيجيريا على ثلاث دعائم رئيسية هى: منصب الحاكم العام للبلاد، والسلطة التشريعية المكونة من مجلسين على المستوى العام المركزى للبلاد، ثم مجلس الوزراء كما يأتى:

---

(١) نازلى معوض أحمد يوسف: المرجع السابق، ص ٩٦.

(٢) Schwarz. F.A.O.: Nigeria: the tribes. Or the race: the politics of independence. p.113

(٣) Schwarz. F.A.O.: op.cit., p. 114.

(٤) Ibid.

١ ـ الحاكم العام:

اعتبر الحاكم العام ممثلاً لملكة بريطانيا ولذلك كان له حق الاتصال بها في أي وقت دون وساطة أى من الوزراء البريطانيين. غير أن الحاكم العام النيجيري تولى هذا المنصب فى شكل نظرى بحت دون الاختصاصات التى كانت للحاكم العام البريطانى فى فترة ما قبل الاستقلال. وانحصرت سلطاته فى تعيين رئيس الوزراء، وقيد هذا الحق بأن يكون رئيس الوزراء المعين من الحزب الفائز بالأغلبية المطلقة لأصوات الناخبين على مستوى الدولة. كذلك كانت من سلطات الحاكم العام استقبال الممثلين الدبلوماسيين الأجانب، وأن يبعث بالممثلين النيجيريين إلى دول العالم[١].

٢ ـ السلطة التشريعية:

أجريت آخر انتخابات قبل الاستقلال سنة ١٩٥٩ واشترك فيها ٩ملايين ناخب لاختيار السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية المنبثقة منها. وقد وزعت مقاعد مجلس النواب على الأقاليم الثلاثة بواقع ١٧٤ مقعدًا للإقليم الشمالى و٧٣ مقعدًا للشرقى و١٢ مقعدًا للإقليم الغربى وثلاثة مقاعد تخص منطقة لاجوس الاتحادية. وكانت نتيجة هذه الانتخابات فى مجلس النواب طبقًا لقوة الأحزاب فى كل من الأقاليم الثلاثة كالآتى: حصل حزب مؤتمر الشمال على ١٤٢ مقعدًا، بينما فاز حزب المجلس الوطنى لنيجيريا والكاميرون (الإقليم الشرقى) ب٨٩ مقعدًا فى مجلس النواب. أما حزب جماعة العمل (الإقليم الغربى)، فقد حصل على ٧٣ مقعدًا[٢].

ولقد تمت هذه الانتخابات على أساس دوائر انتخابية بمعدل نائب واحد عن كل ١٠٠ ألف من السكان. ولقد أظهرت نتيجة الانتخابات فشل أى حزب من

(١) نازلى معوض أحمد يوسف: المرجع السابق، ص ١١٣ ــ ١١٥.
(٢) نازلى معوض أحمد يوسف: المرجع السابق، ص١١٥.

الأحزاب الثلاثة الرئيسية فى البلاد فى الفوز بالأغلبية المعلنة لأصوات الناخبين، وبالتالى لمقاعد مجلس النواب. ومن ثم عدم استطاعة أى حزب بمفرده أن يكون الوزارة الاتحادية، طبقًا لمبادئ نظام الحكم الديمقراطى غير المباشر فى صورته البرلمانية. لذلك اتفق زعماء حزب مؤتمر الشمال مع زعماء حزب المجلس الوطنى لنيجيريا والكاميرون على تشكيل وزارة ائتلافية ثنائية مع حزبيهما، بينما تولى حزب جماعة العمل المعارضة على المستوى الفيدرالى(١).

أما مجلس الشيوخ فقد تكون من ٤٤ عضوًا بنسبة ١٢ عضوًا عن كل إقليم وأربعة أعضاء عن لاجوس وأربعة أعضاء يعينهم الحاكم العام نظرًا لاعتبارات الكفاءة الشخصية. وأعضاء مجلس الشيوخ معينون من قبل حكومات الأقاليم بعد موافقة الأغلبية المطلقة فى المجالس التشريعية لهذه الأقاليم(٢).

٣ ـ مجلس الوزراء أو السلطة التنفيذية على المستوى الاتحادى:

وتكون من رئيس الوزراء الذى يعينه الحاكم العام، وهو الذى يعين الوزراء أيضًا بنصيحة رئيس الوزراء. وتكون مجلس الوزراء الاتحادى سنة ١٩٥٩ قبل الاستقلال من سبعة عشر وزيرًا، منهم عشرة وزراء من أعضاء حزب مؤتمر الشمال وسبعة وزراء من حزب المجلس الوطنى لنيجيريا والكاميرون(٣).

أما فيما يتعلق بأجهزة الحكم بالأقاليم فهى تتكون من سلطة تشريعية من مجلسين: مجلس الجمعية ومجلس الرؤساء، ولهما سلطات متساوية باستثناء المسائل المالية التى يناقشها مجلس الجمعية فقط. وكل أعضاء مجالس الجمعية منتخبون باستثناء خمسة أعضاء فى مجلس جمعية الشمال يعينهم حاكم الإقليم.

---

(١) سامى منصور: المرجع السابق، ص١٠٦ ـ ١٠٧.
(٢) نازلى معوض أحمد يوسف: المرجع السابق، ص١١٦.
(٣) سامى منصور: المرجع السابق، ص ١٠٧.

ولكل إقليم مجلس تنفيذى يتكون من رئيس وزراء ووزراء، ويعين حاكم الإقليم رئيس الوزراء من حزب الأغلبية الذى يقوم بدوره بتقديم الوزراء للحاكم العام ليصدق على تعيينهم رسميًا(١).

وهكذا ظلت برنو جزءًا من الإقليم الشمالى لنيجيريا بعد حصول الأراضى النيجيرية على استقلالها من بريطانيا فى أول أكتوبر سنة ١٩٦٠، وفى أواخر سنة ١٩٦٢ انضمت دكوة إلى برنو وأصبحتا إقليمًا واحدًا(٢).

وكانت دكوة جزءًا من برنو حتى عام ١٨٩٣ حين سقطت فى يد الفاتح السودانى رابح بن فضل الله. وفى أعقاب موت رابح سنة ١٩٠٠، سعى الفرنسيون إلى إعادة الأسرة الكانمية إلى الحكم مرة أخرى، فقاموا بتنصيب سنده كورا بن ابراهيم شيخًا على دكوة. وفى نهاية سنة ١٩٠٠ حل محله أخوه غرباى الذى طلب منه الفرنسيون أتاوة مالية كبيرة مقابل حمايتهم له، لكنه هرب بعد بضعة أشهر إلى كانم لعجزه عن دفع هذه الأتاوة، علاوة على وعد البريطانيين له بتنصيبه شيخًا على برنو إذا ترك دكوة. وفى أعقاب هرب غرباى انسحب الفرنسيون من دكوة وأقاموا قاعدتهم فى كوسيرى(٣).

حل الألمان محل الفرنسيون فى دكوة، وخلال الفترة ما بين هروب غرباى والاحتلال الألمانى لدكوة، كان الشعب قد نصب ماستا (Masta) شيخًا على دكوة، بيد أن الألمان رفضوا الاعتراف به وعينوا بدلاً منه سنده المندراوى فى عام ١٩٠٢(٤).

بعد ذلك بثلاثة أعوام ترك الشيخ المندراوى دكوة إلى مايفونى (Maifoni) التى كانت المركز البريطانى فى برنو، فنصب الألمان ابراهيم شيخًا على دكوة،

(١) نفس المرجع.

(٢) Hogben, S.J. & Kirk-Greene. A.H.M.: op.cit., p.350.

(٣) Hogben, S.J. & Kirk-Greene, A.H.M.: op.cit., p. 351.

(٤) Ibid.

ولكن بعد هزيمة ألمانيا امام الحلفاء سنة ١٩١٤، اقتسمت بريطانيا وفرنسا برنو الألمانية بينهما، فأصبحت دكوة من نصيب الأولى، والجزء الأكبر من مندرة من نصيب فرنسا. فأعاد البريطانيون تعيين سنده كيارما (Sanda Kairma) ابن الشيخ كيارى الذى لقى مصرعه على يد رابح[١].

وطبقًا للاتفاقيات الألمانية الفرنسية والبريطانية حول منطقة تشاد، ثم الاعتراف سنة ١٩٢٢ بأمارة دكوة التى استولى عليها البريطانيون كمنطقة تحت الانتداب بإشراف عصبة الأمم[٢].

ظل الشيخ سنده كيارما شيخًا على دكوة حتى سنة ١٩٧٣، حيث توفى شيخ برنو الشيخ سنده كورا، فخلفه على عرش برنو، فأصبح أخوه ماستا – وكان آنذاك رئيسًا على منطقة فى برنو – شيخًا على دكوة[٣].

وفى علم ١٩٤٢ انتقلت عاصمة البلاد من دكوة نفسها إلى باما (Bama) بسبب الافتقار إلى الطرق الصالحة بسبب غزارة الأمطار وظهور المستنقعات العديدة. وفى سنة ١٩٥٠ توفى ماستا فخلفه ابن أخيه بوكاربن عمر شيخًا على البلاد، وكان فى هذا مزيد من الترابط بين فرعى الأسرة الكانمية فى دكوة ومايفوني، ذلك أن الشيخ الجديد كان ابنًا للشيخ عمر سنده الكيارمى شيخ برنو فى تلك الفترة[٤].

وقد توفى الشيخ بوكار سنة ١٩٥٢، فخلفه ماستا – وهو أحد أبناء سنده المندراوى – وقد اتخذ لقب مصطفى الثالث، وقد وقع نزاع بينه وبين مجلسه أسفر عن الإطاحة بماستا سنة ١٩٥٤. وخلفه يرما (Yerma) بن ابراهيم – الذى عينه الألمان على دكوة أكثر من مرة – وقد أطلق عليه لقب عمر بن ابراهيم[٥].

---

(١) Ibid.
(٢) Ibid.
(٣) Urovy, Y.: Histoire des population du Soudan Central. p. 306.
(٤) Hogben, S.J. & Kirk-Greene, A.S.M.: op.cit., p. 352.
(٥) Ibid.

وحيث أن دكوة كانت إقليمًا تحت الانتداب، وكان معنى هذا الشعب له حق الاشتراك فى الاستفتاء الذى أجرته الأمم المتحدة سنة ١٩٦١، وكان يدور حول الاستقلال أو الاندماج ضمن أقاليم نيجيريا. وقد صوت الشعب مؤيدًا لجمع الأصدقاء والأقارب من جديد. وانضمت دكوة إلى برنو فى أواخر عام ١٩٦٢ وأصبحتا إقليمًا واحدًا ضمن الإقليم الشمالى لنيجيريا[١].

وفى ظل الحكومة الاتحادية لنيجيريا استمر شيخ برنو يباشر سلطاته السياسية والقضائية عن طريق مجلسه، ولكن بعد عام ١٩٦٧ أسقطت السلطة القضائية من اختصاصات هذا المجلس، واحتفظت باستقلالها. وكان شيخ برنو مسؤولاً أمام مجلس وزراء الإقليم الشمالى الذى كان مسؤولاً بدوره أمام مجلس الوزراء الاتحادى[٢].

---

(١) Ibid.

(٢) ابراهيم صالح بن يونس: المرجع السابق، ص ١٧١.

الفصل الرابع

نظام الحكم فى برنو

قام نظام الحكم فى برنو على أساس وجود شيخ يتمتع بسلطة مطلقة تقريبًا. إذ كان يهيمن على مجلس الحكم والقضاء والجيش وشؤون الأمن والضرائب.

وسنعرض فيما يلى لمركز الشيخ وتطور وظائفه، ثم نتبعه بدراسة للأنظمة المعاونة فى شؤون الحكم.

الشيخ:

اتخذ ملوك الأسرة السيفية لقب ماى (Mai) أو سلطان حتى منتصف القرن التاسع عشر، ومن الناحية السياسية، فقد رفض محمد الأمين الكانمى أن يطلق على نفسه سوى لقب الشيخ حتى لا يبدو أمام مؤيديه أنه يطمع فى السلطة، ولكنه حرم على سلاطين الأسرة السيفية ممارسة السلطة الفعلية فى البلاد حتى لا يقوى نفوذهم فى برنو وبالتالى يعملون على إقصاء أسرته عن الحكم. إلا انه كان يسمح للسلطان أن يحتفظ بماله من مظاهر الأبهة وشعائر الدولة السيفية القديمة، واستمر هذا الوضع حتى عام ١٨٤٦ حين تمكن الشيخ عمربن محمد الكانمى من القضاء على آخر سلاطين الأسرة السيفية وأصبحت الأسرة الكانمية تحكم بالفعل والاسم[١].

والواقع أنه كانت هناك ثلاثة أنماط من العلاقات الإدارية لإدارة دفة الحكم فى برنو، أولاً: على أساس التقسيمات الأقليمية التى كان يديرها الشيوخ مباشرة بواسطة رجال بلاطهم (Kogonas) والعبيد المقربين إليهم، وثانيًا: على أساس

---

(١) Ifemesia, C.C.: Bornu under the shahus,Athourand of Africa history, edited by J.E. Ajay; & Others, p. 293.

التجمعات القبلية والمهنية التى كان شيوخ برنو يديرونها أيضًا على نحو غير مباشر عن طريق رجال بلاطهم (Kogonas) والعبيد المقربين إليهم، وثالثًا: على أساس التقسيمات الأقليمية التى كان الشيوخ يديرونها أيضًا على نحو غير مباشر عن طريق زعماء من أهلها[١].

وكان نفوذ برنو ينبسط على ثلاثة أنواع من الأقاليم أولهما: يتمثل فى برنو نفسها (أوكوكاوة) وكان يحكمها الشيخ بنفسه، حيث يلتف حوله مجلس من أربعة عشر عضوًا يسمى (kokena) وأعضاؤه ينقسمون إلى قسمين، أحدهما يتكون من أمراء من أصل ملكى (Maina) وهم الورثة أى أبناء وبنات الشيخ وكبار النبلاء، والآخر يضم أعضاء جدد (Kokanawa) يختارهم الشيخ وينقسمون بدورهم إلى مجموعتين: إحداهما تضم رجالاً من أصل حر (Kamba)[٢]، وكانت جميع إقطاعاتهم وأملاكهم التى يتمتعون بها من خلال مناصبهم تقسم بعد وفاتهم إلى ثلاثة أقسام، ويكون ثلثها من نصيب الشيخ، ويؤول الثلث الثانى لمن يخلفه فى منصبه من بين أفراد أسرته، أما الثلث الثالث فيكون من نصيب الورثة[٣]. والآخر: تضم الأعوان المنحدرين من أصل رقيق (Kachella)، وكانت جميع الإقطاعات التى تمنح لهم تؤول كلها إلى الشيخ بعد وفاتهم، وهذا يعنى أن الإقطاعات وقطاع كبير من الملكية المتمثلة فى الرقيق والملابس والعملة والأسلحة كانت تتداول بصفة دائمة بين يدى الشيخ ليعيد توزيعها على شكل مكافآت للمقربين إليه من بين رجال بلاطه[٤].

---

(١) Breenner, L.: The shehus of Kukawa; A history of the Al – Kanemi dynasty of Bornu. p. 104.

(٢) Ifemesia, C.C.: Bornu under the shehus, p. 269.

(٣) Breener, L.: The shehus of Kukawa, p. 105.

(٤) Ibid. p. 104.

وعلى الرغم من هذا، فإن هذا المجلس لم يكن يمارس أى سلطة فعلية – فقد كان الشيخ هو صاحب السلطة العليا فى البلاد – إلا أن الرجال الذين خدموا فيه كانوا شخصيات هامة، حيث كونوا الطبقة الاجتماعية الجديدة فى برنو[١].

وثانى أقاليم برنو، يتمثل فى مجتمع القبائل التى تعيش خارج كوكاوة، ويشمل بلاد زندر ومندوره وكتكو وبلاد بدة وكرى ويحكمها زعماء من أهلها يعينهم الشيخ، وكان هؤلاء الأفراد لا يتقاضون أية مرتبات، ولكن كانت تغدق عليهم المنح من الأراضى أو مناصب الحكم التى كانوا يستمدون منها أقصى قدر من الفائدة بقدر استطاعتهم[٢]

وثالث أقاليم برنو يتمثل فى الأقاليم التى كانت تتمتع بشخصية شبه استقلالية أو ذاتية فى الحكم، فقد احتفظ كثير من الشعوب المحكومة أو الرعايا بزعمائهم، وكانوا فى بعض الأحيان خاضعين لسيطرة البرنويين، وفى بعض الأحايين الأخرى يجرى تمثيلهم فى المجالس الرسمية أو القضائية بشخص يختاره الشيخ؛ ففى مكرى وكانم على سبيل المثال، كان ينصب على المدن والقرى زعيمًا من بين أهلها ويخضع لإشراف موظف برنوى يدعى ألفا (Alifa)[٣]. وقد تقلصت هذه الأقاليم من حيث العدد بدرجة كبيرة خلال القرن التاسع عشر، وكانت أكبرها هى أقليمى زندر ومندورة. ولكن حكام كانم وجوميل (Gumel) ومينو وبيدى كانوا أيضًا يدفعون الجزية من وقت لآخر لشيوخ برنو طوال تلك الفترة[٤]. وهكذا كانت الإقطاعات سواء فى كوكاوة نفسها، أو فى الأقاليم – هى الوحدة الأساسية فى النظام الإدارى البرنوى، ولقد كان رجال البلاط والعبيد الملكيين يشرفون بأنفسهم على جمع الضرائب وأطلق عليهم اسم شيما (Chima) أى جامعو الضرائب. أما جامعو الضرائب فى الأقاليم فكان يطلق عليهم شيما شدبى (Chima Chidbe)، كان

- Trimingham, J.S.: A history of islam in West Africa. p. 210. (١)
- Trimingham. J.S.: A history of ixlam in West Africa, p. 210- 211 (٢)
Ibid. p. 211 (٣)
Brenner. L.:The shehus of Kukawa. P.104. (٤)

يعهد إليهم بمعالجة كافة الشؤون الداخلية الخاصة بإقطاعاتهم كالمحافظة على القانون والنظام وفض المنازعات وتعيين الموظفين المحليين وجباية الضرائب والعمل على استتباب الأمن وحماية السكان(١).

ولقد كان جامعو الضرائب من الـــ (Chima) يعيشون فى كوكاوة، ويديرون إقطاعاتهم عن طريق ممثلين لهم يعينونهم ويطلق عليهم اسم صغار الشيما (Chimaganal) وكانوا يقيمون فى تلك الأراضى ليشرفوا عليها من خلال رؤساء القبائل والعشائر. وكان رؤساء القرى (Lwan or Bulama) يتبعون صغار الشيما إداريًا، وكان لقب (لوان) يخلع أما على (البولاما) الذى يكون له سلطة قضائية على عدد من القرى أو على رجل تمكن من إبراز شخصيته بطريقة ما فى معركة من المعارك، وكان هذا اللقب يمنح بواسطة الشيخ نفسه(٢).

وقد تمتع عرب الشوة والكانمبو بامتيازات واسعة خلال هذا النظام الإدارى جزاء مساعدتهم الدولة ضد أعدائها(٣).

وعلى الرغم من أن مجلس برنو، كان بمثابة الهيئة الممثلة لجميع قطاعات الشعب فى برنو، إلا أنه فى حقيقة الأمر لم تكن له أى سلطة على الإطلاق، فقد كان الشيخ هو صاحب السلطة العليا فى البلاد – طالما كان قويًا – وقد احتفظ إلى جانب ذلك بالمظاهر الصوفية، وهى الزهد والبعد عن المظاهر واتباع مبادئ الشريعة الإسلامية، وبذلك كانت تتجمع فى شخصه السلطات الروحية والدنيوية فى آن واحد(٤)

وهكذا فإن التغييرات فى محيط الأسرة الحاكمة التى حدثت فى منتصف القـــرن التاسع عشر – وهى انتقال السلطة من الأسرة السيفية إلى الأسرة الكانمية

---

(١) Brenner. L.:The shehus of Kukawa. P.105.
(٢) Ibid. pp. 105 – 106.
(٣) أنظر، ص ١٠٧.
(٤) Brenner. L.:The shehus of Kukawa. P.109.

لم تتمخض عن استحداث نظام جديد كل الجدة، ولا عن تشكيل نمط جديد من أنماط الدولة الإسلامية، صحيح أنه حدثت تغييرات بسيطة فى التنظيم - بعد وفاة الشيخ محمد الأمين الكانمى عام ١٨٣٧ - وهى زيادة سلطات وزير الشيخ زيادة كبيرة فقد أخذ معظم اختصاصات الشيخ وأصبح هو الحاكم الفعلى فى البلاد، والواقع أن الوزراء قد لعبوا دورًا كبيرًا فى سياسات برنو شأنهم فى ذلك شأن الوزراء فى مناطق إسلامية أخرى، فعلى سبيل المثال لعب الوزير تيراب ومن بعده الحاج بشير - وزيرا الشيخ عمر بن محمد الأمين الكانمى دورًا هامًا فى توجيه دفة الحكم فى برنو فى هذه الفترة وخلفهما الوزير عبد الكريم الذى أصبح السيد الفعلى فى برنو على مدى نصف قرن تقريبًا[١]

والواقع أن التنظيم السياسى فى برنو اعتمد على دعامتين أساسيتين هما: الدين والقوة، فلقد أسفر استحواز الأسرة الكانمية على السلطة عام ١٨١٤ عن تأسيس نواة أسرة حاكمة جديدة بسطت نفوذها بقوة السلاح، وكذلك باللجوء إلى السوابق الدينية التى كانت توحى بأن الشيخ محمد الكانمى - بوصفه رجلاً ذا سلطة دينية فريدة - كان له حق اعتلاء عرش الحكم فى برنو بغرض تطهير وتنقية الأحوال الدينية هناك. والواقع أن السلطة التى كانت ترتكز أساسًا على الدين والتى تأسست فى بداية حكم الأسرة الكانمية لبرنو أخذت تتلاشى تدريجيًا إلى أن أصبحت ترتكز على القوة فقط[٢].

فالمعروف فى المجتمعات الإسلامية أنه لا بد للخليفة أن يكون خلفًا أو أبنًا لحاكم سابق، وكانت الأولوية فى هذا الصدد تمنح للأكبر سنًا على الأصغر سنًا ممن يطمعون إلى تولى الخلافة، ولكن هذه القواعد لم تكن تحظى بالقبول العام. فبعد أن وصلت الأسرة الكانمية إلى السلطة فى برنو، كان هناك شخصان يسعيان

---

(١) Ifemesia, C.C: Bornu under the shehus; pp. 296 - 297,

(٢) Brenner. L.: Legitimizing Political behaviour in borno, Journal of the historical Society, Vol. No. 2. p. 199

أنظر الفصل الثانى، ص ٣٧.

إلى تولى منصب الشياخة على الرغم من أنهما لم يكونا من السلالة المباشرة لهذه الأسرة وهما الحاج سودانى وكان من أقرب المقربين إلى الشيخ محمد الأمين الكانمى ومحمد جوتكومامى (Jotkomami) وكان من أكبر القضاة فى عهد الشيخ عمر بن محمد الكانمى، كما ازدادت حدة المنافسة على منصب الشيخ عام ١٨٣٧ عقب وفاة الشيخ محمد الأمين الكانمى، فتولى عمر أكبر أبنائه السلطة من بعده على الرغم من احتجاج الحاج سودانى. وقد عارض عبد الرحمن – شقيق عمر الأصغر – هذه الخلافة وانشق عليها أيضًا وفى عام ١٨٥٣ قام عبد الرحمن بانقلاب ضد حكم الشيخ عمر وطرده خارج البلاد وتولى السلطة فى برنو. وفى العام التالى استرد عمر منصبه وتولى مقاليد الحكم والسلطة حتى وفاته عام ١٨٨١، وخلفه من بعده ابنه بكر على الرغم من معارضة شقيقه الأصغر إبراهيم. وتوفى بكر عام ١٨٨٤ وانتخب عمه ماستاكورا خلفًا له. بيدا أن إبراهيم أبى أن يتنازل عن حقه فى الخلافة واستولى بالقوة على الخلافة بعد مقتل ماستا، وبعد ذلك بعام توفى إبراهيم وخلفه من بعده أخوه الأصغر المدعو هاشمى[١]. ولم يلق تعيين هاشمى أية معارضة جديدة تذكر – ولكنه طرد من عاصمته فى عام ١٨٩٣ على يد رابح بن فضل الله. وبعد ذلك بفترة وجيزة تنازل عن منصبه لابن أخيه المدعو كيارى وهو أكبر أبناء بكر. ولما كان كيارى يخشى من أن يلتف المعارضون لتوليه الحكم حول هاشمى، عمل على اغتيال عمه، بيد أن كيارى بدوره أغتيل على يد رابح فى أعقاب هزيمته وأسره فى المعركة[٢].

والواقع أن الدين غالبًا ما كان يصور على أنه موضع زهو وتفاخر، وهناك ما يؤكد وجهة النظر هذه عن الدين، وهو ينصب على الشيخ عبد الرحمن فى أعقاب إطاحته بالشيخ عمر مباشرة. ففى أعقاب هذا الإنقلاب هرب الحاج بشير وزير عمر والمعلم محمد كبير قضاته من برنو. وقد أرسل عبد الرحمن شقيقه

---

(١) Brenner. L.: Legitimizing Political behaviour in borno, pp.201 – 202.

(٢) Hogben, S.J. & Kirk – Greene . A. H. M.:. The emirates of Northern Nigeria, p. 334

الأصغر بوكار إليهما بخطاب نص فيه أنه "أقسم على نفسه عهدًا بالقرآن أنهما إذا عادا أدراجهما إلى كوكاوة فسوف يبقى على حياتهما". وعندما تسلم الحاج بشير هذا الخطاب، سأل المعلم رأيه فيه، فأجابه طالما أن عبد الرحمن قد أخذ على نفسه ميثاقًا فيجب علينا أن نعود. وفعلاً عادا إلى كوكاوة، ولكن عبد الرحمن لم يلتزم بالقسم الذى أخذه على نفسه، وأصدر أمره بإعدام الحاج بشير[١].

إن مضمون هذه القصة يدل على أن الدين لا يضفى صفة الشرعية على السلوك السياسى بقدر ما كان يقوم بدور الوسيط بين الأطراف المتنازعة، وبهذا يمهد السبيل لإيجاد حل للنزاع القائم بين المتنازعين. وفى كلتا الحالتين، غالبًا ما تكون الأطراف المتنازعة مختلفة عن بعضها البعض من حيث القوة أو الضعف[٢].

وهكذا كان الدين يرى على أنه وسيلة أو حيلة تمكن القوى من أن يجهز على الضعيف. ويتضح ذلك أيضًا فى قصة الصراع بين إبراهيم وعمه ماستاكورا على منصب الشيخ بعد وفاة بكر، فعندما توفى الشيخ بكر كان ذا أتباع كثيرين، ومن ثم توجه إبراهيم إلى أبى ماستا وأفضى إليه بما يقلقه، فاقترح ماستا أن على كل منهما أن يجمع حوله لفيفًا من الأتباع والمؤيدين، وأن يقنع مجلس الحكم أن يرشح أحدهما لتولى منصب الشيخ. ثم أقسما بعد ذلك على القرآن أن يدين كل منهما للآخر بالولاء إذا ما وقع الاختيار عليه ليكون شيخًا، واختار المجلس إبراهيم، فاستشاط ماستا غضبًا لذلك، ولم يعلن ولاءه لإبراهيم وغادر كوكاوة، وظل يجمع مؤيديه للقيام بتمرد ضد إبراهيم، غير أن إبراهيم بعث ثلاثة من رجال الدين (المعلمين) لإقناعه بأنه خرج على القانون بعدم موافقته على اتباع الشيخ الذى أختير شرعًا وقانونًا، ونصحوه بالعودة لإعلان ولائه، ووافق على ذلك ولكن بعد أن دخل كوكاوة أخذ يتخذ التدابير لقتل إبراهيم، ووصل الخبر لإبراهيم الذى أسرع بالقبض على ماستا ونفذ فيه حكم الإعدام[٣].

---

(١) Ifemesia, C.C: Bornu under the elhehud. pp.294 - 295.

(٢) Brenner. L.: Legitimizing Political behaviour in borno, pp. 203 -204

(٣) إبراهيم صالح بن يونس: تاريخ الإسلام وحياة العرب فى إمبراطورية كانم – برنو ص ص ١٣٧ ـ ١٣٨.
Brenner. L.: Legitimizing Political in borno, p. 204

وهنا مرة أخرى نجد أن الدين – فى الجزء الثانى – قد تدخل كوسيط لتخفيف حدة الشقاق بين القوى والضعيف (إبراهيم وماستا)، ولكننا نلاحظ أن الدين قد تدخل فى الجزء الأول من القصة كعامل ملطف لتسوية الاختلافات الفعلية فى المركز، فنجد أن إبراهيم وماستا كانا متساويين منذ البداية من حيث المركز، وكانا يتنافسان على السلطة على قدم المساواة، ثم أقسما على القرآن أن يقبلا النتيجة مهما كانت، ولكن الخاسر أومن لم يقع عليه الترشيح يحنث بقسمه ويتردد فيه. ومن جديد يلجأ إبراهيم إلى الدين (المتمثل فى تدخل المعلمين) لاقناع ماستا بأن يمتثل للأمر الواقع. بيد أن ماستا يرفض الامتثال لذلك فيكون مصيره القتل. ونجد أن هذه الواقعة قد استخدمت الدين لاضفاء صفة الشرعية على التطورات التى حدثت فى مراكز الأفراد، كما استخدمت الدين للتفاوض بين الأطراف المتنازعة[١].

إن الفصل بين الحكام والمحكومين يمكن تصنيفه من حيث مركز كل من الطبقتين، من حيث القوة والضعف، فالقوى والضعيف ينظر كل منهما للآخر على أنه كيان منفصل، والدين هو الوساطة الوحيدة التى تسمح لكل منهما أن يتعامل مع الآخر لإحراز قدر من التقارب. وعلى هذا الأساس يضع الضعفاء كل أملهم فى الدين، ولكن الأقوياء يلجأون أيضًا إلى الدين للتأثير فى الضعفاء[٢].

نخلص مما سبق أن النظام الهرمى هو المعمول به فى برنو طوال القرن التاسع عشر وليس هناك من القرائن ما يؤكد وجود أية أنظمة سياسية أخرى كانت تحل محله أو تعتبر بدائل له، وحتى إذا كان هناك شعور بضرورة إجراء انتخابات لمنصب الشيخ أو أن يكون هذا الأمر شورى بين الناس وفقًا لما تنص عليه الشريعة الاسلامية، فلن يكون هناك أى اقتراح بأن يكون الترشيح لهذا المنصب أو أن يكون تلك الدائرة الانتخابية الخاصة به أبعد من نطاق الملتفين حول الكانمى

---

(١) Brenner. L.: Legitimizing Political behaviour in borno, p. 206

(٢) Ibid. p. 208

وخلفائه أو المؤيدين أو المناصرين لكل منهم، وبمعنى آخر أن انتخاب الحاكم كان أساسًا أمرًا من الأمور التى تختص بها وتحددها الطبقة الحاكمة(١).

وعندما استولت بريطانيا على برنو عام ١٩٠٢، قامت بتقسيم الأراضى النيجيرية إلى قسمين كبيرين: أحدهما محمية الشمال، وتشمل مناطق شمال نيجيريا،ومن بينهما برنو، والآخر: محمية الجنوب. وأقامت بريطانيا بينهما وحدة سياسية فى اتحاد عاصمته لاجوس(٢).

نتيجة لهذا الاتحاد، كانت ملكة بريطانيا تقوم – بناء على اقتراح وزير المستعمرات البريطانى – بتعيين حاكم عام لكل نيجيريا، يساعده حاكمان، الأول لمحمية الشمال والآخر لمحمية الجنوب، ولكل منهما مساعدوه فى إدارة كل محمية، وكان مستر هيبى مساعد حاكم محمية الشمال فى برنو(٣).

عين البريطانيون – عقب استيلائهم على برنو – الشيخ غرباى شيخًا عليها تحت حمايتهم، فكان يتلقى تعليماته ونصائحه من مستر هيبى الذى حكم برنو حكمًا غير مباشر، فقام بتغيير قواعد حكم رابح كلها، وجعل فى كل مقاطعة حاكمًا أقليميًا يخضع له، وتحت هذا الحاكم عدة نواب فى البوادي، وعرف هذا النوع من الناس (باللوانات)، وتحتهم نوع آخر من ملاك الأراضى وهم كبار أو رؤساء القرى؛ فقد كان لكل قرية كبير يعرف ببلامة؛ وليس تحته شئ سوى بعض المنافقين، ووظيفتهم جميعًا لا تعدو جمع الضرائب وتقديمها للحاكم البريطانى(٤).

وهكذا كانت السلطة الفعلية بيد البريطانيين، أما شيخ برنو فلم يبق له غير سلطته الإسمية فقط، وقد انحصر عمله فى الإشراف على أعمال رؤساء القرى والعمل على حفظ الأمن والنظام ومساعدة القضاء بتقديم الشهود والوثائق اللازمة

---

(١) Breener, L.: Legimizing polititcal behaviour in borno, p. 199.
(٢) سامى منصور: نيجيريا عملاق أفريقية التائه، ص٤١.
(٣) نفس المرجع، ص٤٢.
(٤) إبراهيم صالح بن يونس: المرجع السابق، ص١٧١.

لأى قضية تنظر أمام محاكم منطقته، وكذلك إنفاق الإيرادات العامة والإشراف على تنفيذ المشروعات وفقًا لتعليمات الحاكم العام[1].

وقد قام البريطانيون بتحديد مرتب سنوى لشيخ برنو وصل إلى ١٧٥٠ جنيهًا استرلينيًا فى العام، كما أعطوا لرؤساء القرى مرتبًا صغيرًا لأنهم غير متفرغين لعملهم إلا فى أوقات جمع الضرائب[2].

يتضح مما سبق أن البريطانيين حكموا برنو حكمًا غير مباشر، وذلك من خلال الشيوخ وزعماء القرى المحليين الذين تم اختيارهم بواسطة الإدارة البريطانية، وقد تعهدت لهم الحكومة البريطانية بالمحافظة على هيبتهم واحترامها لتقاليدهم وعاداتهم. وفى حالة وفاة أو عزل أحد الشيوخ يحتفظ الحاكم العام البريطانى لنفسه بسلطته فى اختيار خلفه الذى يتم تعيينه بالوراثة. والواضح من ذلك أن السلطات الوطنية كانت مجرد واجهة لإخفاء الجهاز الاستعمارى البريطانى[3].

وفى عام ١٩٦٠ حصلت برنو على استقلالها من بريطانيا، فأصبح شيخ برنو هو الحاكم الفعلى لبلاده يمارس سلطاته السياسية والقضائية عن طريق مجلسه الذى يتكون من قضاته ومستشاريه وممثلى الضواحى. ولكن بعد عام ١٩٦٧ أسقطت من مجلسه السلطة القضائية التى احتفظت باستقلالها، واقتصر عمل المجلس على تنفيذ القانون والمحافظة على الأمن والنظام[4].

القضاء:

كان العرف والتحكيم فى برنو يسيران جنبًا إلى جنب مع أحكام الشريعة الإسلامية فالقتل عقوبته الإعدام – فيسلم الجانى لأهل القتيل لينفذوا فيه القصاص الذى يتم باستخدام العصى الغليظة (الضرب حتى الموت). وتقطع اليد فى حالة

(١) سامى منصور: المرجع السابق، ص٥١.
(٢) نفس المرجع، ص ٤٤.
(٣) نفس المرجع والصفحة.
(٤) إبراهيم صالح بن يونس: المرجع السابق، ص١٧١، أنظر الفصل الثالث، ص٩٢.

تكرار السرقة، ويطمر السارق حتى رأسه عند أول جريمة له - ويدهن وجهه بالدهون أو العسل ويترك لعذاب لفح الشمس ١٢أو ١٨ ساعة، وكذلك للدغ البعوض والذباب الذى يتغذى بما على وجهه(١).

كان القاضى يقوم برد الدين أو يصادر أملاك المدين وفاء لحق الدائن، وأحيانًا يجرى إعفاء المدين المعسر ويترك له حرية التجارة بدون حجر على حريته، ولكن فى استطاعه الدائن أن يراقب ميسرة المدين حتى إذا ظهرت عليه آثار النعمة اصطحبه إلى القاضى ليجرده وفاء للدين أو ليسدد ما عليه.

وكان الشيخ يقوم بنفسه بقدر من اختصاص القضاة على كونه أعلى قائد فى المنطقة، وعلى هذا النحو جمع بين الوظائف السياسية والقضائية معًا فى الدولة، واحتفظ بالمحاكم المحلية (الأولية) ومحكمة الاستئناف فى العاصمة(٢).

أما فى المدن الكبرى – فعين رجال الدين المحليين ليعملوا قضاة، ويمكن الطعن فى أحكامهم أما محكمة الاستئناف فى العاصمة. كما عهد الشيخ إلى جامعى الضرائب فى المقاطعات بمعالجة كافة الشؤون الداخلية الخاصة بإقطاعاتهم من تنفيذ القانون وحفظ النظام وفض المنازعات والقضايا(٣).

وأثناء الحماية البريطانية على برنو، كانت المحاكم تتكون من قضاة وطنيين مستقليين عن الشيخ، وكانت تحكم طبقًا للشريعة الإسلامية أو القانون المحلى والعرف إلى جانب القوانين البريطانية حسب ما يخصص لها من المحكمة العليا أو الحاكم العام فى لاجوس. وكانت هذه المحاكم الوطنية مقسمة إلى درجات أربع حسب مستويات التقاضى وإجراءاته. وتستمد هذه المحاكم بدرجاتها سلطاتها من تفويض يمنحه لها المقيم البريطانى ويصدق عليه الحاكم العام فى لاجوس

---

(١) Denham, D.& Clapperton, H.: Narrative pf travels & discoveries in northern & central Africa, p. 321.
(٢) Ibid. p. 322.
(٣) إبراهيم صالح بن يونس: المرجع السابق، ص١٢٣.

وتوجد محكمتان أعلى من هذه المحاكم: الأولى فى عاصمة برنو، والثانية هى المحكمة العليا فى لاجوس، ويمكن استئناف أحكام المحاكم السابقة أمامهما[١].

وبعد استقلال برنو، عاد الوضع إلى ما كان عليه، فأصبح القضاء تحت إشراف الشيخ يمارسه عن طريق مجلسه، ولكن فى عام ١٩٦٧ نزعت السلطة القضائية من مجلس شيوخ برنو، واحتفظت باستقلالها كما هو الحال فى جميع المجالس الحالية فى سائر أنحاء نيجيريا[٢]

الضرائب:

حاول شيوخ الأسرة الكانمية أن ينظموا دخل الدولة وفقًا لأحكام الشريعة الإسلامية، فلم يكن هناك سوى نوعين أساسيين من الضرائب أولهما، الصدقة أو الصداق وكلمة صداق أو صدقة تعادل الكلمة الإسلامية "زكاة" أو صدقة الزكاة". وكانت تقدر بمقدار عشر المحصول الزراعى للفلاح[٣]، وكانت تجبى خصيصًا لصالح الشيخ، وكانت ترسل أما إلى كوكاوة أو تخزن فى الأقاليم لتوزع بعد ذلك بمعرفة الشيخ طبقًا لمقتضيات الحال، وكان جزء من تلك الحبوب يخصص كصدقة للمعلمين أو رجال الدين، كما أن جزءًا آخر كان يعد للاستهلاك داخل بلاط الشيخ[٤]، وجزءًا ثالثًا كان يباع ويؤول ربعه إلى خزانة الشيخ. وكان يعهد بمهمة جباية ضريبة الصدقة إلى أفراد كانوا يقومون بدورهم بتقديم الهدايا إلى الشيخ لقاء قيامهم بتلك المهمة، وكان على الشيخ بدوره أن يخصص لهم جزءًا من مجموع الضرائب التى يجمعونها لقاء خدماتهم[٥].

---

(١) سامى منصور: المرجع السابق، ص٥٣

(٢) إبراهيم صالح بن يونس: المرجع السابق، ص ١٨٤.

(٣) Anderson, J. N. D.: Islamic Law in Africa, , p. 190

(٤) Brenner, L.: The shehus of Kukawa;, pp. 109 - 110

(٥) Ifemesia, C.C: States of The Central Sudan: A Thousand Years of African History: Edited By J. E.AJayi & Others, PP.78 - 79

أما ضريبة البنومرام (Binumram)، فقد كان زعماء القرى يقومون بجمعها ويحتفظون بها وكانت تدفع نقدًا أو في صورة ملابس أو جياد أو ماشـــية. وكانـــت أسعار هذه الضريبة تتغير من عام لآخر وحسب ظروف كل قرية على حدة. وكان من واجبات رئيس كل قرية (Bulama) أن يوزع العبء الـــضريبى علـــى أفـــراد دائرته بحيث يدفع كل منهم قدرًا يتناسب مع ثروته[1].

وكانت هناك إعفاءات لبعض طوائف السكان من هذه الضرائب، فعلى سبيل المثال كان هناك الجانجالى (Jangali) وهى ضريبة تجبى من مختلف رعاة الماشية بما فى ذلك الشوة والفولانيون وبعض الجماعات الفرعية من الكنوريين والكانمبو، بواقع رأس واحدة عن كل عشرة رؤوس ماشية، ويبدو أن عرب الشوة قد دفعوا هذه الضريبة مرة واحدة فقط فى عام ١٨٦٥. وقد تمتع الكانمبو أيضًا بطابع ضريبى خاص فكانوا يؤدون ضريبة قليلة مرة واحدة كل خمسة أو سبعة أعوام أطلق عليها (والا – Wala). كما كانت هناك إعفاءات ضريبية أخرى، فمدن المعلمين أو رجال الدين فى جميع بقاع برنو والتى كانت تقام على أرض يمنحها الشيخ لم يكن يتوقع من سكانها أن يدفعوا الضرائب، ولكن كان عليهم أن يقوموا ببعض المراسم والطقوس الدينية[2].

وبالإضافة إلى ضريبتى الصدقة والبنومرام، كان هناك العديد من الضرائب الخراجية الثانوية الأخرى التى كان على طبقة الفلاحين أداءها، وقد اختلفت هذه الضرائب من منطقة إلى أخرى ومن قبيلة إلى أخرى. فالتولورام (Toloram) والكساسيرام (Kassasseram) كانت من الفرائض أو الضرائب التى لا بد أن تدفع للشيما وقت زراعة الأرض، وكانت التولورام تدفع بواسطة سكان التربة السوداء أو منطقة فركى (Firki). أما ضريبة الكساسيرام، فكانت تدفع بواسطة سكان التربة البيضاء. وكانت ضريبة التامبلام (Tambelam) تدفع بواسطة الكويام (Koyam) –

---

(١) Ibid, p79.

Brenner, L.: The shehus of Kukawa; p. - 110

(٢) Brenner, L.: The shehus of Kukawa, p. - 110

وهى جماعة فرعية كنورية – من أجل شراء بعير لحمل طبول حرب الشيخ، التامبلام ضريبة محصولية مقدارها اثنا عشر صاعًا من الحبوب. أما نجمزا (Ngimsa)، فكانت ضريبة كوخية مقدارها صاع واحد من الحبوب عن كل كوخ وتدفع للشيما. وكانت ضريبة كوخية (Kabelo) تقدم للشيخ أثناء احتفال أو مناسبة دينية. أما الكولجواسكار وابى (Kulgu Askar Wabe) فكانت ضريبة من الملابس تجمع من غير المسلمين لمساندة وتدعيم جيش العبيد الذى كان الكاشيلا يحتفظون به، وكانت الكارجرام (Kargiram) غرامة تجمع من قوم تقع بينهم جريمة قتل آدمى(١).

ولم يكن الفلاح يخضع لمختلف هذه الأنواع من الضرائب فحسب، بل كانت تواجهه فى أغلب الأحيان مطالب غير عادية، كأن يكون عليه أن يوفر متطلبات جيش يُعد للزود عن البلاد ضد خطر مفاجئ، ولم يكن أمامه أى مصدر يلوذ به من تلك المطالب الإدارية الزائدة سوى الشيما، حيث كانت الأمور الإدارية من اختصاصه وحده دون سواه ومن الناحية النظرية، كان من الممكن أن يلجأ المرء للشيخ لإصلاح ما يقع عليه من ضرر أو ظلم، ولكنه لا بد أن يلجأ أولاً للشيما ليرفع مظلمته إلى الشيخ.

وفى أعقاب موت المزارع كانت الأرض تؤول إلى نسله، ولم تكن ملكية الأرض للفلاح ملكية مطلقة حيث لم يكن بمقدوره أن يبيعها، فقد كان الشيخ هو المالك الوحيد للأرض فى برنو وكان الزارع يمنح حق تمليك محصولها الزراعى فقط، وإذا ما انتقل المزارع إلى قرية جديدة كان يقطع قطعة من الأرض ليقوم بزراعتها هناك وبعد وفاته تؤول الأرض إلى نسله لزراعتها، أما مزرعته القديمة فكانت تقسم بين رفاقه القرويين القدامى(٢).

---

(١) Brenner. L.: The shehus of Kukawa;, pp. 110- 111.

(٢) Ibid., p 112.

وفى إطار هذا النظام الإدارى، كان من الضرورى تحقيق نوع من التوازن لجعل النظام مفيدًا لجميع الأطراف. فقد كان الشيما يحصل من اقطاعيته على دخل أساسى نقدًا وسلعًا وغذاء، كما كان بمقدوره أن يستخدم سكان الإقطاعية فى الحملات العسكرية لتحقيق أغراضه الشخصية. وكان المزارعون يستكينون لتلك الفرائض، ويرضخون لها عن طيب خاطر. ولم يكن لهم من مطمع لقاء ذلك سوى أن يوفر لهم الشيما قدرًا كافيًا من الحماية من غائلة الأعداء فى الداخل والخارج وأن يقدم لهم العون إذا ما اشتدت بهم الحاجة. أما فى حالات الجفاف والآفات التى تصيب المحاصيل وتجهز عليها، فقد كانت طبقة الفلاحين تعين نفسها للحصول على ما تقتات به دون حاجة إلى عون الدولة التى لم يكن فى جعبتها من التخطيط ما هو كفيل بأن يدرأ ما كان محتملاً من أخطار المجاعة. بيد أن الحماية التى كانت تقدمها الطبقات الحاكمة، كانت أمرًا ضروريًا وملحًا فلولاها لكانت القرى محور هجمات مستمرة للإغارة عليها ولهذا السبب فإن المصالح والمنافع المتبادلة تكمن أساسًا وراء وجود هذه الروابط الإدارية، بيد أنها كانت أيضًا المنظم الوحيد لها، فلقد كان من مصلحة الشيما أن يمارس سياسة تتسم بالعدالة والنزاهة فى معاملة رجال اقطاعيته وأن يتجنب فرض أى مطالب إبتزازية منهم، حيث إن ذلك كفيل بأن يشجع الأفراد على الاستيطان والإقامة بالإقطاعية، وهو أمر يؤدى إلى زيادة دخل الشيما(١).

لقد كان الفلاح ينظر إلى الشيخ على أنه ملكه وقائده الروحى ولكنه كان بمعزل عنه، وكان السبيل إلى الوصول إليه طويلاً، أما الشيما فهو الشخص الذى يحتك به احتكاكًا مباشرًا، وإذا ما كان هذا الشيما معتدلاً، فإن هذا ادعى بالفلاح أن يكون فخورًا بوضعه، أما إذا كان مستبدًا فإن حياته تصبح مريرة وقاسية(٢).

---

(١) Brenner, L.: The shehus of Kukawa;. p. - 112.

(٢) Ibid.. p. 113

وأثناء الحماية البريطانية على برنو، أنشأت الإدارة الاستعمارية البريطانية فى البلاد ميزانيات محلية خاصة لكل إمارة على حدة وذلك من أجل دفع مرتبات الحكام المحليين والأجهزة الإدارية المعاونة لهم، وكذلك لأغراض جمع الضرائب المباشرة من مختلف المناطق(١).

وفرضت بريطانيا أنواعًا عديدة من الضرائب على الأهالى فى برنو، منها ضرائب على الدخل وضرائب على المواشى المملوكة، وتقدير هذه الضرائب كان فى أيدى الموظفين البريطانيين، وتقوم السلطات المحلية بجمعها. فقد كان للحاكم البريطانى نواب فى البدارى عرفوا (باللوانات) وتحتهم نوع آخر من ملاك الأراضى يعرفون ببلامه، ووظيفتهم جميعًا لا تعدو جمع الجبايات والضرائب وتقديمها للحاكم البريطانى. كما تقدم هذه السلطات المحلية تقديرات ميزانيتها، وتقوم بإرسالها للحاكم المساعد الذى يرفعها بدوره إلى الحاكم العام فى لاجوس ليقرها(٢). وبعد استقلال برنو عاد الوضع إلى مكان عليه، فأصبحت جباية الضرائب تتم تحت إشراف شيخ برنو بواسطة رجاله، وقد استمر نظام جباية الضرائب بواسطة رجال الشيخ تحت إشراف الحكومة الاتحادية(٣).

الأمن

لقد استمتعت البعثة الإنجليزية التى زارت برنو سنة ١٨٢٣ بالمناظر والقوى الجميلة الواقعة على بحيرة تشاد، فالحياة فيها على النقيض من الصحراء، ولكنهم ذكروا أن من الأمور المؤسفة أن سكان تلك القرى كان يساورهم الخوف من جيرانهم. ونظرًا لأنهم كانوا بعيدين جدًا عن كوكاوة عاصمة الدولة – الأمر الذى

---

(١) سامى منصور. المرجع السابق، ص ٥٤.
(٢) إبراهيم صالح بن يونس. المرجع السابق، ص ١٧١.
(٣) سامى منصور. المرجع السابق، ص ٥٤؛ انظر ما سبق، ص ١٠٥.

حال دون تمتعهم بالحماية التى كان من الممكن أن توفرها لهم الحكومة المحلية – فقد عاشوا فى حالة من الرعب بحيث كانوا يهربون لمجرد رؤية أى من الغرباء(١).

وقد كان لوفرة الماشية الموجودة لهذه القرى أثر فى إغراء الطوارق بالصحراء المتاخمة بالهجوم عليها، ولم يكن فى استطاعة هذه القرى مقاومتهم، نظرًا لعدم وجود جند بها علاوة على بعدهم عن العاصمة، فكان من الصعب إغاثتهم(٢).

وكانت الأحوال أقل خطرًا وأكثر استقرارًا فى كوكاوة حيث توفر بها الأمن والنظام، ويذكر دنهام أن برنو كانت تخلو من اللصوص وقطاع الطرق، ويستطيع المرء أن يسير فى شوارعها وحيدًا دون أن يشعر بأى خوف، فهى تعد آمنة كشوارع انجلترا ذاتها وكان الفضل فى ذلك يرجع إلى حرس الشيخ الذى خصصه لهذه المهمة(٣).

لم يستطع خلفاء الكانمى المحافظة على الأمن والنظام فى البلاد، فقد تعرضت برنو لأخطار خارجية من جانب قبائل الواداى، بينما قامت أحزاب الأسرة السيفية القديمة بحركة تمرد(٤) ضد الشيخ عمر بهدف إبعاد الأسرة الكانمية عن الحكم والعودة مرة أخرى إلى مركز السلطة فى البلاد، كما دب الصراع داخل الأسرة الكانمية نفسها بين الشيخ عمر وأخيه عبد الرحمن الذى كان يعتبر أن عرش البلاد من حقه. وأدت هذه الأحداث إلى اضطراب الأمن والنظام، ومارس اللصوص وقطاع أعمالهم دون رادع من السلطة الحاكمة(٥).

وأثناء الحماية البريطانية على برنو، أسند البريطانيون إلى شيخ برنو مسؤولية المحافظة بنفسه على الأمن والنظام فى برنو، كما منحوه حق القبض على المجرمين ومراقبة المشتبه فى أمرهم. وبعد استقلال برنو سنة ١٩٦٠، أسند شيخ برنو هذه المهمة إلى كبير حراسه(٦).

---

(١) Denham, D.&, Dlapperton, H. op.cit p 329
(٢) Denham, D.& Clapperton, H, op..cit pp 329 -330
(٣) Ibid., p. 329
(٤) انظر الفصل الثانى، ص ٤٢.
(٥) Kirk – Greene , A. H. M.: Barths travels in Nigeria,.p 152
(٦) إبراهيم صالح بن يونس. المرجع السابق، ص ١٧١.

الجيش:

كون محمد الكانمى جيشا قويًا، حتى يتمكن من تثبيت نفوذ أسرته فى برنو من ناحية، وليدفع عن برنو الأخطار التى كانت تهددها من ناحية أخرى. فيذكر دنهام أنهم شاهدوا فى العاصمة البرنوية وحدها بضع مئات من الفرسان مصطفين فى صفوف منتظمة، يتقدمها عدد من القادة الذين كانوا يصدرون الأوامر والتوجيهات. وقد كان مظهر الجند يتسم باللياقة والنظام فى حركاتهم وكانوا مسلحين بالرماح والحراب، ويبدو أن هؤلاء الفرسان كانوا يكونون الحرس الخاص للشيخ الكانمى(١).

أما زنوج(٢) الشيخ الكانمى، فقد كانوا يتدرعون بدروع تتألف من سلاسل حديدية تغطيهم من العنق حتى الركبتين ومشقوقة من الخلف حتى لا تعترضهم عند امتطاء الجياد وكان بعضهم يلبس خوذات أو أغطية للجماجم من نفس المعدن، وكان لباسهم هذا من القوة بحيث يتحمل ضربات الرماح والحراب. كما كانت رؤوس جيادهم تحميها أيضًا صفائح من الحديد أو النحاس تغطى جميع الرأس عدا موضع عينى الحيوان(٣).

---

(١) Denham, D.& Clappetton. H.:. pp. 63 - 64

(٢) المقصود بهم الزعماء السود أو المقربون الذين ارتقوا هذه المنزلة بسبب شجاعتهم التى أظهرها فى الحروب.

(٣) Ibid.. p. 69 انظر الصورة المدرجة على الصفحة ١١٥.



فارس في جيش برنو
Denham, D.& Clapperton, H.:, op. cit. facing, page 64

تكون جيش برنو من عناصر مختلفة، وكان العنصر الكنورى يمثل الأغلبية فى جيش محمد الكانمى، يليهم فرسان الشوة، ثم قلة من فرسان كانم والهوسويين[١]. وكان يضم أيضًا عددًا كبيرًا من الرقيق، ولم يكن عملهم يقتصر فقط على العمليات الحربية، بل يمتد أيضًا إلى الأعمال المنزلية فى البلاط والقصور[٢]. ولقد اشترك عرب الشوة إلى جانب الكانمبو والكنوريين فى تكوين حلف ثلاثى وقف أمام الفولة – الأمر الذى أدى إلى نصر حقيقى ودائم لبرنو عليهم[٣].

ويذكر المؤرخون أن سكان برنو، كانوا يؤيدون الشيخ محمد الكانمى تأييدًا مطلقًا، فمن العروض التى قدموها إليه، تزويده بعشرين من الجياد يوميًا حتى يتسنى له إقامة قوة نظامية، ويبدو أن الحال سار على هذا المنوال أربع سنوات[٤]. ورغم هذا فقط ظل يستحوز على محمد الكانمى خوف شديد من أى غزو خارجى، ولذلك كانت معلومات البعثة الإنجليزية التى زارت برنو عام ١٨٢٣ عن الأسلحة النارية تستغرق كل اهتماماته – حتى أنه كان مسرورًا عندما أهدته البعثة الإنجليزية بندقية مزدوجة الطلقات وزوجين من المدافع الصغيرة[٥].

ويصعب تقدير حجم جيش برنو زمن الشيخ محمد الكانمى، ويبدو أن الشيخ قد أعد جيشًا كبيرًا ليواجه به أعداءه من الفولة وغيرهم من البجرميين فقد كان عدد أفراد الحملة التى أرسلها الكانمى ضد إقليم مندره (Mandara)[٦] لتأديب أهله الذين تمردوا على حكمه لا يقل عن ألفى فارس، وكان يقود الحملة بركجنا (Baracagana)

---

(١) Ibid., p. 320

(٢) Fisher. A. G. & Fisher , H. G.: slavery and muslim society. P 132

(٣) إبراهيم صالح بن يونس. المرجع السابق، ص ٥٣.

(٤) انظر الفصل الأول

- Denham, D.& Clapperton, H.:, op. cit., p 320

(٥) انظر الفصل الأول

- Bovill, E.W.:The Niger explored.p.97

(٦) بلدة جبلية السطح، تقع جنوب بحيرة تشاد، كان يسكنها عدد من القبائل الوثنية

Ibid., p. 320

وهو محارب هوسوى وقائد لجيوش الشيخ – وعندما تقدموا فى زحفهم لحقت بهم أعداد أخرى من عرب الشوة المحليين، وما أن وصلت القافلة – إلى مورا عاصمة مندرة حتى بلغ عدد أفراد الحملة ثلاثة آلاف فارس. وعلى ذلك نستطيع أن نقول أن جيش محمد الكانمى كان يتكون من بضعة آلاف من الفرسان(١).

ومن التقاليد الحربية قبل محمد الكانمى ألا يحمل سلطان برنو أى سلاح، فمن العار فى هذه البلاد أن يدافع السلطان عن نفسه بنفسه، بل كان يجلس تحت شجرة بين قومه الذين يتولون مهمة قتال أعدائه. وعلى العكس فقد كان محمد الكانمى محاربًا ممتازًا يقود الجيش بنفسه كلما تطلبت الضرورة ذلك(٢).

ويعطينا بوفل (Bovill) وصفًا رائعًا لجيش برنو عام ١٨٢٣ حينما كان يتقدم لخوض معركة من المعارك، فيذكر أن "سلطان برنو كان دائمًا يأخذ مكانه فى المقدمة إلى جوار الشيخ، على الرغم من أنه لم يكن يحارب على الإطلاق. وتسبق الشيخ خمس رايات اثنتان منها بلون أخضر واثنتان بلون أبيض وخامسة حمراء، قد كتبت عليها جميعًا آيات من القرآن بحروف من الذهب. ويرافق الشيخ فى المقدمة ما يقرب من مائة من الزعماء والمقربيين، وخلفه مباشرة يركب زنجى – موثوق به – يحمل درعه وأسلحته، وكان هناك آخر يمتطى هجينًا (Maherhy) ويحمل معه دفًا أو طبلة – ومن أكبر الكبائر أن تفقد تلك الطبلة فى أتون المعارك" فضرباتها هي التى تشعل حماس الفرسان وتدفعهم إلى خوض المعركة بشجاعة(٣).

وعن كثب من مؤخرة الهجين، كان الأغوات والحريم يتبعون الركب، وكان الشيخ لا يأخذ معه إلا ثلاثًا من الحريم يمتطين صهوات الجياد، ويقود كل جواد خادم صغير، وكانت رؤوسهن مغطاة بالبرانس الحريرية. أما سلطان برنو فقد كان له خمسة أضعاف هذا العدد من الأتباع والخدم، وكان عدد حريمه ثلاثة أضعاف،

---

(١) Bovill, E.W.:op. cit.,.p.102

(٢) - Denham, D.& Clapperton. H.:. op. cit., p 327

(٣) Bovill, E.W.:op. cit.,.p.110

كما كان يرافقه أيضًا رجال يحملون الأبواق المصنوعة من الخشب يستعينون بها فى عزف الموسيقى(١).

وفيما يتعلق بالشؤون العسكرية فى برنو بعد وفاة محمد الكانمى، فقد كان الجيش لا يختلف كثيرًا من ناحية الحجم أو التنظيم، فقد كون الشيخ عمر بن الكانمى جيشًا منظمًا قوامه ألف من المشاة وألف من الفرسان المسلحين بالأسلحة النارية، بالإضافة إلى ثلاثة آلاف جندى مسلحين بالحراب والرماح والسهام. وفى وقت الحرب، كانت جميع المناطق – بما فى ذلك المناطق التى يسكنها عرب الشوة – تجند كل ما لديها من طاقات لخدمة الجيش(٢).

وكان يشترك فى جيش عمر بن الكانمى – عدا الكنوريين وعرب الشوة – كوكبة من فرسان الرماح والحراب من كانم بملابسها الخفيفة التى كانت تتكون فى مجموعها من مريلة صغيرة أو من قطعة من الجلد تربط حول الخصر، ومسلحة بأدرع خشبية خفيفة وكانت تردد أناشيدها القومية(٣).

بعد وفاة الشيخ عمر، أدت حدة التنافس على السلطة بين أفراد الأسرة الكانمية إلى ضعف قوة برنو، وشجع ذلك الدول المجاورة إلى غزوها ومحاولة الاستيلاء عليها، فتعرضت برنو إلى كثير من الغزوات الخارجية أدت إلى إضعاف جيشها. وفى عهد الشيخ هاشمى تعرض جيش برنو إلى هزيمة قاسية على يد رابح فى أمجا عام ١٨٩٣ قضت على البقية الباقية من قوته(٤).

منذ ذلك الحين لم يعد لبرنو جيش بالمعنى المعروف، فإذا أراد أحد أفراد الأسرة الكانمية أن يتصدى لقوات أعدائه، فعليه أن يجمع المتطوعين ليستطيع أن

---

(١) Bovill, E.W.:op. cit.,.p.110

(٢) Ifemesia, C.C: Borno under the shehus. P. 297

(٣) Kirk – Greene. A.H.M.: op.cit. p.209.

(٤) إبراهيم صالح بن يونس. المرجع السابق، ص ١٥١.

يكون منهم قوة تمكنه من مواجهتهم، وهذا ما فعله الشيخ كيارى عندما حاول أن يتصدى لقوات رابح(١).

وفى أثناء الحماية البريطانية على برنو، كانت قوات الجيش الموجودة كلها بريطانية أو إفريقية من مستعمرات أخرى تابعة لبريطانيا، وكانت مهمتها المحافظة على السلطات البريطانية، ولم يكن لشيخ برنو حق الإشراف عليها(٢). وبعد استقلال برنو، لم يكن لها جيش بالمعنى المعروف اللهم إلا قوات للشرطة والحراسة مهمتها حماية الشيخ وحفظ النظام، وكانت القوات المسلحة كلها تتبع الحكومة الاتحادية(٣).

***

(١) إبراهيم صالح بن يونس. المرجع السابق، ص ١٥٢.
(٢) سامى منصور. المرجع السابق، ص ٤٧.
(٣) Hogben, S.J & Kirk – Greene, A.H. M.op. cit. , P.338 –

الفصل الخامس

حالة برنو الاجتماعية والاقتصادية

أولاً – الحالة الاجتماعية:

١ – طوائف السكان:

بلغ عدد سكان برنو فى بداية حكم الأسرة الكانمية ٥ ملايين نسمة[١]. وكان يطبق عليهم "برونى" وكانوا يتكونون من أجناس مختلفة. وقد قسم يوفر (G. Yver) السكان فى عهد الأسرة الكانمية إلى أربعة طوائف هم: الكنوريون، والسودان، والعرب والبربر[٢].

(أ) الكنوريون:

عاش الكنوريون فى برنو كطبقة منفصلة ممتازة عن سائر السكان، وساعد ذلك على قيام نظام طبقى وضحت فيه كل طبقة من طبقات المجتمع وضوحًا أملاه مركزها ونوع نشاطها. والكنوريون أكثر عناصر سكان برنو عددًا ونفوذًا ؛ إذ بلغ عددهم حوالى مليون ونصف مليون نسمة من مجموع السكان، وأكثرهم يقيمون فى العاصمة كوكاوة والمدن الكبرى[٣].

وللكنوريين وجوه غير محددة السمات وأنوف زنجية فطساء، ويتميزون بالفم الواسع والأسنان الكبيرة مع ارتفاع فى الجبهة . فهم من حيث البنية وسط بين

---

(١) Denham, D.& Clapperton, H.: Narrative of travels & discoveries in northern & Central Africa, p. 329.

(٢) يوفر، ج: البرنو، دائرة المعارف الإسلامية، مج٣، ع٩، ص ٥٧٩ ـ ٥٨٠.

(٣) Denham. D.&. Clapperton. H. op.cit p 329

- يوفر، ج: المرجع السابق، ص ٥٧٩

التبو والسودان، فهو ليسوا فى نحافة التبو، وأطرافهم أكثر تناسقًا من السودان، وهم سمر البشرة(١).

وتتميز حياتهم الاجتماعية وطريقة معيشتهم تميزًا واضحًا عن جيرانهم، فهم مسالمون وادعون، ومتحضرون، ولا يميلون إلى تعاطى الخمور، وهم ليسوا أهل حرب ونزال، ولكنهم يأخذون بثأرهم ويعترفون بخطئهم، وأحيانًا يخشون بأس العرب، ويشترك رجالهم مع نسائهم فى الزراعة والنسيج. ويعرفون صناعة الخزف والسلال وأشغال الحديد. أما أشرافهم فيحتقرون الأعمال اليدوية التى تتطلب جهدًا جسمانيًا، بل أنهم إذا اضطروا للسير على أقدامهم عدوا ذلك عارًا(٢).

وقد اختلف المؤرخون فى أصل كلمة "كنورى" فيقول نشتيجال (Nachtigal) أن الأهالى يشتقونه من الكلمة العربية "نور" مع إضافة الكاف إلى أولها. وبهذا يصبح معناه باللغة الكنورية "حاملى النور". ويقصد بذلك الإسلام الذى اعتنقه الكنوريون منذ زمن بعيد ونشروه بين القبائل الوثنية(٣). ويرى يوفر أن كلمة كنورى مشتقة من كلمة كانم؛ وهو موطن الغزاة الذين أقبلوا فى القرن الرابع عشر ثم استقروا فى برنو(٤). ومهما يكن من أمر، فإنه يمكن الأخذ بكلا الرأيين، فإن كلمة كنورى لم تطلق على جنس بعينه، ولا على قبيلة بعينها، وإنما أطلقت على خليط من الناس مختلفى الأصل تمييزًا لهم عن العناصر الأصلية التى عاشت فى هذه المنطقة والتى لا زال بعضها يحتفظ بشخصيته المتميزة. إذ جاء أسلاف الكنوريين من كانم فى القرن الرابع عشر، وكان هؤلاء الغزاة من القبائل التى سبق أن استقرت فى كانم منذ عهد بعيد وزعمت أنها من أصل عربى(٥).

---

(١) - Urvoy, Y.: Petit atlas ethno – demographique du Sudan entre Senegal et Tchad p. 27.
- Denham, D.& Clapperton. H.:, op. cit., p 316

(٢) عبد الرحمن زكى: الإسلام والمسلمون فى غرب أفريقية. ص ١٠٥.
- Denham, D.& Clapperton. H.:, op. cit., p 316

(٣) Lukas, J.: A Study of the Kanuri language. P. IX.

(٤) - يوفر، ج: المرجع السابق، ص ٥٨٠

(٥) Urvoy, Y.: op. cit. P. 110
- يوفر، ج: المرجع السابق، ص ٥٨٠

(ب) السودان:

ومن هذه القبائل المكرى أو الكوتوكو؛ الذين يعيشون فى جنوب برنو بـإقليم كتكو وولاية لكنه. ويبدو أنهم أتوا من شارى الأوسط وأخضعوا السكان الأصليين من الصو (So)[١] قبل أن يتغلب عليهم الكنوريون. والمكرى أشد سمرة من الكنورى وأضخم أجسامًا، وكانوا يشتغلون بالزراعة وصيد الأسماك[٢].

أما "البدة والكرى كري" فكانوا يعيشون فى الغرب من برنو، وبلغ تعدادهم ٣٧ ألف نسمة. ويذكر المؤرخون أن هذه القبائل كانت ذات أصول مختلفة، وأغلب الظن أن الاختلاط كان نتيجة لارتباط واتحاد قبيلة غازية يتميز أفرادها بطول القامة مع شعب أصلى يتميز بقصر القامة. فيبلغ طول الغالبية من رجال هذه القبائل ستة أقدام أو ما يزيد عن ذلك، أما معظم نسائهم فأقزام على وجه التقريب[٣].

وتعيش هذه القبائل معًا فى مناطق قروية، وقد كانت كل مجموعة تنسب نفسها إلى بعض أنواع الحيوانات، فيذكر ميك (Meek) أنه لاحظ خلال إقامته بين هذه القبائل، أن الطوطمية[٤] (Totemism) كانت منتشرة بينهم وإن أخذت طريقها إلى الاندثار[٥]. وكانت هذه القبائل تعمل بالزراعة[٦].

---

(١) الصو (so) أو الصاو (sao) من القبائل القديمة التى عاشت فى حوض نهر تشاد، وقد حققت الكثير من الأعمال على لمستوى الحضارى، كالمدائن المسورة بالجدران. وكان بينهم وبين الكنوريين حروب مستمرة انتهت لصالح الكنوريين.

Meek, C. K: the northern tribes of Nigeria, Vol. 1. P. 79

(٢) - يوفر، ج: المرجع السابق، ص ٥٨٠

(٣) Meek. C. K: the northern tribes of Nigeria, Vol. 2. P. 220

(٤) الطموطمية هى الإيمان بوجود صلة خفية بين جماعة أو شخص وبين طوطم ما.

- D'Alviella. G: Animism; Encycolopedia of Religion and Ethics, Vol.XII 1. PP. 393 – 400
- Marrel, R. R.:: Animism; Encycolopedia of Britannic, Vol. 22, PP. 317 - 319

(٥) Meek. C. K: Tribal studies in northern Nigeria. Vol. I. P. 221

(٦) Ibid., p. 228.

وكان أفراد هذه القبائل يشرطون وجوههم تمييزًا لهم عن أفراد القبائل الأخرى[1].

أما قبائل "الكِربنة" فقد كانوا يعيشون فى جنوب برنو بإقليم كتكو. ويذكر المؤرخون أنهم آخر سلاسلة الصو، كما كان يعيش "المُبِّر" على الضفة اليسرى لنهر يئو (اليو) على بعد ستة عشر ميلاً من كوكة، وكان يعيش "المنكة" فى إقليم مساحته ١٣٠ ميلاً إلى شمال من ئيو، ويبدو أنهم كانوا خليطًا من الكنوريين والسكان الأصليين. "والفيكة والبابر" فى حوار أدموة. "والمرغى" إلى الجنوب الشرقى من البابر. و"الكمركو" و"المندرة أو الوندلة" إلى الجنوب والشرق من الكمركو. و"المسنكو" بين المندرة والكنة. وكان عدد أفراد هذه القبائل كلها يقارب أعداد الكنوريين[2].

(ج) العرب:

كان يطلق على العرب الذين استقروا فى برنو اسم شوة أو شوى تمييزًا لهم عن تجار العرب الذين يمكثون فترات قصيرة فى هذه البقاع، والذين كان يطلق عليهم "وسلى" ويتفاوت لون بشرتهم تبعًا لدرجة اختلاطهم بالسكان الأصليين[3].

ويذكر دنهام أن كلمة الشوة(Shouaa) ربما كانت تحريفًا للشيعة[4] وهناك ثلاثة تعريفات أخرى لمعنى "شوا" أو "شوة"، أولها: بمعنى جميل بلغة برنو، ويزعم أصحاب هذا التفسير أن سلطان برنو الذى دخل العرب بلاد كانم – وبرنو فى عهده هو الذى أطلق عليهم هذا اللقب، ومن ثم لزم القبائل العربية جميعها حتى الآن. أما الثاني، فبمعنى قليل أو شوى، وهذا على زعم أن السلطان سأل العرب

---

(١) Ibid., p. 230

(٢) يوفر، ج: المرجع اسابق، ص ٥٨١

(٣) نفس المرجع السابق، ص ١٣٠

(٤) Denham, D.& Clapperton, H.:. op. cit., p 315

عن عدد الداخلين منهم فى بلاده، فأجابوه بأنهم شوى أى قليلون. ويذهب أصحاب التفسير الثالث أنها بمعنى العصاة أو الخوارج، لأن كلمة أشوى فى اللغة الكنورية تعطى معنى العصاة فى العربية، ولكثرة الاستعمال حذفوا منها الهمزة، وبقيت مستعملة، وفى قوتها أعطاء هذا المعنى حتى بدون تلك الهمزة، وربما كان حذفها قصدًا للتعمية[1].

وعلى العموم فقد اشتهرت المجموعات العربية فى برنو بإسم "شُوَّة".

وهذه التسمية أطلقها عليهم الوطنيون من سكان برنو. غير أن العرب أنفسهم لم يستخدموا كلمة "شوة" التى اشتهروا بها، وغلبت على ماسواها من التسميات، بل ظلوا يحتفظون بأسماء قبائلهم الأصلية التى ينتمون إليها ؛ ومن القبائل التى اشتهرت بأسمائها الأصلية وبها عرفت فى برنو، قبيلة جذام؛ وهى أهم مجموعة انتشرت من دارفور إلى برنو، وكذلك جهينة[2].

ويذكر المؤرخون أن بعض قبائل هؤلاء الشوة نزحت من الصحراء فى بداية القرن السادس عشر إلى كانم، وأن بعضها ترك كانم واستقر فى برنو فى أوائل القرن الثامن عشر، وكانوا منتشرين فى ولاية كنتو ومندرة[3].

وقد استعان الشيخ محمد الكانمى بقبائل الشوة فى رد هجمات قبائل الفولانى ضد برنو، وبعد أن عقد معهم اتفاقية تخول لهم بعض الامتيازات[4] الخاصة فى الدولة مقابل تعهدهم بالقتال معه ضد أعداء برنو[5].

ومن أبرز القبائل التى وقع زعماؤها هذه الاتفاقية، أولاد سرار وأولاد حميد وأولاد سالم وأولاد غانم وأولاد سلام والجوامعة وبعض بطون من قبائل جهينة.

---

(١) إبراهيم صالح بن يونس: تاريخ الإسلام وحياة العرب فى إمبراطورية كانم - برنو، ص ٣.
(٢) إبراهيم على طرخان: إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص ٢٩.
- يوفر، ج: المرجع السابق، ص ٥٨١.
(٣) إبراهيم على طرخان: المرجع السابق، ص ٣٠
(٤) انظر الفصل الرابع، ص ١٠٧.
(٥) إبراهيم صالح بن يونس: المرجع السابق، ص ١٩

وقد اشترك العرب والكانمبو إلى جانب الكنوريين فى تكوين حلف ثلاثى عظيم وقف أمام الزحف الفولاني، الأمر الذى أدى إلى نصر حقيقى ودائم لبرنو على الفولة. ولذلك كان العرب فى عهد الشيخ الكانمى يتمتعون بمرتبة رفيعة، فتولوا مناصب قيادية فى جيش برنو – مكافأة لهم على ما قاموا به من خدمات عظيمة لهذه البلاد وخاصة مؤازرتهم للشيخ محمد الكانمى فى جميع حركاته(١).

كما ساعد الشوة الشيخ عمر بن محمد الكانمى فى حروبه المتعددة ضد واداي، وفى حالة الحرب كانت الولايات التى يقيمون بها، من الأماكن التى تجند ما لديها من طاقات لخدمة المعارك(٢).

---

(١) نفس المرجع: ص ٥٩، ١١٣

(٢) سليجمان، س. ج.: السلالات البشرية فى أفريقية، ترجمة يوسف خليل، ص ٢١١.

Ifemesia, C.C: Bornu under the shehus: A thousand years of West African history. edited by J. E. Ajayi: & others, p297..



قبائل الشوة

Denham, D. & Clapperton, H: op.cit., Facing, p. 70.

انتظم العرب أو الشوة فى عدة قبائل، وقد عرفوا بالبراعة فى الجدل وإجادة الكتابة، وكانوا يتظاهرون بالقدرة على التنبؤ بمعرفة الغيب، ويـذكر دنهـام أنهـم كانوا شديدى الشبه بقبائل الغجر فى انجلترا(١). ويقال أنه كان فـى برنـو خمـسة عشر ألفاً من الفرسان من هذه القبائل، ونظرًا لأنهم أكبر مربى خيول فى البلاد فقد كانوا يمدون السودان سنويًا بعدد يتراوح بين ألفين وثلاثة آلاف جواد(٢).

وكان مجموع عدد الشوة فى برنو لا يزيد على عُشْر عدد الكنوريين أى حوالى مائة وخمسين ألفاً(٣).

ويوجد العرب فى مختلف مناطق برنو، ففى الشمال والشرق من ميدوجورى استقر العرب الحيماد وسرار ووائل وبنى بدر والجوامعة والشعيبات وخزام وبنى محارب. وفى دكوة استقر عرب السلامات وغيرهم من القبائل من الحوامدة. كذلك يوجد كثير من القبائل العربية على شاطئ بحيرة تشاد(٤).

(د) القبائل الأخرى:

وجد فى برنو عدة قبائل أخرى منها: بعض الطوارق وهم بقية الشعب الصنهاجى العظيم، ولهم كتابة خاصة بهم ورثوها عن أجدادهم وهم موزعون فى أنحاء مختلفة من الصحراء، ويقطنون أوطاناً متباعدة بعضها عن بعض(٥).

ويعرفون فى برنو باسم كندين. وقد استقروا منذ عدة قرون على الحدود الشمالية لإقليم دونشى وما حول زندر(٦).

---

(١) Denham, D.& Clapperton, H.:, op. cit., p 207

(٢) – Waston, G.D: A human Geography of Nigeria, P.25

Denham, D.& Clapperton, H.:, op. cit., p 315

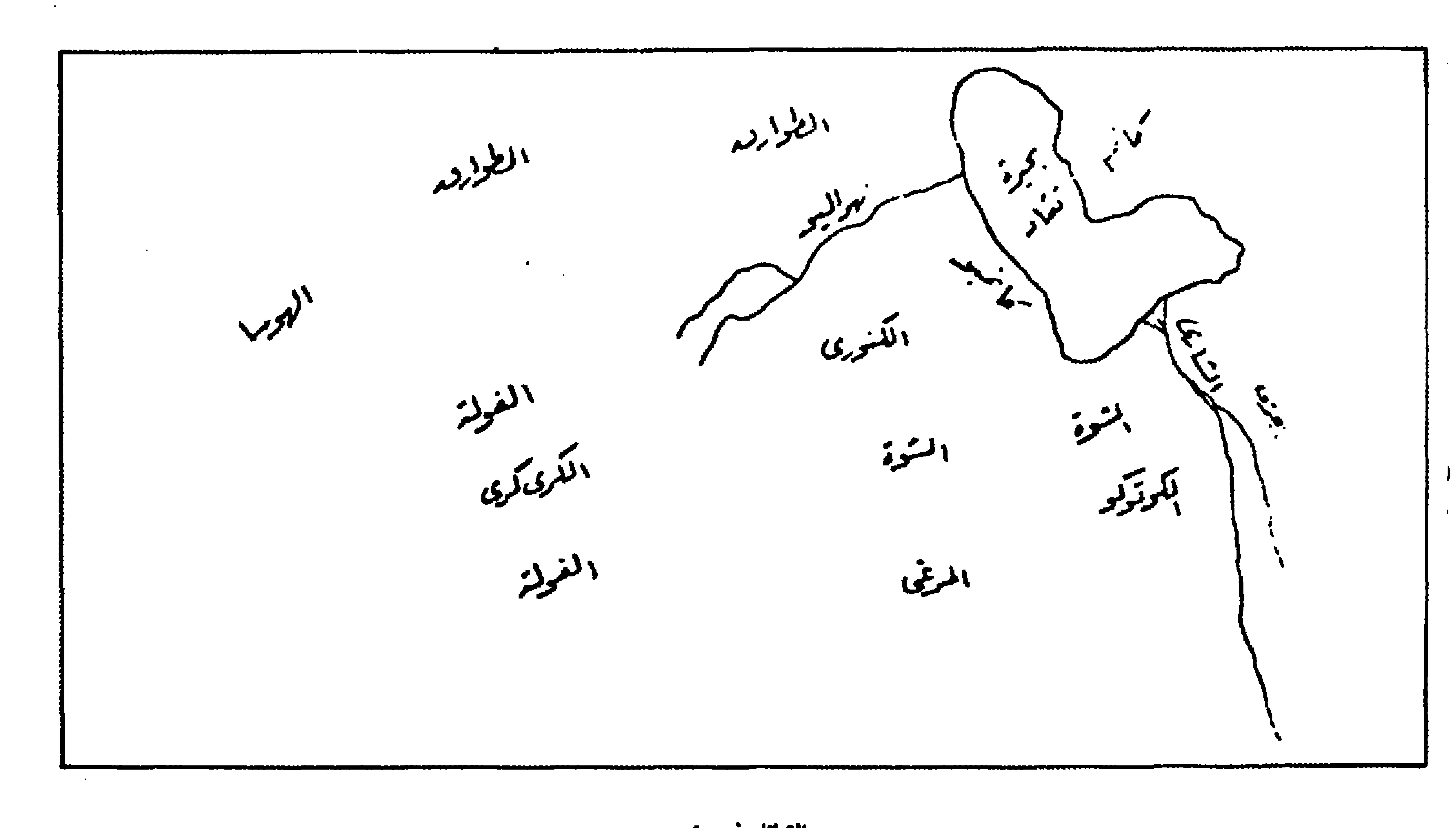
(٣) يوفر، ج: المرجع السابق، ص ٥٨١.

(٤) إبراهيم صالح بن يونس: المرجع السابق، ص ١٨٥ ـ ١٨٦.

(٥) محمد عوض محمد: الشعوب والسلالات الأفريقية، ص ٣٥١ ـ ٣٥٢

Briggs, L. C.: Tribes of the sahara, P. 125

(٦) يوفر، ج: المرجع السابق، ص ٥٨٤.



القبائل في برنو

Brenner, L. : The Shehus of Kukawa, facing totle page.

والفلاتة، وهم الفلبة أو البول الذين أقاموا محلات فى أماكن مختلفة منذ القرن السادس عشر فى الإمارات الهوسوية وبرنو(١).

والهوسا الذين اختلطوا بالكنوريين والفلاتة والطوارق، وكانوا يقطنون زندر وكمل(٢).

٢ – **مستوى المعيشة:**

يمكن تقسيم المجتمع البرنوى إلى فئتين كبيرتين من السكان **أولهما**: سكان المدن وأغلبيتهم من الكنوريين، **وثانيهما**: سكان القرى وتشمل معظم القبائل الأخرى.

(أ) المسكن:

يقطن سكان برنو مدنًا وقرى بعضها كبير إلى حد، وقد بلغ عدد المدن والمراكز فى برنو ثلاثة عشر(٣). وكان لكل مدينة أربعة أبواب ضخمة لا يقل طول كل منها عن عشرة أمتار ولا يقل سمك كل منها عن ستة أمتار، ولكل باب ثلاثة منافذ مقواه بالحديد(٤). كما تمتاز مدن برنو بشوارعها الواسعة(٥).

وكانت الحاضرة كوكة أو كوكاوة (Kukawa) أهم مدن برنو إلى نهاية القرن التاسع عشر، وقد أسسها الشيخ محمد الأمين الكانمى عام ١٨١٤ فى سهل يبعد عشرة أميال غرب بحيرة تشاد(٦). وفى عام ١٨٤٦ فى عهد الشيخ عمر بن الكانمى، هاجم جيش واداى برنو وحرق مدينة كوكاوة، وبعد أن خرج منها – أعاد الشيخ عمر تشييدها عام ١٨٥٣ على نظام هندسى رائع(٧).

---

(١) أنظر الفصل الأول، ص ٣.
(٢) يوفر، ج: المرجع السابق، ص ٥٨١.
(٣) Denham, D.& Clapperton, H.:, op. cit., p 319
(٤) Ibid. P. 318
(٥) يوفر، ج: المرجع السابق، ص ٥٨٤.
(٦) – Hoghben, S.J & Kirk – Greene, A.H. M. The emirates of Northern Nigeria, P.322
(٧) Kirk – Greene , A. H. M.: Barths travels in Nigeria,.p 156 - 157

كانت كوكاوة تنقسم إلى قسمين يفصل أحدهما عن الآخر سور وميدان فسيح، ويقطن القسم الأول طبقة الأغنياء والموسرين ويضم أبنية ضخمة – أما القسم الثانى، باستثناء الشارع العام الذى يقسم المدينة من الغرب للشرق، فيتكون من مساكن مكتظة بالناس تتخللها منعطفات متعرجة وضيقة، وهناك مساحة تفصل بين هذين القسمين يبلغ عرضها حوالى نصف ميل؛ وهذه المساحة بها أفنية واسعة من شجيرات البوص ذات ألوان متباينة، وعندما تشتد الحرارة تبدو المدينة فى فتور وسبات عدا أيام الأسواق، عندما تصبح الأسواق اليومية زاخرة بالحركة حيث يؤمها الناس بكثرة ما بين العصر والمغرب أو مع الغروب[١].

وقد ازدهرت كوكاوة زمن الشيخ عمر بن الكانمى وبلغ تعدادها ١٢٠,٠٠٠ نسمة[٢].

وأشهر مدن برنو فى عهد الشيخ عمر بن الكانمى – بعد كوكاوة – نجالا (Ngala) وآلا (Ala) ومارت (Marte) التى كانت تقع ضمن مناطق برنو على امتداد سهل فسيح ومزدان بأشجار السنط[٣].

وكانت مدينة مارت تضم ما يقرب من أربعة آلاف نسمة، وتتمتع بدفاعات قوية، وكان لها بوابة فى كل جانب عدا الجانب الذى يقع فيه السوق؛ فقد كانت به بوابتان، وفى الاتجاه الشرقى كانت توجد أراضى زراعية محدودة. وفى الاتجاه الشمالى كانت هناك ضاحية صغيرة تتكون من أكواخ مخروطية الشكل حيث كان يعيش فيها إلى جانب الأسر الكنورية، أسر أخرى من الفولة. أما القطاع الداخلى من المدينة فقد كان يتكون من أزقة ومعظم المنازل من الطوب اللبن[٤].

---

(١) Ibid. P. 157

(٢). يوفر، ج: المرجع السابق، ص ٥٨٢.

(٣) Kirk – Greene, A.H. M:, op. cit., pp 210 - 211

(٤) Ibid. P. 211

ومن مدن برنو أيضًا نكرنو (نجورنو) (Ngurnu) وهى على بعد عشرين ميلاً من الجنوب الشرقى لكوكاوة، وبروة وهى على ضفاف بحيرة تشاد، ونغكمى وهى فى الركن الشمالى الغربى من البحيرة عند حدود منطقة السهوب. ونكرتوه أى مدينة أفراس البحر، وهى لا تبعد كثيرًا عن قصر أكمو العاصمة القديمة وبُرسارى ومُشتة وزندر[١].

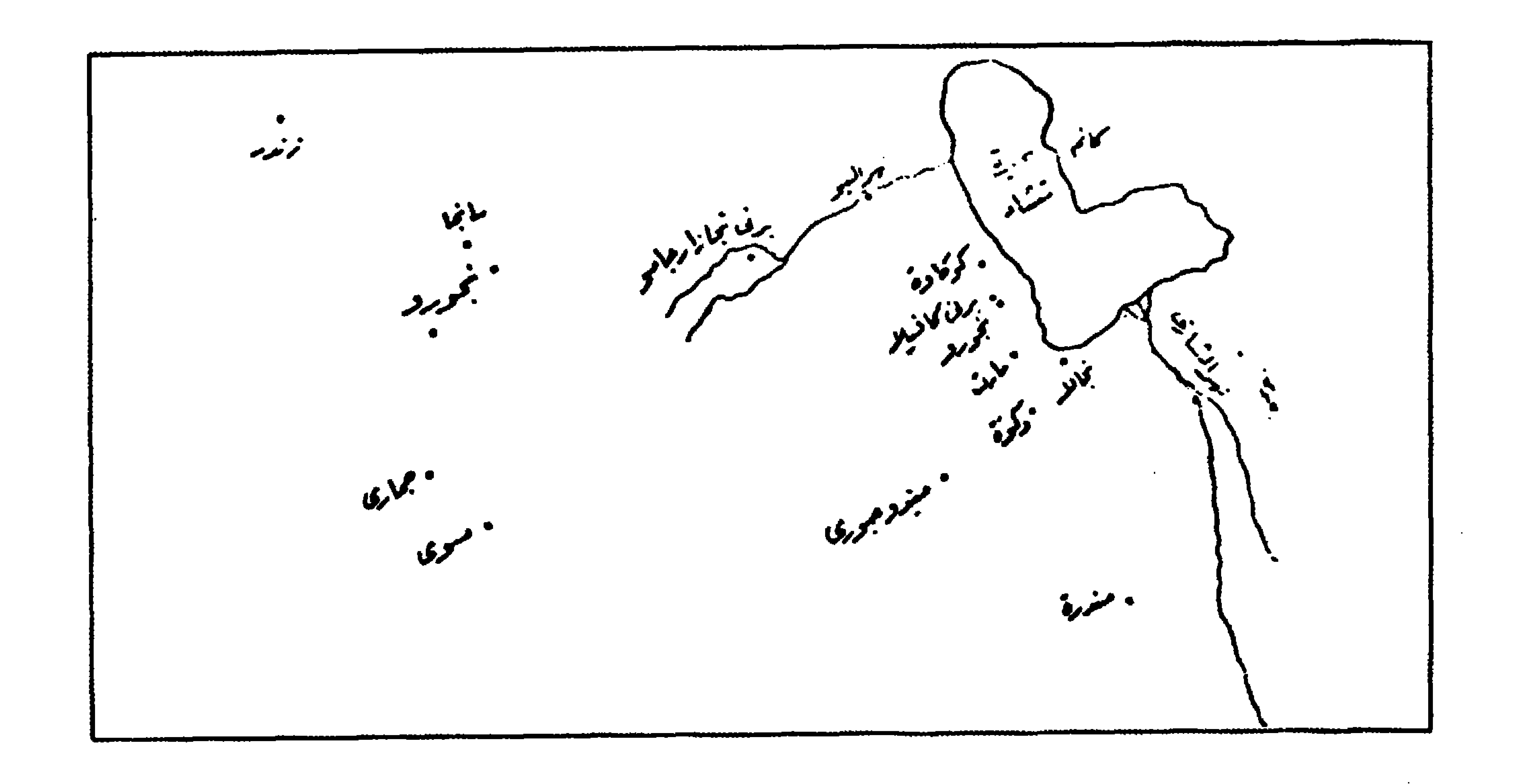
---

(١) يوفر، ج: المرجع السابق، ص ٥٨٢.

١ ــ البيت الانجليزي.
٢ ــ قصر الشيخ في المدينة الغربية وبه مسجد في احد اركانه.
٣ ــ مئذنة المسجد.
٤ ــ الميدان الخلفي للقصر.
٥ ــ الطريق الرئيسي (دانديال).
٦ ــ الرحبة الواسعة التي تسبق البوابة الجنوبية.
٧ ــ قصر الشيخ في المدينة الشرقية.
٨ ــ منزل الوزير الحاج بشير.
٩ ــ المنزل الذي نزل به بارث.
١٠ ــ (منزل قريب هذا المنزل) قصر يخص ابو بكر اكبر ابناء الشيخ المقرب لديه.
١١ ــ منزل يخص ابا يوسف ــ الاخ الثاني للشيخ.
١٢ ــ منزل كان لاميتو يشغله في غضون إقامة بارث الثانية.
١٣ ــ تجويفات كان يؤخذ منها الطين لاستخدامه كمواد بناء ــ وكانت تتحول اثناء الموسم الممطر إلى بحيرات ضحلة من المياه الراكدة.
١٤ ــ مقابر.

مدينة كوكاوة في عهد الشيخ عمر بن محمد الكانمي

Barth, H. : Travels & discoveries in Horth and Central Africa.



مدن برنو

Brenner, L. : op.cit., facing title page.

وكانت دكوة من أشهر المدن الصناعية زمن الشيخ عمر بن الكانمى، فقد كان النشاط الرئيسى للسكان يتمثل فى صناعة النسيج وتحويل القطن الذى يزرعونه إلى أقمشة، حيث اقتصر نشاطهم الزراعى على زراعة القطن. وقد تميزت هذه المدينة بأسوارها العالية المحيطة بها وأشجار التين التى تتوجها مما جعلها تشبه خميلة جميلة دفعت حكام برنو إلى قضاء فترة استجمامهم بها ليتمتعوا بجمال الطبيعة فيها(١).

ويبدو أن ظاهرة تزيين المدن البرنوية، بزراعة الأشجار حولها، كانت تهدف إلى إضفاء مظاهر الجمال على هذه المدن. أما فكرة إحاطة هذه المدن بالأسوار، فيبدو أن أهل برنو قد نقلوها من الهوسويين – حتى تستطيع تلك المدن مواجهة أى هجوم خارجى عليها، خاصة من جانب الفولة وواداى(٢).

وكانت للبيوت أفنية تضمها جدران أربعة وبها أماكن لمبيت الحريم وأماكن أخرى لمبيت العبيد وسيد المنزل له المكان الأعلى ويصعد إلى مكانه بدرجات متعددة – خمس أو ست درجات – ويستمتع بالسطح الذى يطل على الشارع عن طريق نافذة. وجدران المنزل تقام من مادة صلبة تشبه الفخار الناعم الملمس، ويميل لونها إلى الحمرة، والسقف من عرائش منحنية ومتجاورة إلى خارج حدود الجدران على النحو المعتاد فى المناطق البربرية(٣).

وتستخدم قرون الغزال والوعول بديلاً للمسامير، وتوجد متناثرة فى الجدران كالمشاجب ويتدلى منها السهام والأقواس والدروع(٤).

---

(١) Kirk – Greene, A. H. M:, op. cit., p 204

(٢) كان الهوسويون يسورون مدنهم بجدران من الطين ويحفرون حولها الخمادق، ويجتمعون داخلها إذا ما تعرضوا لأى خطر.

- Burns, Sir Alan: History of Nigeria, P. 47

(٣) Denham, D.& Clapperton, H.:, op. cit., p 322

(٤) Ibid., p. 323

ويشتمل المنزل على حظيرة للجياد والحيوانات الأخرى. وكان المنزل فى جملته مثل القلعة حتى يتمكن سكانه من حماية أنفسهم ضد أى خطر قد يتعرضون له، فقد كانت المدن البرنوية معرضة دائمًا للهجوم من جانب قبائل واداى[١].

وفى القرى وضواحى المدن، توجد أنواع متعددة من المساكن وهى عادة من أربعة أنواع هى: (كوزى – Coosie) وهى كوخ صغير مصنوع كله من القش، و(بونجو – Bongo) وهو كوخ له جدران مستديرة من طمى وقش، و(نجيم كولونبى – N'geim Kolunby) و(فاتو سوجديبى – Fatto Sugdeeby)، وهى أنواع من الأكواخ مصنوعة من حصير خشن وأعشاب لها سيقان خشبية أو بوص من الأنواع التى تنبت على شواطئ المجارى المائية[٢].

وتعيش معظم القبائل القاطنة فى غرب وجنوب برنو فى قرى مسورة بأعشاب النباتات، ويبنون أكواخهم فى العادة من أخشاب الأشجار، بسبب شيوع الأعمال السحرية بينهم التى قد تقضى فى كثير من الأحيان بالتخلى عن المكان وهجره. ولهذا السبب فإن هذه القبائل لم تستخدم الطين فى بناء أكواخها[٣].

ولم يشر دنهام أو غيره من الرحالة إلى وجود أسرة فى المنازل، ولكنه ذكر أن النوم كان على الحصير المغطى بجلود الحيوانات. والنساء شديدات التطير من تغطية أماكن نومهن بأنواع معينة من جلود الحيوانات أثناء زيارة أزواجهن لهن. فهن يتفاءلن مثلاً بجلد النمر الذى يبشر فى زعمهن بولادة طفل ذكر.

وإذا كان الأب محاربًا يكون الابن الذى ينجب فى هذه الحالة محاربًا وشجاعًا لا يهاب الدم. ولكن جلد الأسد يمنع إنجاب الأولاد، ولكن وإذا حدث الحمل – استثناءًا من القاعدة – فإن الطفل الذى يتم إنجابه على جلد أسد يكون شجاعًا، ويسيطر على الجميع ويتسم بالشجاعة والجرأة والكرم وسعة الثراء[٤].

---

(١) Denham, D.& Clapperton, H.:, op. cit., p 323

(٢) Ibid.

(٣) Meek, C. K: Tribal studies in northern Nigeria, Vol. I. P. 227

(٤) Denham, D.& Clapperton, H.:, op. cit., p 323
Briggs, L. C. op. cit., p.43

وتحصل برنو من السودان على مساند الرأس المصنوعة من الجلود الملونة. وتستخدم هذه الأشياء كمساند للأثرياء يستخدمون أحياناً السجاجيد التركية فيجلسون وينامون عليها[1].

(ب) الطعام

كان أهل برنو بسطاء فى معيشتهم، فهم يصنعون من الدقيق عجيناً يحلونه بالعسل ويصبون فوقه الدهون. أما استعمال الخبز فهو غير شائع بينهم، ولذلك لا يوجد القمح بكثرة إلا فى منازل الأثرياء[2].

لذلك كانت الغلة الأكثر شيوعًا بين الطبقات والتى تتغذى عليها الحيوانات أيضًا هى (الجُسُبّ Gussub) وهى من الغلال التى تعطى الدقيق، وينتجونه بكميات كبيرة وبدون عناء. ويأكله الفقراء على هيأته البدائية أو ناضجًا بفعل حرارة الشمس، وربما لا يأكلون غيره لعدة أيام، ويستعمل مخلوطًا بالماء كغذاء للمسافرين والحجاج والجنود، وأحياناً تصنع منه رقائق مضافًا إليها الدهون والتوابل المحلية وتسمى كادل (Kadell)[3].

ويجفف أهل برنو نوعًا من الأعشاب يطلق عليها (الكاشيا Kasheia) وهى تنبت بوفرة على جسور المجارى المائية، ويقومون بطحنها بعد تخليتها من عروقها المتخشبة، وعندما تجف تؤكل مثل الأرز أو يصنع منها دقيق ولكنه يعد ترفًا[4].

والفول هو طعام الفقراء، ويصنعون منه لوناً آخر للطعام مضافًا إليه السمك الذى يصاد من الأنهار القريبة من المدن. ويذكر دنهام "أن الجراد موجود بكثرة فى

---

(١) Denham, D.& Clapperton, H.:, op. cit., pp 323 - 324

(٢) Ibid.., p 317

(٣) Ibid

(٤) Denham, D.& Clapperton, H.:, op. cit., pp 317 - 320

برنو، وأن الأهالى يأكلونه بشراهة سواء كان مشويًا أم مسلوقًا أم على هيئة عصيدة"(١).

وفى زمن الشيخ عمر بن الكانمى كان الناس يطلقون على النمل الكبير اسم (Tsutsu) أو (Desudsu) وكانوا يقلونه ويستعملونه كطعام. وفى الأسواق لم يكن هناك ما يقدم سوى الفول السودانى الحلو (Kolche) وثمار أشجار الباوباب (Gangala) والفاصوليا المسلوقة والتمر المجفف. وكان اللبن المخمر (الزبادى أو الرايب) يقدم كمرطب لعملاء السوق الذين ينال منهم التعب والإرهاق(٢).

وقد جرى العرف بين قبائل جنوب وغرب برنو أن تلتقى ذكور كل جماعة – تعيش مع بعضها – معًا لتناول وجبة المساء فى كوخ القرية المشترك – الذى أقيم من أجل الاحتفالات الجماعية – ويجلسون معًا فى مجموعات بحسب فئاتهم العمرية. وتأكل النساء مع بعضهن فى مكان آخر أعد لذلك، حيث توجد العديد من الزوجات، فتأكل زوجات كل طبقة واحدة مع بعضهن(٣).

وفى غضون موسم الزراعة، لا يتناول العاملون من أفراد هذه القبائل سوى وجبتين إحداهما صباحًا على أرض المزرعة، والثانية بعد الغروب والعودة إلى المنازل. وفى موسم الجفاف تكون هناك وجبة إضافية خفيفة عند الظهر(٤).

وكانت الأدوات المنزلية قليلة – بوجه عام – والأوانى من الفخار، ولكنها تصلح للطهى، وبعض الآنية تصنع من الخشب. ويذكر دنهام أن الماء هو الشىء الوحيد المتاح للشرب وتحتويه الجرار الفخارية لتبقى عليه باردًا(٥).

---

(١) Ibid.

(٢) -Kirk – Greene , A. H. M.: op. cit,. p. 160 - 162

(٣) Meek, C. K: Tribal studies in northern Nigeria, Vol. 2. p. 229

(٤) Meek, C. K: Tribal studies in northern Nigeria, Vol. 2. p. 228

(٥) Denham, D.& Clapperton, H.: op. cit., p323

(ج) الملابس:

اشتهر أهل برنو بالأناقة، فالرجال والنساء يشتركون معًا فى إعداد قطع القماش التى يصنعون منها "التوبن" وهو الجلباب الخاص ببلادهم[١]. وتعمل النساء بالغزل على أعتاب معظم الأكواخ[٢]. ويرتدى أهل برنو ملابس عبارة عن ثوب أو اثنين أو ثلاثة أو أردية فضفاضة وفقًا ليسار الفرد. أما عليَة القوم فيرتدون غطاء أزرق للرأس ويحملون عصيًا غليظة وطويلة ويسيرون بجدية ووراء كل منهم عبدان أو ثلاثة. ويرتدى الأمراء وأعوانهم الطرابيش الحمراء أو العمامة التى كانت تستورد من طرابلس ومصراته[٣].

وبالنسبة لقبائل غرب برنو، فقد كان لباس رجالها عبارة عن غطاء جلدى للعورة، يعقد من الخلف وتتدلى منه أهداب جلدية. أما ملابس النساء فهى نتوء مستطيل من القماش يتدلى من حزام فى المقدمة والمؤخرة[٤].

ارتدى سلاطين برنو ملابس فاخرة من الحرير المقلم والتيل الملون المستورد من مصر. وعندما يكونون فى ميدان القتال يسيرون فى موكب يتقدمهم ستة من الرجال يحملون نفيرًا من الغاب طوله عشرة أقدام. وتزين رؤوس السلاطين والجياد التى يركبونها بأكسية من الجلد الملون وكأنهم فى عرض مسرحى صامت لا فى مهمة فى ميدان القتال[٥].

وفى الأسواق، كان الرجال فى الغالب يزينون أعناقهم بعقود من الصدف. بينما كانت النسوة تتزين بعقود من الخرز الزجاجى ويصففن شعورهن على نحو ملحوظ[٦]. ويعلقن على أنوفهن خرزات كبيرة أو قطعًا كبيرة يتحلين بها. وكان

---

(١) يوفر، ج: المرجع السابق ص ٥٨١.

(٢) Bovill،E.W.:The Niger explored.p.96

(٣) Denham, D.& Clapperton, H.: op. cit., p 318

(٤) Meek, C. K: Tribal studies in northern Nigeria, Vol. 2. P. 229

(٥) Denham, D.& Clapperton, H.: op. cit., p 328

(٦) Kirk – Greene , A. H. M.: op. cit,. p. 160 - 164

رداؤهن يهرول خلفهن على الأرض، وتضع كل منهن على منكبيها قماشا مطبوعًا ذا نموذج براق، وتحتفظ بأطراف ذلك القماش على راحتيها، بينما تلقى بذراعها هنا وهناك على نحو يتسم بالدلال[١].

وعلى العموم فقد كان فى لباس النساء وسلوكهن لمسة ذوق. وكان أفضل جزء فى رداء المرأة البرنوية هو الجزء المصنوع من الفضة، والذى كانت ترتديه على مؤخرة الرأس، وكان مناسبًا جدًا بالنسبة للقامة الطويلة[٢].

٣ – اللغة:

كان أهل برنو يتكلمون عشر لغات ولهجات مختلفة[٣]. ولكن لغة الكنورى أوسعها انتشارًا وقد حملها معهم الفاتحون الذين جاؤوا من كانم ونشروها بين قبائل الصو الذين يسكنون برنو[٤].

ولغة الكنورى تشبه لغة التبو (Tibu) وبعض اللغات السودانية مثل لغة بكرمة، وهذه اللغة غنية بمفرداتها فيقول كولة (Koelle) أنه يمكن التعبير بها عن أدق خلجات الفكر، ولا توجد مؤلفات بهذه اللغة، وإنما هناك قصص ومأثورات وأخبار تاريخية جمعت من أفواه الأهالى[٥].

ويذكر فيدج (Fage) أنه "لا اللغة السائدة فى كانم (كانمبو – Kanembu)، ولا تلك التى سادت فيها بعد برنو (كنيور أو كنورى) تندرجان فى طبقة واحدة مع اللغة الأفريقية الغربية أو اللغة الزنجية السودانية. إذ أن هاتين اللغتين توضعان فى طبقة أو أسرة لغوية أخرى يسميها الأستاذ جرينبرج (Professor Greenbert) باسم (نيلو

---

(١) Ibid, pp. 164 - 165

(٢) Kirk – Greene , A. H. M.: op. cit,. p. 165

(٣) Lukas, J,op. cit., P. IX.

(٤) Denham, D.& Clapperton, H.: op. cit., p 315

(٥) يوفر، ج.: المرجع السابق، ص ٥٨٢

صحراوى – Nilo – Saharan). وهذه الأسرة بالتحديد ليست حاميَّة، ويمكن وصف المتكلمين بها من الناحية السلالية والتاريخية بأنهم أبناء الجلدة الذين يسكنون الصحراء الكبرى وأطرافها من شمال بحيرة تشاد حتى النوبة ووادى النيل ثم انتقلوا للمعيشة فى الأراضى غير الصحراوية ولكن لندرة الماء كان من الصعب عليهم أن يتقدموا فى الزراعة، ولذلك ظل احتراف الرعى هو أسلوب الحياة البارز فيما بينهم[(١)].

ولكن النيلو صحراويون – شأنهم فى ذلك شأن الحاميين من الرعويين فى أقصى الغرب – نزعوا إلى الاتجاه جنوبًا فى أرض يسهل تحقيق الزراعة عليها، وهناك اختلطوا مع السكان. وكانت النتيجة أن تمركزت حول بحيرة تشاد اللغة الكانمبوية لكانم أولاً، ثم اللغة الكنورية لبرنو ثانية فتحدثت بها نسبة كبيرة من الشعب المحلى[(٢)]. ولم تزل لغة الكنورى آخذة فى الانتشار حتى أخذت تحل تدريجيًا محل اللغة العربية التى كانت اللغة الرسمية آنذاك. ولا يتكلم بالعربية – إذا استثنينا حاشية شيخ برنو – سوى عرب الشوة الذين جلبوها معهم[(٣)].

٤ – الدين:

كان الإسلام هو الدين السائد فى برنو. وقد دخلها فى العصور الوسطى على يد الفاتحين الذين جاؤوا من كانم، والذين اعتنقوا هذا الدين أبان القرن الحادى عشر[(٤)]. فدخل فيه السلطان والأشراف وسكان المدن الكبيرة. وقد استمر فى الانتشار بين قبائل الغرب والجنوب الوثنية[(٥)].

---

(١) Fage, J.d:A History of West Africa, an introductary Survey, 4 th ed. P. 31.

(٢) Ibid., p. 32

(٣) يوفر، ج: المرجع السابق، ص ٥٨٢

(٤) Denham, D.& Clapperton, H.: op. cit., p 315

(٥) يوفر، ج: المرجع السابق، ص ٥٨٢ ـ ٥٨٣

ورغم هذا يذكر بعض المؤرخين أن الإسلام لم يتغلغل فى قلوب الناس بدرجة كبيرة[١]. فليس فى لغة الكنورى مثلاً كلمة تعبر عن فكرة التوحيد، ولا يعرف الناس عن العقائد سوى مظاهر العبادات مع بقائهم متمسكين ببعض الخرافات[٢].

غير أن انتشار الإسلام أدى إلى اندثار كثير من الخرافات فى برنو، وقد انتشرت الطرق الدينية بين شعب برنو، وكانت الطريقة التيجانية[٣] أوسعها انتشارًا وكان من أتباعها السلطان نفسه[٤].

وقد عمل الشيخ محمد الأمين الكانمى على نشر الإسلام بين شعب برنو، خاصة وأنه كان يتمتع باحترام لاعتداله وإحسانه. ومن هنا كان من اليسير على أتباعه أن يعتقدوا بأنه كان ملهمًا بقبس من الله ووحى منه بأن يتولى تحرير برنو وفى داخل المملكة أصر الكانمى على ضرورة الامتثال لأحكام الشريعة الإسلامية. وقد تركز حكمه على أساس تدعيم وتوسيع نطاق المد الإسلامى فى كافة بقاع برنو ولا سيما الأراضى الغربية منها. وكانت هذه السياسة تهدف إلى أنه كلما زادت السلطات التى آلت إليه، كلما كان من الممكن بالنسبة له أن يقضى على البدع الدخيلة على الإسلام، وأن يتخذ من التدابير ما يؤكد أن الإسلام هو دين الدولة الرسمى[٥].

---

(١) يذكر ديشان أن نصف سكان منطقة تشاد من المسلمين،بل إن قبائل المنطقة من أقدم الشعوب التى اعتنقت الدين الإسلامى، وتعتبر أمنع قلاعه، غير أن تدينهم سطحى مشوب بالجهل ويرجع ذلك إلى كثرة شعوب المنطقة وتباين أصولها، وإلى الاضطراب السياسى وعدم الاستقرار الذى ساد تلك المنطقة، إذ هى بلاد يكثر فيها عبور السابلة والقوافل وتجارة الرقيق.

- ديشان، هوبير: الديانات فى أفريقية السوداء. ترجمة: أحمد صادق حمدى ص ١٤٠.

(٢) يوفر، ج: المرجع السابق، ص ٥٨٣

(٣) نشأت الطريقة التيجانية فى القرن الثامن عشر، وأسسها سيدى أحمد التيجانى المدفون بمدينة فاس، وتتميز هذه الطريقة بتزمتها وشدة مناوأتها للوثنية ومناهضتها للطرق الصوفية الأخرى.

- ديشان، هوبير: المرجع السابق، ص ١٣٥.

- عبد الرحمن زكى: المرجع السابق، ص ١١٣.

- محمد خير فارس: المسألة المغربية. ص ٢٩.

(٤) يوفر، ج: المرجع السابق، ص ٥٨٣

(٥) Kirk – Greene , A. H. M.: op. cit,. p. 297

وذلك أن الكانمى أعاد تنظيم الأساليب المالية ليجعلها متفقة مع الشريعة الإسلامية. وتولى رجال الدين مناصب القضاء والتعليم[١].

كما كان الشيخ عمر بن الكانمى، حريصًا هو الآخر على أن يركز على الإسلام بصفته الدين الرسمى للدولة. وفى عهده أصبحت كوكاوة مركزًا للحضارة الإسلامية شأنها فى ذلك شأن برنى قبلها. وبطبيعة الحال كانت السلطة القضائية فى أيدى المسلمين[٢].

٥ – التعليم:

لم تذكر المراجع سوى القليل عن التعليم والثقافة فى برنو. غير أن حكام برنو منذ القرن الحادى عشر كانوا حريصين على التمسك بالدين الإسلامى ونشر الثقافة الإسلامية بين شعوبهم، فكانوا على اتصال دائم بالدول الإسلامية المعاصرة، تأكيدًا لروح الأخوة الإسلامية، وإفادة من الخبرات الثقافية والعلمية[٣].

فكانت هناك اتصالات فكرية بعيدة المدى بين برنو وغيرها من البلاد الإسلامية وخاصة مصر، فالطلاب من برنو عبروا الصحارى إلى الأزهر، حيث درس الكثيرون منهم على أيدى مشاهير العلماء المصريين آنذاك. وزاد عددهم زيادة كبيرة، حتى كان لهم رواق بالأزهر يجمعهم هو رواق برنو. وليس من شك فى أن هؤلاء الدارسين كانوا يعودون إلى بلادهم لينشروا ما تعلموا بين أبناء وطنهم[٤].

ومن أمثلة ذلك أن الشيخ محمد الأمين الكانمى نفسه كان رجل علم ودين. جاب معظم الأمصار الإسلامية، وتعلم على يد المشاهير من علمائها.

---

(١) Trimingham, J.S.: A History of Islam in West Africa, p. 211

(٢) Kirk – Greene , A. H. M.: op. cit,. p. 297

(٣) حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية فى أفريقية. ج١، ص ٢٣٤.

(٤) أحمد شلبى: موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية. ج٦، ص ٢٩٧ – ٢٩٨.

وعندما عاد إلى بلاده، حرص على نشر التعليم بين أبناء جلدته. وذاع صيته لعلمه وتقواه، فكثر تلاميذه ومريدوه. وكان إخلاصه فى تعليم شعبه سببًا فى التفافه حوله[1].

عمل شيوخ الأسرة الكانمية على جذب العلماء والفقهاء، وشجعوهم وأسندوا إليهم إلى جانب قيامهم بالتعليم، مناصب القضاء[2].

وبرنو كجزء من غرب أفريقية، غلب على ثقافتها منذ القرن الحادى عشر طابع المذهب المالكى، وكانت كلها تقريبًا تدور حول فقه مالك والعلوم المساعدة الأخرى. فكان العلماء مالكيين فى حياتهم وتقاليدهم وإنتاجهم وتآليفهم وتدريسهم. ونفس المناهج والكتب المتداولة هى المناهج والكتب المالكية المغربية، وهى: كتب القاضى عياض، وكتب سحنون وشروح ابن القاسم وخليل المغيلى والونشريشى، وموطأ مالك، والمدونة والخزرجية، وتحفة الحكام والعباد[3].

وهكذا كان الإسلام شأنه فى بقية بلاد السودان عاملاً من عوامل التحضر فى برنو. كما رفع مستوى البرنويين عمن جاورهم من شعوب[4].

وفى سنة ١٩٠٢ أعلنت بريطانيا حمايتها على برنو وحكمتها حكمًا غير مباشر ومع ذلك اهتمت بنشر التعليم الغربى فى برنو. ولكنه لم يكن محبوبًا لدى البرنويين، وذلك بسبب رسوخ التعليم الإسلامى بينهم، علاوة على أنهم كانوا يرتابون فى المدارس الحكومية التى كانت تشرف عليها السلطات البريطانية، وساورهم قلق مؤداه أنها تعمل على الدعوة إلى الدين المسيحى لذلك لم يلتحق بها سوى نفر قليل من أهل برنو[5].

---

(١) Hogben, S.J.: The muhammadan emairates of Nigeria, pp. 191 - 192

(٢) Trimingham, J.S.: A history of islam in West Africa, p. - 211

(٣) حسن أحمد محمود: انتشار الإسلام والثقافة العربية فى أفريقية. ج١، ص ٢٤١ – ٢٤٢.

- دور العرب فى نشر الحضارة فى غرب أفريقية. المجلة التاريخية المصرية، مج١٤، سنة ١٩٦٨، ص ٨١.

(٤) يوفر، ج: المرجع السابق، ص ٥٨٣

(٥) Hubbard, J. P.: African attitudes to Western education in Northern Nigeria, The fifteenth annual of the African studies association, Nov. 1972, pp. 1 – 2.

وقد حاول البريطانيون تدريس المناهج الدراسية فى هذه المدارس باللغة الإنجليزية. لكن محاولتهم قوبلت بالرفض من جانب أهل برنو، لاعتقادهم بأن ارتباط اللغة الإنجليزية بالمسيحية مماثلاً لارتباط العربية بالإسلام. لذلك اضطر البريطانيون استخدام اللغة الهوسوية كوسيلة من وسائل نقل المعرفة والتعليم بمدارس برنو التى يشرفون عليها لسهولتها. غير أنهم اضطروا أمام رفض السكان أيضًا لهذه اللغة إلى استخدام لغة برنو الرسمية فى المدارس وهى اللغة الكنورية(١).

وكانت هناك هذه عقبة سياسية أمام نشر التعليم الغربى فى برنو، وهى اقتران هذه المدارس بالفاتح الأجنبى بوصفها من ابتكاره، فقوبلت بالعداء. وغالبًا ما كانت الاتهامات توجه للطلاب والمدرسين البرنويين الذين يلتحقون بها بأنهم أصبحوا خدمًا للرجل الأبيض(٢).

كما كانت هناك عقبة اقتصادية أمام انتشار التعليم الغربى فى برنو. وهى أنه باهظ التكاليف، علاوة على أنه شغل الطلاب عن مزاولة الأعمال التى كانت تدر عليهم دخولاً تساعدهم على مواجهة تكاليف المعيشة. غير أن تطبيق البريطانيين لبعض القيود لاستخدام المؤهلات التعليمية – التى تمنحها المدارس التى يشرفون عليها – كشرط للتوظف، دفع أهل برنو إلى إرسال أبنائهم إلى المدارس البريطانية. ورغم ذلك ظلت قواعد التعليم الدينى راسخه فى نفوس البرنويين(٣).

وعلى الرغم من محاولة البريطانيين إدراج دراسات الدين الإسلامى ضمن المنهج الدراسى لمدارسهم، واستعدادهم فى بعض الأحيان لاحتواء المدارس الإسلامية فى إطار نظامهم التعليمى. ظل طالبوا العلم من المسلمين خصومًا ونقادًا يتصدون للمدارس البريطانية حتى بعد استقلال برنو(٤).

---

(١) Ibid., pp. 2 - 3

(٢) Ibid., pp. 2 - 4

(٣) Hubbard, J. P. op. cit., pp. 5 - 6

(٤) Ibid., p. 3

٦ – العادات والتقاليد:

(أ) الزواج:

تتزوج البنات فى برنو حوالى الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة، كما هو المعتاد فى المجتمعات الشرقية. ولا يعتقد الأهالى فى ظاهرة التوائم. فيذكر دنهام أنه "تندر ولادة التوائم فى برنو، ولذلك كان من الصعب إقناع الناس هناك بأن ذلك يحدث فى مناطق أخرى من العالم"[١].

ويؤكد الرحالة أن نساء برنو نظيفات، ويتميزن بالفم الواسع والشفاه الغليظة والجباه العالية. ويعرفن الكحل ويستخدمنه بإسراف. ولا تقترب النساء من الرجال إلا جاثيات على الركب احترامًا للرجل. ولا يتكلمن إلا من وراء حجاب[٢].

وعندما يعتزم الشاب الكنورى أن يتزوج من فتاة، فعليه أن يتقدم مباشرة إلى أهلها. وبعد الموافقة عليه يقوم بدفع مبلغ نقدى أو عينى كمهر للعروس[٣].

ولكن الأمر يختلف بين قبائل الجنوب والغرب الوثنيين. فعندما يرغب الشباب فى الزواج عليه أن يتقدم لخطبة العروس عن طريق وساطة صديق من أصدقائه. فإذا ما حظى بالقبول، فإنه يضع حملاً من الأخشاب أمام كوخ العروس وحملاً أمام كوخ والدها. وتشفع هذه الهدية التمهيدية بهدية أخرى قوامها اثنان من الماعز للوالد ثم ثلاث هدايا متوالية من الأخشاب للوالدة (تبلغ الهدية الأولى منها سبعة أحمال والثانية خمسة أحمال والثالثة ثلاثة أحمال)[٤].

وبعد ذلك تقيم أم العروس احتفالا يدعى إليه العريس ولفيف من أصدقائه. وفى هذه المرحلة تسلم الأم ابنتها للعريس لتكون له خليلة لفترة تبلغ سنتين أو ثلاث. وفى غضون تلك الفترة يكون هناك اتصال جنسى بين العروسين، فإذا

---

(١) Denham, D.& Clapperton, H.: op. cit., p 318

(٢) Meek, C. K: Tribal studies in northern Nigeria, Vol. 1. PP. 230 - 231

(٣) Ibid., p. 231

(٤) Ibid., PP. 231- 232

حملت العروس طفلاً أثناءها يكون لأسرة الأم حق فى هذا الطفل الذى يولد على هذا النحو وفى ختام الزواج التجريبى الذى يبلغ مداه سنتين أو ثلاثًا على النحو المذكور يدفع العريس مهر العروس وهو عبارة عن عدد من الماعز والحمير والأغنام يتراوح بين خمسة وثمانية. وبعد ذلك يقام احتفال فى منزل العروس وتؤخذ برفقة صديقاتها إلى مسكن العريس حيث تذبح الشاه وتسكب دماؤها على الأعتاب، كفأل يبشر باستمرار الحياة الزوجية(١).

ومركز المرأة عند الكنورى يفضل مركزها عند معظم القبائل الأخرى. والفتاة الكنورية تتمتع بحرية كبيرة، ولا ترغم على العمل بالزراعة عندما تتزوج لتتفرغ لأمور منزلها(٢). ويندر أن يتجاوز عدد الزوجات إثنتين أو ثلاثًا فى حوزة الرجل. ويكتفى الفقراء منهم بزوجة واحدة(٣).

ولقد كان قوام حريم الشيخ تيراب وزير الشيخ عمر بن محمد الكانمى يتراوح بين ثلاثمائة وأربعمائة من الجوارى. وقد جمع هذا العدد من النساء ليظل على علاقة طيبة بجميع قبائل برنو ليضمن مؤازراتهم له(٤).

وقد جرى العرف بين قبائل جنوب وغرب برنو، أنه إذا، كانت الزوجة مشاغبة يمكن معالجتها باللجوء إلى والدها، الذى يتولى إذا ما دعت الضرورة تأديبها بنفسه بالضرب أو يسمح للزوج أن يوقع العقوبة عليها بنفسه. ولكن إذا استمر الزوج فى إساءة معاملة زوجته، يؤدى ذلك بدوره إلى تدخل والدها وإخوتها الذين يحق لهم – إذا دعت الحاجة – أن يأخذوها ويعيدون للزوج جزءًا من المهر أو كل المهر الذى دفعه طبقًا لظروف الحالة وملابساتها(٥).

---

(١) Meek, C. K: Tribal studies in northern Nigeria, Vol. 1. P. 232

(٢) يوفر، ج: المرجع السابق، ص ٥٨٣

(٣) Denham, D.& Clapperton, H.: op. cit., p.318

(٤) Kirk – Greene , A. H. M.: op. cit, 295

(٥) Meek, C. K: Tribal studiesin northern Nigeria, Vol. I. P. 231

وعلى العموم فالخيانة الزوجية نادرة فى برنو، وتطبق أحكام الشريعة الإسلامية على مرتكبيها – مع اختلاف بسيط، بأن يطرح المذنبان مقيدة أيديهم وأرجلهم – أرضًا لتوقيع العقوبة عليهما بمعرفة الزوج المخدوع وأقاربه، الذين يستخدمون العصى – بدلاً من الرجم بالطوب – ولا يتركونهما حتى يسلموهما للموت(١).

(ب) مظاهر الاحتفال بالأعياد والمواسم:

كانت الحياة فى برنوتسير سيرًا عاديًا ما عدا المناسبات كعيد الفطر وعيد الأضحى ومولد الرسولﷺ، فقد كان الشعب والبلاط يحتفلون بها على نحو رائع(٢).

ومن مظاهر هذه الاحتفالات أن شيخ برنو كان يخرج بمصاحبة قوات كبيرة من الفرسان ليؤدى الصلاة فى المسجد. ويقام احتفال كبير بهذه المناسبة فى رحبة واسعة خارج كوكاوة، تشترك فيه قوات الجيش، فتتوافد مواكب الفرسان من مختلف الجهات فى أفضل ملابسهم، وعلى رأس كل منها ضابط وتتحرك نحو البوابة الشمالية للعاصمة، بينما تتوافد قوات الشيخ يترأسها عدد من الفرسان، يليها الخدم بالزى الرسمى، وخلفهم الشيخ على صهوة جواده مرتديًا جلبابًا أبيض كرمز لشخصيته الدينية. ويتقدمه أربعة من الجياد المعدة للقتال والمغطاة بقماش من الحرير. وتتحرك هذه القوات فى نظام يتقدمها ضابط خلفه أربعة من حاملى المراوح للترويح على الشيخ(٣).

وفى النهاية يلحق موكب الشيخ بالقوات الأخرى فى مكان يبعد قرابة ميل عن العاصمة. وهناك توجد خيمة الشيخ الكبيرة حيث يؤدى هو ووزيره ورجال

---

(١) Denham, D.& Clapperton, H.: op. cit., pp 318- 319

(٢) Trimingham, J.S.: The Infleunce of islam in upon Africa, p. 66

(٣) Kirk – Greene , A. H. M.: op. cit, pp. 205 - 207

بلاطه صلواتهم. ولا تستمر هذه المراسم أكثر من ساعتين وبعدها يصدر قائد الجيش أوامره للجميع بالتحرك. وتبدأ جموع الشعب بالتوجه إلى العاصمة التى يدخلونها من البوابة الغربية(١).

وفى داخل العاصمة كان أبناء الجزارين يمتطون الثيران المسمنة لهذه المناسبات ويجوبون بها الشوارع، ويشارك الناس فى هذه الاحتفالات بارتداء أفضل ثيابهم(٢).

وقد جرى العرف العـــام أن يمنح الخدم قمصانًا جديدة فى هذه المناسبات الدينية(٣).

ومن الملاحظ أن هذه الأعياد، كان يحتفى بها فى كثير من الأبهة والتهليل. ويبدو أن أهل برنو قد نقلوا مظاهر هذه الاحتفالات عن المصريين(٤).

وتحتفل قبائل جنوب برنو الوثنية فى شهر سبتمبر من كل عام بانتهاء السنة القديمة وبداية العام الجديد، حيث يبدأ العام عندهم ببداية موسم الزراعـــة الجديـــد , ويتم هذا الاحتفال فى ختام موسم الزراعة ويعرف باسم ساكو (Sauku) . ويحمـــل رئيس كل قطاع فى يديه حزمة من القش ويشعل طرفها بالنار . ويقـــود فرســـان القوم خيولهم إلى رئيس القطاع الذى يلمس جبهة كل جواد بالحزمـــة المـــشتعلة , ويدعون للجميع بالسلام فى العام الجديد . أما أولئـــك الـــذين لا يملكـــون جيـــادًا فيمررون القش الملتهب حول رؤوسهم ثلاث مرات وهم يرددون تلك الأمنية(٥).

ويمتطى الفرسان بعد ذلك جيادهم , وينقسمون إلى تشكيلين يلتحمـــان فـــى معركة وهمية ويتكرر استعراض الجياد فى اليوم التالى. وبهذا يختـــتم الاحتفـــال,

---

(١) Kirk – Greene , A. H. M.: op. cit, 207
(٢) Ibid., p. 204
(٣) Ibid
(٤) لين، إدوارد وليم: المصريون المحدثون؛ شمائلهم وعاداتهم. ترجمة عدلى طاهر نور، ص ٣٢٦، ٣٥٧،٣٦٥
(٥) Meek, C.K : Tribal studies in northern Nigeria, 2, pp. 365-367.

وتترك الجياد فى المـــراعى ولا تقيد فـــى الأكـــواخ كمــا كانت فـــى غـــضون موسم الزراعة [١].

وهناك أيضًا العديد من المهرجانات الأخرى التى تقام فى موســم الزراعـــة والحصاد . فلا يجوز لأى فرد أن يحصد ما فى مزرعته قبـــل أن يقـــوم الكـــاهن بحصد جزء من مزرعته الرئيسى . وبعد ذلك فى موسم الزراعة يسلم رئيس كـــل قطاع إلى الكاهن بعضًا من البذور لينثرها على مزرعته , وبعد ذلك يسمح للجميع أن يبذروا بذورهم [٢].

(ج) تقاليد الضيافة والكرم :

يتضح من حديث الرحالة الذين زاروا المنطقة – خلال القرن التاســع عـــشر – كرم الضيافة فى برنو . ويبدو أن التجار العرب قد نقلوا معهم التقاليد العربية فـــى الكرم. فلما وصلت البعثة الإنجليزية بقيادة دنهام إلى برنو, قدموا لها هـــدايا مـــن الثيران, وأحمال البعير من القمح والأرز وقرب السمن وأباريق العسل وأقـــراص عسل النحل[٣].

وكانو يرسلون لأفراد البعثة فى الصباح والمساء خمسة أو ستة أوان خشبية مملوءة بالأرز واللحوم والعجائن من دقيق الشعير. كما ألقوا أمام أكواخ البعثة فـــى اليوم التالى لوصولها حمل بعير من أسماك الشبوط. وخوفًا من أن يكون هذا القدر غير كاف لمتطلبات البعثة شفع بحمل آخر فى المساء. وكـــان بوخللـــوم[٤] أكثـــر مستقبلى الهدايا حظًا, إذ تلقى جاريتين جميلتين من السودان, وكان لونهمـــا داكنًـــا وسنهما دون العشرين, يرافقهما زنجيان آخران للقيام على خدمتهن[٥].

---

(١) Ibid., p. 234.

(٢) Ibid.

(٣) Bovill, E.W. : op.cit.,p. %.

(٤) رجل من طرابلس, أرسله يوسف قره مانى باشا ليرافق البعثة الإنجليزية فى رحلتها لبرنو.

- Denham, D. & Clapperton, : op.cit., p. 73.

(٥) Ibid

وفى عهد الشيخ عمر بن الكانمى زار الرحالة الإنجليزى بارت برنو عام ١٨٥١. وخلال إقامته بها قوبل بالترحيب والحفاوة وكرم الضيافة من جانب الشيخ عمر ووزيره(١).

وإذا كان أهل برنو يكرمون الغرباء الوافدين إلى بلادهم . فليس هناك من شك فى أنهم كانو كرماء مع بعضهم البعض, يرحبون بإخوانهم البرنويين الذين يفدون لزيارة مدينة غير مدينتهم(٢).

(د) التسلية :

تمثلت تسلية الأهالى فى التجمع معًا فى الأمسيات, سواء فى فناء أحد المنازل الكبيرة أو فى ظلال حصير فى أماكن خلوية وسط المدن حيث تقام الصلاة. ثم يتجمعون بعد الصلاة يتكلمون أو يلعبون (السيجا)(٣)؛ وهى لعبة تشبه الشطرنج ويستخدمون فيها حبات الفول(٤).

وبطبيعة الحال فإن مكانًا يزخر بالعمل كالسوق, كان غالبًا ما تقدم فيه وسائل التسلية والترويح, فيعرض مروضو الأفاعى (Kadima) ألعابهم, ويقص المداحون (Kosgolma) قصصهم المسلية(٥).

(هـ) زيارة السلطان :

كان لزامًا على البعثات الأجنبية التى تزور برنو, أن تقدم فروض الولاء والاحترام لسلطان برنو الذى كان يعيش فى برنى (Birni) المدينة المجاورة لكوكة

---

(١) Kirk-Greene, A.H.m : op.cit, p. 147

(٢) Denham, D. & Clapperton,H : op.cit., pp. 73-74

(٣) السيجا لعبة شائعة بين المصريين من قديم الزمن وحتى يومنا هذا , وإن كان المصريون يستخدمون الحصى, ويبدو أن أهل برنو نقلوا عن المصريين الكثيرين من ألعابهم ووسائل تسليتهم .
- لين, ادوارد وليم. المرجع السابق, ص٨٥ .

(٤) Denham, D & clapperton, H. : op.cit., p. 324-325.

(٥) Kirk-Greene, A.H.M. : op.cit., P. 160.

(٦) Bovill, E.W. : op.cit., P. 96

العاصمة. مثال ذلك, عندما وصلت البعثة الإنجليزية بقيادة دنهام إلى برنو عام ١٨٢٣, وكان السلطان آنذاك هو إبراهيم ليفيامى. فاستقبلهم رجال السلطان فى مكان مفتوح أمام القصر الملكى, ثم أوقفوهم على بعد مسافة كبيرة. بينهما كان رجال السلطان يقربون إلى نحو مائة ياردة, وكانوا يمرون أولاً على ظهور الجياد ثم يترجلون وينبطحون أمام السلطان. وبعد ذلك يتخذون أماكنهم على الأرض فى المقدمة, على أن تكون ظهورهم فى مواجهة الشخصية الملكية[١] .

وكان السلطان يجلس فى قفص[٢] من الغاب. وينظر إلى الحشد الماثل أمامه؛ الذى يكون نصف دائرة تمتد من مقعده إلى حيث تقف البعثة الإنجليزية[٣] .

ويقدم لنا دنهام وصفًا واضحًا لهذا المشهد فيقول " لقد تجسدت هنا كل مظاهر الأبهة والفخامة دون أدنى ذرة أو مثقال خردلة من سلطة أساسية أو سطوة تتطلب كل هذه المظاهر, فهو يحكم البلاد عن طريق الشيخ (الكانمى) الذى يحمل السلطان على الانغماس فى كل أنواع الحماقات والتعصب الأعمى. فإن ذوى البطون المنتفخة والرؤوس الكبيرة, لم يكن يستغنى عنهم للانتفاع بخدماتهم فى بلاط السلطان.

---

(١) انظر الصورة المدرجة على الصفحة ١٥٦ .

(٢) Denham, D. & Clapperton, H. : op.cit.. P. 77.

(٣) Ibid .



سلطان برنو

Denham, D.& Clapperton, H. : op.cit., Facing. P. 79.

"إن الثمانية أو العشرة أو الإثنى عشر ثوبًا المختلفة الألوان التى كان يرتديها المرء كل منها فوق الآخر تساعد إلى حد ما فى إظهار عظمة شخصيته.

أما الرأس فيلف فى طيات من قماش الموسيلينى أو التيل فى ألوان مختلفة معظمها أبيض, لكى يمكن تغيير معالم تلك الرأس بقدر المستطاع. وبالإضافة إلى ذلك كان الجميع مولعين بالتعاويذ والتمائم والأحجبة السحرية يضعونها فى أربطة جلدية صغيرة حمراء . كما أن الجياد قد نالت قسطها من تلك التعاويذ والتمائم, يعلقونها فوق عنق الحصان وفى مقدمة رأسه أو على جبهته وحول السرج " [(١)] .

ولقد كانت عمامة السلطان أكبر من أى عمامة من عمائم رعاياه, وكان وجهه مقنعًا ابتداء من الأنف فما تحته. وكان يقف أمامه رجل يلهج بعبارات الثناء على سيده وشجرة العائلة التى هبط منها. وعلى مقربة منه كان آخر يحمل النرجيلة الخشبية الطويلة (Frum Frum)، التى كان السلطان يسحب منها بين وقت وآخر بعض الأنفاس العالية التى لا تتسم بأية لمسة موسيقية على الإطلاق. ولا شئ يمكن أن يكون أكثر سخرية ومدعاة للضحك, من منظر أناس قابعين جالسين القرفصاء فى أماكنهم, يترنحون تحت ثقل وعظم عمائمهم وانتفاخ بطونهم، بينما سيقانهم التى تظهر من تحت على درجة كبيرة من النحافة لاتتناسب مع حجم بقية أعضائهم الأخرى"[(٢)] .

وقد اختفى القفص الخشبى الذى كان السلطان يلتقى من خلاله بجماهيره مع انتهاء حكم الأسرة السيفية عام ١٨٤٦ . كما اختفت أيضًا عادة ارتداء رجال البلاط عددًا يفوق الحدود من القمصان والعمائم الضخمة, فى محاولة منهم لجعل أحجامهم الجسمانية تتناسب مع مراكزهم الاجتماعية[(٣)] .

---

(١) Ibid ., PP. 77-78.

(٢) Denham, D. & Clapperton, H. : op.cit., PP.78-79.

(٣) Brenner, L. : The shehus of Kukawa, p. 69.

ثانيًا – الحالة الاقتصادية:

١- الزراعة:

الزراعة هى الحرفة السائدة فى برنو والتى يعمل بها جميع القبائل فى المقام الأول[١]. وقد استخدم الأهالى الشادوف فى رى الأرض الزراعية, وبه ترفع المياه من المجارى المائية والقنوات أو الآبار بواسطة دلو فى مؤخرة عامود يثبت علـــى عرق خشبى على نحو تقاطعى. وعلى الطرف الآخر من العامود توضع كتلة مـــن الطين الجاف, ولرفع مياه المجرى ينغمس الدلو باليد فى ذلك المجـــرى, وتـــساعد كتلة الطين الجافة على رفع الدلو بعد ملئه على نحوٍ آلى. ويوزع الماء بعـــد ذلـــك على المزرعة بواسطة قنوات مستطيلة[٢] .

ولم تكن ملكية الفلاح للأرض ملكية مطلقة حيث لم يكن بمقدوره التـــصرف فيها, فقد كانت ملكًا لشيخ برنو. وكان للفلاح فيها حق المنفعـــة فقـــط أى التمتـــع بإنتاجها من المحاصيل الزراعية والفواكه بعد دفع الضرائب. وفى أعقـــاب مـــوت المزارع كانت الأرض تؤول إلى نسله لزراعتها[٣] .

وقـــد خضع الفـــلاح لأنـــواع مختلفة من الضرائب: منها ضريبة الـــصداق أو الصدقة, وكانت تقدر بما يساوى عُشر المحصول الزراعى للفلاح, وضـــريبتى التولورام (Toloram) والكاساسيرام (Kassasseram) وهى من الضرائب التى تدفع وقت زراعة الأرض، ثم ضريبة التامبلام (Tambelam) التى كان يدفعها الكويـــام من أجل شراء بعير لحمل طبول الشيخ, وهى ضريبة محصولية مقـــدارها اثنـــى عشر صاعًا من الحبوب [٤].

---

(١) Kir-Greene, A.H.M. : op.cit., P. 160.

(٢) Meek, C. k. : the northern tribes of Nigeria, Vol. PP. 128-129.

(٣) انظر الفصل الرابع, ص ١١٤ .

(٤) انظر الفصل الرابع, ص ١١٢ .

وكانت فى برنو فى عهد الأسرة الكانمية أنواع عديدة من المحاصيل الزراعية, وهى القطن والقمح والشعير والذرة والأرز والنيلة والبصل والطماطم. وهذه المحاصيل ذات قيمة كبيرة للمدن الكبرى أثناء موسم الجفاف. وعرف الأهالى غلة الجُسبّ (Gussub) وهى من الغلال التى تعطى الدقيق, وكانت غذاء للإنسان والحيوان. كما كانوا يزرعون أربعة أنواع من الفول فى مساحات واسعة[١].

واعتاد أهل برنو حفظ فائض الغلال فى صوامع أعدت لهذا الغرض, مما يساعدهم على مواجهة فترات الجفاف وهلاك المحاصيل. وهذه الصوامع عادة تكون جوفية وتأخذ شكل عمود اسطوانى على عمق مترين أو ثلاثة, بينما تبطن من الداخل بحصائر, وتترك مساحة بين الحصائر وبين جوانب العمود. وتملأ تلك المساحة بالتبن كنوع من الصيانة ضد الحشرات[٢].

وتوضع الغلال فى هذه الصوامع بعد تذريتها. وتغطى بعد ذلك بطبقة من التبن وتسد فوهة الصومعة بكرة من الأعشاب. وفى نهاية المطاف يهال التراب فوق هذه الأعشاب. والغلال والحبوب التى يتم تخزينها فى مثل هذه الصوامع الجوفية تظل على حالتها للعديد من السنين[٣] .

وتنتشر فى برنو زراعة الفاكهة والخضراوات على نطاق واسع. فتزرع أشجار المانجو غرب جبال مندرة. وحول المدن الكبيرة تزرع أشجار الليمون والتين والرمان, وذلك لسد احتياجاتها من هذه الفواكه من جهة ولتزيينها من جهة أخرى[٤]. كما تزرع حول المدن أيضًا الخضراوات المختلفة ومن أشهرها الفاصوليا[٥].

---

(١) -Denham, D. & Clapperton, H. : op.cit., P. 317.
-Kir-Greene, A.H.M. : op.cit., P. 102.

(٢) Meek, C. K: Tribal studies in northern Nigeria, Vol. 2. P. 228.

(٣) Ibid.

(٤) يوفر. ج. : المرجع السابق, ص ٥٧٨.

(٥) Kirk-Greene, A.H.M. : op.cit., P. 163

وتكثر الأشجار وتتنوع فى برنو, فتوجد أشجار الدوم والتمر هندى والزبدة. وتتجمع هذه الأشجار ولكنها لا تتكثف بحيث تكون غابات, فلا وجود للغابـات إلا فى الجزء الجنوبى من برنو(١).

ويستخدم الفلاح البرنوى الفأس الصغيرة فى الزراعة الخفيفة. كما استخدم المعزقة اليدوية التى تعرف باسم (Fatainya), ويبلغ طول عمودها حوالى قدم ونصف قدم ويكون نصلها على زاوية قائمة ويبلغ عرضه من خمس بوصات إلى عشر(٢) .

وللأعمال الثقيلة استخدم الفلاح معاول كبيرة ذات أشكال وأحجـام مختلفـة عرفت باسم جالاما (Galama). وحيث إن التربة رملية, فقد استخدم بكثرة المعـول ذا الذراع الطويلة والمعروف باسـم (Hauya). ويـستخدم أهـل برنـو المناجـل والسكاكين الكبيرة عند الحصاد وجمع المحاصيل(٣).

وعرف أهل برنو الأسمدة, فالأراضى البكر يتم تسميدها بتراب الخشب من الأشجار, وذلك بعد قطعها وحرقها. وحيث إن الأراضى تكون خصبة بوجه عـام, فلا يلجأ الفلاحون إلى الأراضى البكر إلا بعد استنفاد طاقة الأراضى القديمة(٤).

ويعتبر روث البقر المخلوط بالأتربة من أفضل الأسـمدة المـستخدمة فـى برنو. كما أن الأغنام والماعز تعتبر ذات فائدة كبيرة أيضًا فى تـسميد المـزارع الصغيرة التى تقع على حدود القرى(٥).

وتعتبر الماشية والأغنام والماعز من مصادر الثروة الهامـة فـى برنـو. والأغنام والماعز صغيرة الحجم, ولكن الرعاة من العرب يمتلكـونَ أغنامًـا ذات أحجام كبيرة تحرسها الكلاب(٦).

---

(١) Meek, C. k. : the northern tribes of Nigeria, Vol. 1, P. 119

(٢) Denham, D. & Clapperton, H. : op.cit., P. 318.

(٣) Meek, C. k. : the northern tribes of Nigeria, Vol. 1, PP. 125-127.

(٤) Ibid., P. 127 - 128.

(٥) Ibid., P. 128.

(٦) Ibid., P. 128.

ويــوجد الكثير مــن قطعان الثيران فى برنو. ويمتلك الــشوة أكثــر مــن عشرين ألف رأس متفرقة فى مختلف القرى البرنوية[١].

ويستخدم أهل برنو الثيران الكبيرة لحمل المتــاع ونقلــه, وتوضــع علــى ظهورها أعشاب مجدولة لحمايتها[٢] .

كما تربى الخيول والإبل إلى جانب الأغنام والماعز والثيران والخيول الأكثر انتشارًا فى برنو من سلالة باربارى (Barbary)[٣]. ويمكن تمييزها دائمًا بوجود نتوء يحمل خصلة شعر فى مؤخرة قائمة الفرس[٤]. وكان عرب الشوة يربون أعدادًا وفيرة من الخيول يزودون بها السوق السودانية[٥].

وفى مناطق الزراعة يربى الأهالى البغال التى يستخدمونها فى أداء الأعمال الزراعية فضلاً عن استخدامها فى الركوب[٦]. وفضلاً عن ذلك يوجد فى برنو أعداد وفيرة من الدجاج والأوز والبط والبجع وأبى منقار[٧].

٢ – الصناعة:

تعتبر صناعة الغزل والنسيج من الصناعات الشائعة فى برنو والتى اشترك فيها الرجال والنساء معًا. وفى زمن الشيخ عمر بن محمد الكانمى أصبحت دكوة – التى اشتهرت بزراعة القطن – تتمتع بنشاط صناعى كبير تمثل أساسًا فى صناعة نسج القطن[٨].

---

(١) Denham. D. & Clapperton, H. : op.cit., P. 319
(٢) Church, R. J. H.: West Africa, 7 th ed., p. 133
(٣) Meek, C. K: The northern tribes of Nigeria, Vol. I. P. 119
(٤) Denham, D.& Clapperton, H.: op. cit., p 319
(٥) Ibid., p. 119
(٦) Ibid.
(٧) Kirk – Greene , A. H. M.: op. cit., 162

ويقوم الغزالون بفصل ألياف القطن عن البذور بلفها بين حجر مستو وقضيب حديدى مستدير. ويمشطون القطن بعد ذلك بالأصابع ويتم تحويله إلى طبقة رفيعة بواسطة قوس يعرف باسم (Bakemshiba). ويلف القطن على وتر القوس، ثم يلف بعد ذلك حول إبرة تسمى (Tsinki). ويغزل من تلك الإبرة على مغزل، ولتسهيل عملية الغزل توضع على الأصابع مادة طباشيرية. والخيوط التى يتم غزلها من نوعين: أحدهما: يسمى زارى (Zare) وتكون أليافه قوية ويستخدم فى القاعدة أو الأساس، والآخر يسمى أباوا (Abawa) وهو خيط سميك لين يستخدم فى النسيج، وقد تترك الخيوط بلونها الأبيض أو تصبغ بصبغة النيلة عدة ألوان. وتمشط الألياف بعد ذلك وتغزل فى نهاية المكان على مغزل[١].

والأنوال نوعان: أحدهما أفقى ضيق أو عريض يعمل عليه الرجال، كما تعمل عليه النساء أحياناً، وهو عبارة عن نول مزدوج الأمشاط (Heddes)، ويتم تشغيلها بواسطة دواسات من العصى. وتكون الخيوط من ذات الطول المحدود ويتم تثبيتها بربطها إلى شجرة. وتتكون الأمشاط (Heedes) من قضيبين من الصلب يتصلان بسلسلة من العراوى تمر من خلال كل منها مجموعة من خيوط النسيج. وتجرى هذه الخيوط على عارضة خشبية خلال الأمشاط حتى تصل إلى العارضة الخشبية الأمامية التى يجلس النساج وراءها، ويعلق المشط بواسطة خيط من الدوبارة يمر من خلال بكرة يثبت على الجدران فوق رأس النساج مباشرة. ويدار المكوك باليد، ويلف القماش المنسوج على عصا تكون عند ركبتى النساج. وللحفاظ على هذه العصا فى موضعها يثبت بالأرض من طرفيها بواسطة قطعتين من الخشب. ويختلف القماش المنسوج من بوصتين إلى ثلاثة أقدام. والنساج الذى يعمل فى نسج قماش يبلغ عرض ستة بوصات يواصل العمل من ثلاثة إلى أربعة أيام لإتمام لباس المرأة. وتتم النقوش على القماش بإدخال خيوط من اللون المطلوب على خيوط الغزل[٢].

Meek, C. K: The northern tribes of Nigeria, Vol. 1. P. 166 (١)
Meek, C. K: The northern tribes of Nigeria, Vol. 1. PP. 166 - 167 (٢)

أما النوع الآخر، فيعرف بالنول الرأسى الذى تعمل عليه النساء، وله هيكل يساعد على متانتة وصلابته. وتجلس النساجة على الأرض بينما تكون قدماها فى حفرة وليس لهذا النول دواسات(١).

ولكن على الرغم من أن الصناع فى دكوة، كانوا قادرين على إنتاج نوع جديد من المنسوجات القطنية، إلا أنهم لا يجيدون الصباغة على الإطلاق، الأمر الذى جعل مدينة مكرى تتفوق عليهم فى هذا الصدد بدرجة كبيرة. وشاركتها فى ذلك مدينة كوكاوة، حيث كان يوجد بها مصبغة كبيرة(٢).

وإلى جانب صناعة نسج القطن، ازدهرت فى برنو أيضًا صناعة الحصير. وتجدل الحصر من الحشائش وسعف النخل ومن البوص الذى يربط ببعضه بأعوام القمح. وتستخدم هذه الأعواد بعد قطعها بالطول المطلوب وتنقع فى الماء أو تجدل مع بعضها البعض فى بعض الألياف. ومن أكثر الحصائر المعمرة تلك المصنوعة من أوراق أشجار الدوم(٣).

وأما الثروة المعدنية، فكانت قليلة فى برنو، ويستخرج أهلها الحديد من جبال مندرة، ولكن بكميات قليلة(٤).

كما استخرج الأهالى الملح والنطرون من الآبار وقاع البحيرات الضحلة الموجودة شمال برنو. وكان يتم التنقيب عن الملح والنطرون واستخراجه من باطن الأرض فى موسم الجفاف بعد أن تجف البحيرات(٥).

---

(١) Ibid., pp. 167 - 168

(٢) Kirk – Greene , A. H. M.: op. cit, 164 - 216

(٣) Meek, C. K: The northern tribes of Nigeria, Vol. I. PP. 168 - 169

(٤) Denham, D.& Clapperton, H.: op. cit., p 325

(٥) Meek, C. K: The Northern tribes of Nigeria, Vol. I. PP. 169 - 170

٣ – التجارة:

(أ) التجارة الداخلية:

كانت التجارة الداخلية فى برنو فى أواخر القرن الثامن عشر محدودة فكل مدينة وما حولها من المناطق الزراعية وحدة اقتصادية تقوم على مبدأ الاكتفاء الذاتى. ولكن فى عهد الأسرة الكانمية نشطت التجارة الداخلية بسبب استقرار الأمن[١].

وكانت المدن مركز التجارة يأتى إليها سكان المناطق المجاورة لبيع سلعهم وشراء ما يحتاجون من سلع أو حيوانات. وكان لكل مدينة يوم معين للسوق مرة كل أسبوع عادة[٢].

وتعتبر كوكاوة أكبر مركز للتجارة فى منطقة بحيرة تشاد، فالقوافل القادمة من طرابلس محملة بالسلع الأوروبية تستبدل بها فى هذه المدينة الجلود وريش النعام والرقيق. ويجتمع فى سوق كوكاوة أحياناً عدد يتراوح بين ١٥,٠٠٠و ٢٠,٠٠٠ نسمة. وتعقد هذه السوق كل يوم اثنين فى فناء واسع خلف القريتين اللتين تقعان على مسافة غير بعيدة من البوابة الغربية[٣].

وكانت سوق كوكاوة منظمة. فأول أجزائها كانت تباع فيه المواد المتنوعة لإقامة المساكن وتأثيثها مثل الحصر وهياكل الأكواخ، ومكان آخر خصص لبيع دواب الحمل ولا سيما الثيران وكذا الجمال والجياد. وكانت جميع العمليات الخاصة ببيع وشراء الجمال والجياد، تتم بواسطة السماسرة الذين يأخذون حصتهم بنسبة معينة من المشترى والبائع. أما المنطقة الوسطى من السوق، فكانت تعج بأناس

---

(١) Kirk – Greene , A. H. M.: op. cit, 158

(٢) Ibid., p159

(٣) Ibid., p. 156

تخصصوا فى تجارة الملابس والقمصان وحبات الخرز والسلع الحديدية. ويلى ذلك المكان الذى يباع فيه الرقيق(١).

وفى هذه السوق الكبيرة لكاكاوة، يتجمع سكان كافة القطاعات الشرقية لبرنو. ويأتى عرب الشوة بالقمح والسمن، كما يحمل أهل كانم السمن والسمك المجفف. أما سكان مكرى فكانوا يتوافدون بالأقمشة(٢).

إن معظم السلع التى تباع فى سوق الاثنين بكوكاوة، يمكن أن توجد أيضًا فى الأسواق اليومية الصغيرة التى تعقد عصر كل يوم فى كوكاوة والمدن الكبرى – ولكن بكميات محدودة فقط، وبأسعار مرتفعة(٣).

وقد استخدم الأهالى الودع لابتياع الأشياء الصغيرة. ولكن لابتياع الأشياء الكبيرة كانت توجد القمصان القطنية من مختلف الأنواع(٤).

ولا شك أن رغبة الشيخ محمد الأمين الكانمى فى تحسين أحوال التعامل بين الناس، تمثلت بوضوح فى محاولة إصداره لثلاثة أنواع من العملة – بمعاونة إنجلترا – نوع من الذهب والآخر من الفضة والثالث من الحديد. حتى يستطيع أن يقدم لشعبه أداة مناسبة للتعامل(٥).

ويتضح من الوثيقة رقم (٤)، ص ٢١٥، بأن الأنواع الثلاثة من العملة كالآتى: الأول من فئة الأثنى عشر درهمًا، وكتب على وجهه (ضرب فى أرض برنوا، بمدينة كوكو عام ١٢٤٠هـ (١٨٢٤م) عبده تعلى محمد الأمين بن محمد الكانمى كان الله له ولطف به)، أما الظهر فكتب عليه (السلطان فلان بن السلطان فلان نصره الله آمين عام ١٢٤٠ هـ، سلطان البرين والبحرين وخادم الحرمين

---

(١) Ibid., pp152 - 153

(٢) Ibid., p 158

(٣) Ibid., p 160

(٤) Ifemesia, C.C: States of The Central Sudan: A Thousand Years of African History: Edited By J. E.AJayi & Others, P. 88.
Denham, D.& Clapperton, H.: op. cit., p 333

(٥) أنظر الملحق رقم (٤)، ص ٢٠٥

الشريفين). أما المتوسط، فهو من فئة ستة دراهم، وكتب على وجهه (١٢٤٠ ضرب فى أرض برنو، بمدينة كوكو)، أما الظهر فكتب عليه (عبده تعلى محمد الأمين بن محمد الكانمى). أما الثالث، وهو من فئة درهم واحد، وكتب على الوجه محمد، وكتب على الظهر الأمين[١].

(ب) التجارة الخارجية:

ازدهرت تجارة برنو الخارجية فى عهد الأسرة الكانمية، بسبب قيام الأسرة بفتح أسواق جديدة للتعامل مع الدول الإسلامية والأوربية. فقد كانت برنو على اتصال دائم مع شمال أفريقية عبر الطريق المار بطرابلس وجبل نفوسة عبر واحات فزان وكوار إلى حوض تشاد[٢]. كما كانت برنو أيضًا على اتصال دائم مع مصر عن طريق النيل عبر السودان[٣].

هكذا اعتبر المؤرخين برنو آنذاك مركزًا للتجارة بين أفريقية الوسطى وأفريقية الشمالية[٤]. وعلى الرغم من مشاكل الحروب التى خاضها الشيخ محمد الأمين الكانمى، لم تغفل الدولة أهمية ازدهار التجارة وأثرها فى تحسين حال شعبها، بدلاً من الاعتماد فى دخلها على غنائم الحروب[٥].

ومن أبرز التجار الذين تعاملوا مع برنو، العرب والمغاربة. وكانوا يلقون معاملة حسنة. وكثير من هؤلاء التجارة عادوا إلى أوطانهم بعد فترة قصيرة محققين ثروات كبيرة[٦].

---

(١) Martin, B. G.

(٢) Martin, B. G.: Kanem, Bornu and the Fezzan, Notes on Political history of trade, journal of African History, vol. X. No. 1, 1959, P. 16

(٣) gautier E. F.: Sahara, the Great Desert, P. 143
Ibid., pp334 - 335

(٤) Denham, D.& Clapperton, H.: op. cit., p 329

(٥) – Kike. K. O.: Trade and politics in Niger Delta 1830 – 1835. p. 14

(٦) Flint, J.E.: Sir George and The Making of Nigeria, p., 170
أنظر الملحق رقم (٤)، ص ٢٠٥.

وفى الفترة ما بين سنتى ١٨٨٢، و١٨٢٤، قام الماجور دنهام بزيارة المنطقة، وبحث إقامة علاقات تجارية بين إنجلترا وبرنو، ولكن الشيخ الكانمى الذى وافق على الفكرة المقترحة بإقامة هذه العلاقة التجارية مع انجلترا كان حريصًا على سلامة برنو ضد أى نفوذ أجنبى، فكان يخشى تغلغل النفوذ الاقتصادى للشركات الأجنبية ما يتبعه من تغلغل للنفوذ السياسى للدولة التى تتبعها هذه الشركات. ولذلك اشترط فى خطابه إلى الملك جورج الرابع ملك إنجلترا – لكى يتسنى لبرنو إقامة علاقة تجارية مع إنجلترا – عددًا قليلاً من التجار مع قدر يسير من البضائع. فقال "إن دولتنا لا تحتمل تجارًا أغنياء يمتلكون ثروات ضخمة، ولكن إذا كان هناك أشخاص ذوو ثروات قليلة، يقومون بأعمال تجارية بسيطة يمكن السماح لهم بذلك – ولا نوافق على أكثر من ذلك"(١).

ولقد حاولت إنجلترا توسيع مجال التجارة بينها وبين برنو فى عهد الشيخ عمر بن الكانمى، الذى نصحه بارت (Barth)(٢) بإقامة حكومة منظمة مع قوة عسكرية ثابتة لإقامة تجارة مشروعة فى المنطقة. ولفت بارت نظر الشيخ عمر إلى أن برنو قد لا تستطيع الاعتماد على طرابلس فى احتياجاتها من السلع، إذ يمكنها قطع السلع الأجنبية عنها إذا ساءت العلاقات بينهما. ومن المفيد لبرنو بدرجة كبيرة أن تجعل نهر بنيوى (Bennue) مفتوحًا أمام التجار الإنجليز وعن طريق هذا النهر يمكن لها أن تحصل على البضائع الأوروبية بأسعار أرخص مما نحصل عليه بواسطة الطريق الشمالى(٣).

---

(١) Flint, J.E.: Sir George and The Making of Nigeria, p., 170

أنظر الملحق رقم (٤)، ص ٢٠٥.

(٢) رحالة ألمانى ولد فى همبورج سنة ١٨٢١. قام برحلات إلى شمال أفريقية سنة ١٨٤٥. وفى سنة ١٨٤٧ كلفته الحكومية البريطانية بزيارة أفريقية والعمل على إقامة علاقات تجارية بينها وبين دول وسط وغرب السودان. وقد عبر القارة من بحيرة تشاد وبجرمى من ناحية الشرق إلى تمبكتو فى الغرب والكاميرون جنوبًا. ومكث فترات طويلة فى إمارات برنو وسوكوتو وجواندو ونيوبى.

Kirk – Greene , A. H. M.: op. cit, pp. 1 – 5.

(٣) - Barth, H: op. cit, Vol. 2, p. 325

والواقع أن الشيخ عمر ووزيره شجعا فكرة قيام علاقات تجارية واسعة بين برنو وإنجلترا بهدف الحصول على الأسلحة النارية التى كانت تحتاجها برنو حتى تستطيع مقاومة أعدائها المتعددين. وتمكن بارت فى نهاية الأمر من عقد اتفاقية تجارية باسم الحكومة البريطانية مع برنو سمح بموجبها بحرية انتقال التجار والبضائع الإنجليزية داخل أراضى برنو[١]. هكذا نجح بارت فيما فشل فيه زميله دنهام من قبل وهو عقد المعاهدة التجارية مع برنو[٢].

وكانت صادرات برنو تتمثل فى الملح والنطرون – الذى كان يستخرج من المنخفضات المنتشرة بالقرب من بلدة منجا – والأوانى الخشبية والملابس والأغنام والماعز والقليل من العسل الأبيض[٣].

أما ما تستورده، فيتمثل فى الأقمشة والسجاجيد والجلاليب، والأدوات النحاسية، وأدوات الصلب والحديد والأسلحة النارية، وأيضًا السلع الكمالية مثل الحرير والقماش المطرز والمجوهرات من الفضة والذهب[٤].

---

(١) Ibid.

(٢) انظر الملحق رقم (٥) ص ٢٠٩.

(٢) Urvoy, Y.: Lhistoire de lempire du Bornou, P. 149

(٣) Briggs, L. C. oP. cit., p.49

الفصل السادس

علاقات برنو الخارجية

تنوعت علاقات برنو الخارجية، وذلك بحكم موقعها ومكانتها فى منطقة تشاد كدولة إسلامية – أولاً تجاه الدول المجاورة من ناحية مثل الفولة وكانم وبجرمى ووادى. وثانيًا تجاه الدول الخارجية من ناحية أخرى مثل طرابلس ومصر والحجاز، وذلك تبعًا لظروف المنطقة ومصلحة برنو القومية.

ولكن بعد سقوط برنو تحت حكم رابح، قطع تلك العلاقات، فلقد مزق رابح العلاقات السياسية التى تبودلت قبل ذلك بين الجماعات والدويلات فى المنطقة بسبب عدائها له، الذى تولد بدافع الخوف منه. كما أن علاقته بمصر والحجاز كانت مقطوعة لأنه كان مطاردًا من الحكومة المصرية[١]. كما أن بريطانيا فشلت فى إقامة أية علاقة معه[٢]. وبعد رابح أصبحت برنو تحت حماية البريطانيين، فانتقلت العلاقات الخارجية إلى أيديهم[٣].

وإليك علاقات برنو الخارجية مع الدول الآتية:

أولاً – الفولة:

فى عصر "عثمان بن فودى" بدأت قبائل الفولة تشن حربًا مقدسة ضد ملوك الهوسا فى الوقت الذى ضعفت فيه برنو، حتى أن سلاطينها أصبحوا غير قادرين على حماية أراضيهم من الهجمات الخارجية، مثل غارات "الطوارق" المستمرة على حدودهم الشمالية وكذلك غارات الفولانى أو الفولة[٤].

---

(١) انظر الفصل الثانى، ص٥٣

(٢) انظر الفصل الثالث، ص٦٩.

(٣) إبراهيم صالح بن يونس: تاريخ الإسلام وحياة العرب فى إمبراطورية كانم – برنو.ص ١٧٠.

(٤) Hallet, R.: El-Kanemi of Bornu; eminet Nigerians of the nineteenth century, p. 66

لذلك لم يكن من المستغرب بعد وصول أنباء جهاد الفولة والاستيلاء على كانو وكتسينة وهما من الإمارات الهوسوية، إلى برنو، أن هبت جماعات الفولة التى تقطن برنو لتقضى على سلطة برنو. ونجح هؤلاء الثوار – فى وقت وجيز – فى الاستيلاء على نجازار جامو عاصمة السلطان أحمد بن على[١].

وأدى نجاح حركة الجهاد التى بدأها الفولة سنة ١٨٠٤تقريبًا، أن أصبح هذا الجنس سيدًا على سكان الأراضى الهوسوية[٢].

ولم تلبث أن أغارت الجيوش الفولانية على برنو فى عام ١٨٠٨، لضمها إلى إمبراطوريتهم بدعوى كفر أهلها. فهزم الفولانيون جيش برنو وأرغموا السلطان أحمد بن على الفرار من عاصمته[٣]. ودلت الشواهد على أن برنو سوف تضم أو تدمج فى الإمبراطورية الفولانية، لولا أن بزغ فى الأفق رجل قوى الشكيمة كان على يديه خلاص الدولة وتوطيد سلطانها، هو الشيخ محمد الأمين الكانمى، وفى غضون عام واحد، استطاع أن يهزم الفولانيين فى سلسلة من الغزوات والمعارك حتى طردهم فى نهاية الأمر من برنو[٤].

ولا شك أن الرسائل المتبادلة بين الكانمى الحاكم الفعلى لبرنو والزعيم الفولانى محمد بلو (Bello) حاكم سوكوتو، أوضح دليل يلقى الضوء على حقيقة النضال والعلاقات بين برنو والفولة[٥].

فيذكر محمد بلّو[٦]. أن الإسلام انتشر فى برنو بين سلاطينها، ووزرائها وعامتها. وقد اهتم الجميع بقراءة القرآن وتجويده وحفظه وكتابته. إلا أن سلاطين

---

(١) Ibid., p. 67.
(٢) *Ibid*
(٣) Burns, Sir Alan: History of Nigerua, P. 56
(٤) Ibid
- انظر الفصل الأول، ص ٢٨
(٥) Bivar, A. D. H.: Arabic document of Northern Nigeria, Bullatin of the School Orient & African Studies, Vol. XXII, pt, 1959, p325
(٦) جميع المراسلات المتبادلة بين الشيخ محمد الأمين الكانمى حاكم برنو وبين الزعيم الفولانى عثمان بن فودى سلطان سوكوتو، تولى الرد عليها كلها السلطان محمد بلو نجل الزعيم الفولانى عثمانى بن فودى، ربما يرجع ذلك إلى أن الشيخ عثمان كان رجل دين وعلم، ولم يكن مهتمًا بصفة خاصة بالأمور السياسية انظر ما سبق، ص ٢٦.

برنو لم يتبعوا التعاليم الصحيحة لهذا الدين الحنيف فكانوا يقدمون القرابين للبحر ويقدسون الحيات. ويزعمون أن هذه صدقات يستعينون بها على جلب المصالح، ودرء المفاسد، فإن لم يفعلوا ذلك بطلت معايشهم، وقلت أرزاقهم، وضعفت شوكتهم(١).

توارث أهل برنو هذه العادات جيلاً بعد جيل، ولم يمتنع عنها إلا الموفقون منهم سواء من العرب أم من الفولة. فمن الناس من خلص دينه كما ينبغى، ومنهم من خلطه بما يناقضه. وكانت أغلبية ملوك وسلاطين هذه البلاد من هذا القبيل، فهم يصلون ويصومون، لكنهم لم يفارقوا أحوال أجدادهم الأولين ولم يتركوا من عاداتهم شيئًا. ولذلك فإن من خالطهم يحكم بالضرورة أنهم متلبسون بما لا يصدر إلا من كافر(٢).

ويقول بلّو أيضًا، إن من عادات برنو انتشار الفاحشة بين أهلها ولم ينكرها بعضهم على بعض البتة. ومن أخلاقهم الحدة، والمكر، والذل، وعدم المساواة، وسفك الدماء، والظلم الكثير، والفجور(٣).

وعندما تولى محمد الأمين الكانمى إدارة دفة الأمور فى برنو(٤). بادر بالكتابة إلى الفولة ليستوضح منهم أسباب القتال بينهم وبين برنو، ويعمل على وضع حد لذلك القتال. فذكر فى أحد خطاباته لبلو، أن المقادير دفعته إلى برنو فوجد نار الفتن شديدة بينها وبين الفولة فحاول أن يتبين الأمر من جيرانه الفولة المقيمين فى برنو ولكنهم أجابوه بإجابة ركيكة لا تصدر عن قوم عقلاء، ثم هجموا عليه هو ورفاقه، فناشدهم السلام. ولكنهم واصلوا القتال فهب محمد الأمين الكانمى ورفاقه للدفاع عن أنفسهم(٥).

---

(١) Fage, J.D:A history of West Africa, an introductory survey, 4th ed. P. 149

(٢) محمد بلو: انفاق الميسور فى تاريخ بلاد التكرور. ص ٣٣ – ٣٤.

(٣) نفس المرجع.

(٤) انظر الفصل الأول، ص ٣١.

(٥) محمد بلو، المرجع السابق، ص ١٥٨

Palmer, R.: Bornu Sahara & Sudan, pp. 260 - 261

وأوضح الكانمى لبلّو أنه رغم هذا، فقد كتب إليهم ثانية يستوضح سبب القتال. فردوا عليه بكفر أهل برنو لجور الأمراء فى الحكم، وكشف رؤوس الحرائر، وأخذ الرشوة، وأكل مال اليتيم[١].

وقد أوضح الكانمى لهم أن هذه الحجج لا تبيح كل ما ارتكبوه من أفعال، لأن الدين الإسلامى نهى عنها ولم يكفر مرتكبيها، ودلل الكانمى على ذلك بأن مصر والشام من البلدان الإسلامية مثل برنو، بل وأعظم منها وتحدث فيها مثل هذه الأفعال، ولم يعترض أحد من علمائها ولم يشيروا بكفر أهل مصر والشام. فإن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يكون أحسن من قتلهم[٢].

حاول بلّو أن يتنصل من ذلك، فأجاب الكانمى "بأن ذلك لم يكن سبب قتال الفولة مع برنو، وإنما حارب الفولة سلطان برنو دفاعًا عن أنفسهم ودينهم. فقد بدأ الشيخ عثمان فى دعوة الناس إلى دين الله، ولهذا فقد بدأ يشرح لهم ماهية الدين السليم، وعلمهم جميعًا باللغة التى كانوا يفهمونها. وحاول أن يزيل عن أذهانهم كل أسباب الشك والريبة، وتقبل الكثيرون منهم تعاليمه وساعدوه حتى أصبح معروفًا على مستوى الدولة برمتها. ثم بدأ يسافر مع أتباعه وأنصاره وزار الكثير من المدن وتحدث إلى أهلها عن الإسلام وتاب على يديه رهط كبير ممن كانوا يجهلون أمر الدين"[٣].

ويستطرد بلّو فى خطابه إلى الكانمى "بأن الشيخ عثمان كان ولا يزال بعيدًا عن التدخل فى تقاليد الزعماء. وفى نهاية الأمر التف حوله لفيف كبير من الأتباع والأنصار، وأصبحوا جميعًا معروفين فى جميع إمارات الهوسا وأطلق عليهم اسم أتباع الشيخ. وغادر الأفراد مدنهم وتوافدوا على الشيخ، وقد لوحظ علاوة على ذلك

---

(١) محمد بلو، المرجع السابق، ص ١٥٨ ـ ١٥٩

Palmer, R.: op.cit., p. 265

(٢) محمد بلو، المرجع السابق، ص ١٥٩

(٣) Hogben, S.j. &kirk-Greene, A.H.M.:The emirates of northern Northern Nigeriak p. 323.

أن بعض زعماء الهوسا تابوا وتوجهوا إلى الشيخ تاركين مراتبهم وما هم فيه من مناصب. وأصبحت هذه هى الصورة التى كانت تشغل أذهان الزعماء والملوك الذين أغضبهم التفاف الأعداد الغفيرة حول الشيخ عثمان، فسولت لهم نفوسهم الشريرة أن يشنوا عليهم الحرب"[١].

ويواصل بلّو حديثه إلى الكانمى قائلاً "إن سلطان غوبر (إحدى إمارات الهوسا) غزا جماعة من جماعات الشيخ عثمان وقتلهم ليشيع الخوف بين الفولة، حرص سلاطين الهوسا على الإغارة على الفولة وقتلهم. حينئذ وجب الجهاد، واستطاع الفولة هزيمة سلطان غوبر فهرب إلى حصنه، ثم أرسلوا لملوك الهوسا لينصروا الدين الجديد، ولكنهم رفضوا وقاوموا، فأنزلت بهم قوات الفولة الهزيمة"[٢].

ولكن عندما ضيق الفولة على أمراء دورًا وكتسينة – وهم من أمراء الهوسا – بعثوا إلى السلطان أحمد بن على سلطان برنو يستنجدون به ضد الفولة[٣]. ومن المعروف أن الملوك ترى من واجبها نجدة الملوك على أعدائهم. فأرسل سلطان برنو لوزيره غليتم ليسرع لنجدتهم، ولكن قوات الفولة استطاعت هزيمته. ولما تفاقم الأمر، كتب سلطان برنو إلى الفولة يسألهم عن سبب تلك الحروب. فأجابوه بأن أمراء الهوسا كفار وأنهم مسلمون مرتدون، وحذروه أن يخدعوه وأن يحذو حذوهم. وطلب الفولة منه تأييدهم[٤].

لم يقتنع السلطان أحمد بن على بهذا الرد، فأرسل جيشًا بقيادة وزيره لمساعدة أمراء الهوسا ضد الفولة. ولكن الفولة، استطاعوا أن ينالوا منهم وقتلوا الوزير وقائد الجيش وعددًا كبير من جنودهم، ولم يعد أمامهم سوى سلطان برنو الذى هرب ليلاً من حصنه وجهز لهم فرقًا كثيرة من الجند لمقاومتهم أثناء تقدمهم

(١) Ibid., pp. 323 - 324.
(٢) محمد بلو، المرجع السابق، ص ١٩٣ – ١٩٤
(٣) Palmer, R.: op.cit., p. 264
(٤) محمد بلو، المرجع السابق، ص ١٩٥

إلى أرض برنو. ولكن الفولة استطاعوا هزيمة هذه الفرق وقتلوا عددًا كبيرًا من جنودها، وأرغموا سلطان برنو مرة أخرى على الخروج من مملكته والتوجه إلى كانم. لأنه فى رأيهم انضم إلى جانب كفار الهوسا وإن من والى الكفار فهو مثلهم. كذلك قام أهل برنو بالاعتداء على المجاورين لهم من الفولة حتى اضطروهم إلى الهجرة، وبدأوا بمقاتلتهم تعصبًا لملوك الهوسا ونصرة لهم(١).

وحاول بلو جاهدًا أن يشك الكانمى فى موقفه، وأن يحول دون مساعدته لبرنو. فذكر له أن إقامته فى برنو حرام؛ لأن أهلها مرتدون بموالاتهم كفار الهوسا ونصرهم لهم ضد الفولة. ولذلك أصبحت بلدهم بلد حرب، ووجب على الكانمى هجرتها إلى غيرها من بلاد الإسلام، لقوله عليه السلام: "إنى برئ من مسلم ساكن بين المشركين"(٢).

لكن بلّ تراجع فى موقفه تجاه الكانمى، بعد أن أوضح له الكانمى أن العادات التى يمارسها أهل برنو نهى عنها الإسلام ولم يكفر مرتكبيها. ففى خطاب آخر أرسله إلى الكانمى، ذكر أنه "لا يعتقد أن الفولة يكفرونه هو وجماعته من المسلمين بمظاهرتهم أهل برنو ضدهم لأنهم لا يكفرون المبتدع المتأول، فهم لا يستطيعون تكفير العالم السنى"(٣).

عرض الكانمى على بلّو إحلال السلام محل القتال. ولكن بلّو أصر على موقفه بأنه لا يستطيع وقف القتال مع برنو، بعد علمه بأنهم كافرون لمساندتهم

---

(١) نفس المرجع، ص ١٥٦ - ١٥٨

(٢) محمد بلو، المرجع السابق، ص ١٥٨

- عن سمرة بن جندب، أن رسول الله ﷺ قال: "من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله". أبو دود: سنن أبى داوود. تصحيح الوفانى الهورينى، ج١، ص ٢٧٩.
- انا برئ من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين. د. جهاد ٩٥، ن مساحة ٣٧.
ونسنك، أ. ى: المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى، ج١، ص ١٦٤

(٣) ومراداهم أن الكانمى على تأويل، لأنه لم يعلم أنهم كفروا لمساندتهم الكفار (أمراء الهوسا) ضدهم قبل مجيئه إليهم، ولكنه اعتقد أنهم مسلمون، والفولة المجاورين لهم مسلمون، فوقعت بينهم. ولم يعتقد أن قتال الفولة جهاد، وأن بلاد برنو بلاد حرب.
- محمد بلو. المرجع السابق، ص ١٩٧ ـ ١٩٨.

لأهل الهوسا ضد الفولة. وأن الصلح بين الفولة وأهل برنو لا يتم إلا بأحد أمرين: إما أن يرجعوا إلى الإسلام الصحيح، أو أن يطلبوا من الفولة وقف القتال ودخولهم فى السلم(١).

وبينما كان تبادل المراسلات يجرى على هذا النحو، استمر الفولة فى الهجوم على المنطقة البرنوية من جومل (Gumel) وهاديجية (Hadejia) فى الشمال من جومبى والجنوب من يولا (Yola)(٢).

بذل الكانمى محاولة أخيرة لينتزع من الفولانيين القطاع الشرقى لإمبراطورية سوكوتو، ويعيد بذلك لبرنو أمجادها السابقة فيما قبل عام ١٨٠٨. وقد شجعه على ذلك نجاح الحملة التى قادها ضد البجرميين عام ١٨٢٤. فدفع الكانمى بقواته ناحية الغرب وطرد أمير كتاجوم (Katagum)، ثم أعد للزحف الأخير على كانو (Kano)، وجمعت سوكوتوقواتها من جميع الإمارات الفولبية لتواجه ذلك الخطر الداهم. وفى النهاية تمكن أمير بوشى (Bouchi) من هزيمة جيش برنو عام ١٨٢٦ فى مكان يبعد بضعة أميال فى شرق كاو. وبهذا أنقذ الفولة أنفسهم من هزيمة محققة. ومنذ ذلك الحين انطوت كل من كوكاوة وسوكوتو على نفسها(٣).

ويبدو أن كثرة الحروب بين الفولة وبرنو أجهدت الطرفين لدرجة أن كليهما كان يرغب فى إنهائها. فقد ذكر محمد بلّو، أنه كان يكتب إلى برنو كل عام ويطلب المصالحة ولكن الوثائق المرسلة كانت تضيع، ولم تبلغهم إلا وثيقة واحدة. وفعلاً قبل محمد بلّو الصلح الذى عرضه عليه الكانمى(٤).

استقرت الأحوال بين الفولة والكانمى، بعد أن اتفقت الدولتان على تحديد مناطق نفوذهما، كما يستدل على ذلك من الخطاب المرسل من الكانمى إلى محمد

---

(١) نفس المرجع، ١٩٧.
(٢) Hogben. S.J. & Kirk – Greene. A.H.M.: op.cit. p.326
(٣) Ibid., p. 327
(٤) محمد بلو. المرجع السابق، ص ١٥٨.
Hogben. S.J. & Kirk – Green. A.H.M.: op.cit. p.327

بلّو، والذى جاء به "إننا نعتنق نفس الدين الواحد ومن غير المناسب أو اللائق أن يشن رعايانا حرب على بعضهم البعض، وبين مملكتينا تقيم قبائل وثنية من بيدى (Bedde) ويستوجب أن تجبى منهم الجزية. فلنحترم هذه الحدود، فما يقع شمال دولتهم يكون من نصيبنا (نصيب برنو) وما يقع غربها يكون من نصيبكم (نصيب الفولة). أما فيما يتعلق بمونيو (Muniya) ودماجرام (Damagaram) ودورا فسوف تظل إقطاعيات لسلطان برنو. وفى مقابل ذلك سوف يتنازل السلطان (سلطان برنو) لكم عن حقوقه فى غوبر وكتسينة"(١).

تخللت النزاع بين الطرفين فترة هدوء تتمثل فى الوقت الذى أرسل فيه الكانمى خطابًا إلى محمد بلّو يوصى فيه خيرًا بالبعثة الإنجليزية التى رغبت فى زيارة بلاده(٢).

وفى عهد الشيخ عمر بن الكانمى ١٨٣٧ – ١٨٨٠ استمر الصراع بين برنو والفولة. فقد كان الشيخ عمر يرغب فى أن يحكم الأراضى الغربية التى فقدتها برنو عام ١٨٣٠ والتى استولى عليها الفولانيين. وفى الفترة من ١٨٣٧ حتى ١٨٤٠ أرسل عدة حملات ضد جمارى (Jama'are) ومسوى (Misau) ومناطق لير (Lere) فى كُتاجوم ولم تكن هذه الحروب فى صالح الجانبين(٣).

تلت بعد ذلك فترة من الهدوء بين برنو والفولة. وربما يرجع ذلك لانشغال برنو فى حروبها المستمرة مع واداى، التى ظلت تغير على برنو من آن لآخر حتى سقوطها فى يد رابح السودانى عام ١٨٩٣(٤). وبالتالى تحسنت علاقات الشيخ مع عمر بن بلو عليو بابا (Aliuyo Baba) (١٨٤٢ – ١٨٥٩) وتوقفت غارات الفولة على المناطق الغربية لبرنو. وبمقدم عام ١٨٤٦ كانت العلاقات وطيدة بين سوكوتو وكوكاوة(٥).

---

(١) Ibid
(٢) Bovill, E.W.:The Niger explored.p.123- انظر الملحق رقم (٣)، ص ٢٠٣.
(٣) عبد الرحمن زكى: تاريخ الدول الإسلامية السودانية بإفريقية الغربية. ص ٢٠٧.
(٤) Kirk – Greene , A. H. M.:Barth's travels Nigeria p. 221
(٥) Ifemesia, C.C: Bornu under the shehus; A thousand years of Eest African history, edited by J, E. Ajayi & others, pp. 294 – 295.

وقد تمزقت العلاقات بين برنو والدول المجاورة ومن بينها سوكوتو (الفولة) اعتبارًا من عام ١٨٩٣، عندما سقطت برنو في يد رابح. وذلك بسبب عداء رابح لهذه الدول جميعًا من ناحية، ولأن رابحًا لم يكن مهدى المذهب فحسب، بل كان أيضًا متحالفًا مع حياتو بن سعيد بن محمد بلو، الذى كان على خلاف مع البيت الحاكم فى سوكوتو، والذى قاد حركة تمرد ضده. واستمرت العلاقات مقطوعة بين سوكوتو وبرنو حتى فرضت بريطانيا حمايتها عليهما[١].

وقد قام البريطانيون بتقسيم الأراضى النيجيرية إلى محميتين هما محمية الشمال ومحمية الجنوب. وقد شملت محمية الشمال إمارات برنو وسوكوتو وشمال الكاميرون، وقد احتفظت كل إمارة باستقلالها داخل المحمية. واستمر هذا الوضع حتى حصول نيجيريا على استقلالها من بريطانيا سنة ١٩٦٠. وأصبحت برنو منذ ذلك الوقت إحدى إمارات الإقليم الشمالى لنيجيريا، الذى شمل إمارتين مستقلتين عن بعضهما هما برنو وسوكوتو. أما شمال الكاميرون، فقد انضم إلى جمهورية الكاميرون[٢].

ثانيًا – كانم:

تقع كانم شرق بحيرة تشاد. وكانت تربطها ببرنو صلات أخوية ظهرت إلى حيز الوجود عندما تعرضت برنو للغزو الفولانى عام ١٨٠٨. فقد كان لظروف الحرب بين الفولة وبرنوأثر كبير فى استعانة برنو بأحد زعماء كانم،وهو محمد الأمين الكانمى[٣]. الذى طلب العون من إخوانه سكان كانم من الكانمبو والعرب. فانهال عليه عدد كبير من المتطوعين، فدعم بهذه العناصر الجديدة قوة برنو العسكرية. واستطاع الكانمى بهذه القوة أن يوقع الهزيمة بالفولة فى موقعة بالقرب من نكرنو. وتمكن جيش كانم بقيادة الكانمى من تحرير القطاع الشرقى من برنو

---

(١) انظر الفصل الثالث، ص ٧٤.
(٢) انظر الفصل الثالث، ص ٨٦.
(٣) يوفر، ج: البرنو. دائرة المعارف الإسلامية، مج٣، ع٩، سنة ١٩٣٨، ص ٥٨٧.

بأكمله، ومكنوا السلطان أحمد بن على أن يدخل عاصمته من جديد. وانسحب الكانمى من مسرح الأحداث[١].

توفى السلطان أحمد عام ١٨١٠ وخلفه ابنه دونمة ١٨١٠ – ١٨١٨. ولم يلبث الفولانيون أن عادوا إلى مهاجمة برنو، وتمكنوا من الاستيلاء على عاصمة برنو للمرة الثانية عام ١٨١١. ولم يستطع دونمة مواصلة القتال وحده، فاستعان هو الآخر بمحمد الكانمى وأتباعه من الكانميين[٢]. ووضع الكانمى خطة لتخليص برنو من سيطرة الفولانيين، وحرك حماس الكانميين ليهبوا لمساعدته بقصة محكمة التخطيط مؤداها أنه أوحى إليه أن يتولى مهمة تخليص برنو. وتمكن الكانمى بقوة قوامها أربعمائة من الكانميين من هزيمة الفولانيين. واستعاد جزءًا كبيرًا من الأراضى التى استولى عليها الفولة، ودخل جازارجامو بصبحة دونمة[٣].

لم ينسحب الكانمى وأتباعه فى هذه المرة من برنو، فمكثوا فيها وأصبح للكانمى نصف إيرادات الأقاليم التى حررها من الفولة مكافأة له عن جهوده. واستطاع الكانمى أن يجرد الأسرة الحاكمة الضعيفة تدريجيًا من جميع النفوذ والسلطة وأن يتولى حكم برنو. وفى عام ١٨١٤ أسس كوكاوة لتكون عاصمة له. ومنذ تلك اللحظة أصبح الكانمى هو حاكم برنو الحقيقى. وهكذا تمكن أحد رجال كانم من تولى مقاليد السلطة والحكم فى برنو[٤].

ويذكر أورفوى (Urvoy) أن كانم عانت كثيرًا من جراء مساعدتها لبرنو فى حروبها ضد الفولة. ولم يكن فى مقدور برنو أن تحكم سيطرتها على كانم – كما كان الحال فى القرن الثامن عشر، ولم يستطع الألفا (Alfa) – وهو ممثل سلطان برنو فى كانم، الصمود أمام قوة أمير كانم المحلى. فاعتمدت برنو على سياسة

---

(١) Barth, H: Travels and discoveries in north & Centeral Africa, Vol. 2. P. 600

(٢) -Hodgkin, T.: Nigerian Perspectives, p. 206

(٣) Urvoy, Y.: l'histoire de Lempire du Bornou, P. 103
أنظر الفصل الأول، ص

(٤) Hogben, J.&. Kirk – Greene , A. H. M.: op. cit, 326

محلية مؤداها إثارة قبيلة ضد أخرى. بينما أتاحت – كثرة النزاع بين أفراد الأسرة الحاكمة فى كانم – الفرصة لتدخل واداى فى كانم(١).

ففى بداية القرن التاسع عشر أصبحت سلطة أمير كانم أقوى من سلطة الألفا. وكان ميلى كورا (Mele Koura) الخليفة الثالث عشر لكانم قد سجن فى برنو بسبب موالاته لواداى، وحل محله أخوه هادج (Hadj). ولكنه تمكن من الفرار إلى واداى حيث تلقى العون، واستطاع أن يسترد عرش كانم بمساعدة جيش واداى وهكذا كانت إمارة كانم محرر الصراع بين برنو وواداى(٢). وكانت نتيجة هذا الصراع أن أصيبت كانم بحالة من الفوضى والاضطراب(٣).

وعندما توفى ميلى كورا سنة ١٨١٤، أحضر الشيخ الكانمى شقيقه آرى ماروم (Ari Mairom) إلى كوكاوة وولاة عرش كانم. ولكنه لقى حتفه على يد أحد قبائل الشوة التى كانت تسكن كانم، والتى كانت تناصر واداى. عندئذ حضر الشيخ الكانمى بنفسه إلى كانم وبرفقته ميلى (Mele) الأخ الأصغر لارى وولاه عرش كانم. ولكنه تحالف مع الواديين، مما جعل الكانمى يعمل على إبعاده عن الحكم ليضمن ولاء كانم لبرنو. وفى نهاية الأمر لقى ميلى حتفه سنة ١٨١٥ على يد أحد العبيد الذين أرسلهم إليه الكانمى بحجة تقديم الهدايا إليه(٤).

أصبحت مسألة تعيين حاكم على عرش كانم مثار تنافس بين برنو وواداى، إذ كانت منهما تسعى إلى تعيين حاكم يدين لها بالولاء. فرشحت برنو أحمدو كالى (Ahmadu Kalli)، (حفيد ميلى كـــورا)، كما رشحت واداى بكير (Beker) (ابن ميلى كورا) وهما اللذان كانا يتنازعان على الخلافة(٥). ووقفت كل من برنو وواداى خلف مرشحها، وأدى الأمر إلى صدام مسلح بين الدولتين كان النصر فيه جانب واداى. وتولى بكير عرش كانم التى أصبحت منذ تلك اللحظة تابعة

---

(٢) Urvoy, Y.: pp.cit., p. 106
(٣) Ibid
(٤) Brenner, L.: The shehus of Kukawa, p. 103.
(١) Urvoy, Y.: op.cit., p. 1106
(٢) Ibid., pp. 106 - 107

لواداى[١]. ورغم تبعية كانم لواداى، استوطن برنو عدد كبير من أهل كانم واندمجوا فى المجتمع البرنوى[٢].

وفى عهد الشيخ عمر بن الكانمى، كانت تشترك فى جيش برنو كوكبة من فرسان الرماح والحراب من كانم بملابسهم الخفيفة المميزة، وكانوا مسلحين بأردع خشبية[٣].

وقد اتخذ الكانميون من كانم ملجأ لهم إذا ما تعرضوا لهجوم خارجى يدفعهم لمغادرة برنو، فهى موطن أجدادهم. وقد فر إليها بالفعل الشيخ غرباى عام ١٩٠١ عندما تعرض لهجوم فضل الله بن رابح عقب تعيينه شيخا على دكوة من قبل الفرنسيين[٤].

ثالثا – بجرمى:

بجرمى هى أحدى بلاد السودان الأوسط، وتقع شرق بحيرة تشاد. وقد كانت من البلدان التى تدين بالتبعية لبرنو. غير أن حكامها انتهزوا فرصة ضعف برنو واستقلوا بها فى نهاية القرن الثامن عشر[٥].

وبعد أن تولى الأمين الكانمى زمام الأمور والسلطة فى برنو، شرع فى شن حملة ضد بجرمى. وكان الكانمى مصرًا على إعادتها إلى ما كانت عليه من ولاء سابق لبرنو. ويذكر المؤرخون أن الذى دفع الكانمى إلى اتخاذ هذه الخطوة، هو شعوره بالعداء العميق تجاه بجرمى من أجل تلك الدسيسة التى تم تدبيرها بين السلطان دونمة سلطان برنو، والسلطان عثمان بركومندا سلطان بجرمى (١٨٠٧ – ١٨٤٤) بهدف القضاء على الكانمى[٦].

فعندما بسط الكانمى نفوذه على سلطنة برنو القديمة، وحظى بتأييد الشعب. بدأ القلق يساور السلطان دونمة من جراء هذا الوضع الذى سلبه سلطته. ولذا عمل

---

(١) Ibid

(٢) Ifemesia, C.C: Bornu under the shehus; p. 294.

(٣) أنظر الفصل الرابع، ص ١٢٠

(٤) Kirk – Greene , A. H. M.: op. cit, 209

(٥) عبد الرحمن زكى: الإسلام والمسلمون فى غرب أفريقية، ص ٦٨.

(٦) إبراهيم صالح بن يونس: المرجع السابق، ص ١١٢

على التخلص من الكانمى. فاتصل ببركومندا حاكم بجرمى وتآمر معه على غزو برنو، ومساعدته فى التخلص من الكانمى. فدخل جيش بجرمى برنو ودمر قصر الكانمى فى كوكاوة. ولكن البجرميين قتلوا السلطان دونمة بطريق الخطأ فى عام ١٨١٨ عندما أغاروا على أحد المعسكرات بمدينة نجالا، ظنًا منهم أنه تابع للكانمى. بينما كان السلطان دونمة ينتظرهم فى هذا المعسكر. عندئذ عاد جيش بجرمى من حيث أتى. ولم يلبث أن استأنف مناوشاته ومضايقاته لبرنو، مما جعل الكانمى يشن الغارات المتعاقبة عليهم رغبة فى القضاء على قوتهم وضمهم إلى ممتلكات برنو[١].

إلا أن سكان ذلك الأقاليم الذين عرفوا بالشهامة والبسالة القتالية، كانوا أكثر إصرارًا على الاستقلال بأقليمهم. فردوا الصاع صاعين لجيش الكانمى. وبهذا ورط الكانمى نفسه وجر على برنو حربًا تفت العضد، وأصبح موقفه حرجًا عندما وجد نفسه بغتة مهددًا بغزو فولانى من الغرب. وإزاء هذا الخطر الداهم، اضطر الكانمى إلى أن يستنجد بعون خارجى ليدرأ عن نفسه أخطار الحملة البجرمية. فلجأ إلى طرابلس التى ساعدته بإرسال حملة عسكرية انضمت إلى جيشه، وشن الجيشان غارة على أقليم بجرمى[٢].

استمرت الحرب الدامية بين الشيخ الكانمى وسلطان بجرمى ثمان سنوات ١٨١٦ – ١٨٢٤. ورغم أن الكانمى فقد أكبر أبنائه فى الحرب مع بجرمى، إلا أن حروبه كانت ناجحة وأسر خلالها أكثر من ثلاثين ألفًا من رعايا بجرمى، فضلاً عن حرقه لمدن أعدائه وتشتيت هؤلاء الرعايا[٣].

وفى أول الأمر كان محمد الأمين الكانمى قد طلب العون والمساعدة من عبد الكريم سابون سلطان واداى (١٨٠٣ – ١٨١٣) لاسترداد سطوة برنو على

---

(٢) Hogben. S.J. & Kirk – Greenen. A.H.M.: op.cit. p.326

(١) Triminigham. J. S.: A history of Islam in West Africa, p. 214

(٢) Denham, D.& Clapperton, H.: Narrative pf travels & discoveries in northern & Central Africa, p. 327.

بجرمى. ولكن سابون انتهز فرصة انشغال برنو فى حربها مع الفولة واستولى على بجرمى لنفسه وسلب عاصمتها مسينا، ثم وقع مع غريمه المهزوم ملك بجرمى اتفاقية تحقق مصالح واداى بينما أغفلت فيها مصالح برنو[١]. وظلت بجرمى منذ ذلك الوقت ولمدة طويلة خلال القرن التاسع عشر تابعة لواداى[٢].

وعندما أغار رابح على بجرمى ضمن غارته على منطقة تشاد استنجد حاكمها بشيخ برنو لمساعدته فى صد هجوم رابح. لكن الشيخ هاشمى رفض الاستجابة لنجدة بجرمى، ربما لأن حالة برنو لا تسمح لها بالتورط فى مشاكل خارجية هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى لأن قبضة واداى على بجرمى كانت ترمى إلى استبعاد النفوذ البرنوى عنها. وبالفعل سقطت بجرمى فى يد رابح عام ١٨٩٢ فتحالفت الأسرة المالكة فيها مع الاحتلال الفرنسى ضده. وعندما انتصر الفرنسيون على رابح سنة ١٩٠٠، كان ذلك إيذانًا بالاحتلال الفرنسى لهذه البلاد[٣].

رابعًا واداى:

تقع جنوب جبال تبستى إلى الشرق من بجرمى. وقد دخلها الإسلام فى فترة متأخرة مع زحف قبائل الزغاوة[٤] التى انتشرت فى جنوب هذه المنطقة. وسكان واداى مزيج من قبائل متعددة[٥].

وقد طلب محمد الأمين الكانمى من عبد الكريم سابون سلطان واداى العون والمساعدة لاسترداد سطوة برنو ونفوذها التليد على بجرمى. ولكن سابون انتهز فرصة انشغال برنو فى حربها مع الفولة واستولى على بجرمى[٦].

---

(١) Trimingham, J.S.: op. cit, P. 215

(٢) Urvoy, Y.: op. cit, P. 105

(٣) أحمد شلبى: موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية، ج٦، ص ٣٠٢.
- انظر الفصل الثالث ص ٦٩

(٤) انظر الفصل الأول، ص ١٣

(٥) كانت السلطة فى واداى قبل الأسرة الحاكمة إذ ذاك قبائل الطنجور أو التنجور وهم يمثلون هجرة من قبائل البربر تدفقت إلى دارفور ووادى نتيجة لتطور الأحداث فى بلاد المغرب بعد غارات الهلالين، حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية فى أفريقية، ج١، ص ٣٢٤.

(٦) palmer, R.: op.cit., p. 215
Carbou, H.: La region du Tchad et de Wadai, P. 314
- أنظر الفصل الأول، ص ٢٩.

وفى عهد الشيخ عمر بن الكانمى، انتهز ملوك الأسرة السيفية القديمة، وقوع عدة اضطرابات داخل برنو. فحاولوا إعادة أسرتهم إلى ما كانت عليه من سيادة وأن يقضوا على نفوذ الأسرة الكانمية، واستعانوا فى ذلك بسلطان واداى[١]. ففى عام ١٨٤٦ تمردت الولاية الصغيرة زندر - التى كانت تابعة لبرنو - على حكم الشيخ عمر وانتهز السلطان إبراهيم - آخر سلاطين الأسرة السيفية - الفرصة، وكان مستاء من الشيخ عمر الذى أنقص الراتب الذى خصصه له والده الشيخ الكانمى إلى النصف، وبعد ثلاث سنوات أسقطه مرة واحدة. فدخل فى سلسلة من المفاوضات السرية مع السلطان شريف سلطان واداى، واتفق معه على غزو برنو ومساعدته فى استعادة السلطة الفعلية فى الحكم. وعندما تواترت هذه الأنباء إلى أسماع الشيخ عمر أمر بوضع إبراهيم فى السجن[٢]. وأرسل قواته لمقابلة جيش واداى. ووقع القتال بين الفريقين بمنطقة الفترى، وكان النصر حليف جيش برنو. ولم يسلم من قوات واداى غير عدد يسير. وعاد جيش برنو مخلفًا وراء الكثير من القتلى[٣].

وفى عام ١٨٤٤ كانت قد اشتدت حركة اليمنوك أبو القدم الأصلحى - زعيم قبائل الأصالح فى برنو - وكانت حركته موجهة أساسًا ضد حكم الشيخ عمر، والتى تهدف إلى الاستقلال بأتباعه عن حكومة برنو. واتخذ المنطقة الواقعة شرق نهر شارى محلاً لإقامته ووافقه على ذلك أكثر القبائل التى تسكن على شاطئ النهر أمثال الكوتوكو. ولكن الشيخ تيراب وزير الشيخ عمر تمكن بحيلة ماكرة من استدراج اليمنوك هو وبعض أتباعه إلى مكان بعيد عن قواته بحجة التفاوض، وأمر جنوده الذين أخفاهم - بحصار اليمنوك وقتله هو ومن معه[٤].

(١) Kirk – Greene , A. H. M.: op. cit, pp. 151 – 152
- عبد الرحمن زكى: الإسلام والمسلمون فى غرب أفريقية، ص ٩٦.
(٢) إبراهيم صالح بن يونس: المرجع السابق ص ١٢١.
- Crowder,m.: The story of Nigeria, P. 104.
(٣) إبراهيم صالح بن يونس: المرجع السابق، ص ١٢٢.
(٤) نفس المرجع، ص ص ١٢٤ ـ ١٢٥.

أثار هذا الأمر سلطان واداى لما كان له من صداقة مع قبائل الأصالح، علاوة على ما كان يضمره من عداوة بسبب هزيمة قواته على يد جيش برنو. فتوجه بجيشه إلى برنو. وما أن علم بذلك الشيخ عمر حتى جمع قواته وزحف بهم نحو جيش واداى. غير أنه هزم فى مكان يقال له كوسيرى (Kusaeri) عند التقاء نهر الشارى ولوجون – وقتل فى هذه المعركة وزيره تيراب، كما أسر أخوه علي. وقد أمر الشيخ عمر بإعدام السلطان إبراهيم. ويبدو أن قوات واداى كانت كبيرة جدًا حتى أن الشيخ عمر لاذ بالفرار إلى الأقاليم الغربية. ونهب جيش واداى برنو، كما أحرق كوكاوة. ولكن الشيخ عمر تمكن من إعادة تنظيم صفوف قواته، وأعاد الكرة على جيش واداى وأجبره على الإنسحاب من برنو متخليًا عن الهدف الذى وفد من أجله، وهو إعادة الأسرة القديمة إلى صولجان الحكم مرة أخرى[١].

لم تنته الحروب بين واداى وبرنو عند هذا الحد. فيذكر المؤرخون أن الشيخ بكر بن عمر (١٨٨٠ – ١٨٨٤) مات وهو يستعد للقيام بحملة ضد واداى عام ١٨٨٤[٢].

وفى نهاية القرن التاسع عشر أصاب الضعف الأسرة الحاكمة فى واداى فدفعت الجزية لدافور وبرنو حتى تأمن من أن تناصر هذه أو تلك قبائل التنجور[٣]. وتعيدها إلى السلطة فى واداى. وفى عهد الملك يوسف (١٨٧٤ – ١٨٩٧) استقلت بجرمى عن واداى. ثم اقتحمها رابح السودانى مع ما اقتحم من هذه المناطق. ولكن الزحف الغربى غلب رابحًا وأحال البلاد إلى الاحتلال الفرنسى[٤].وقد تم ذلك عام ١٩٠٩[٥].

---

(١) Kirk – Greene , A. H. M.: op. cit, 293

(٢) Ifemesia, C.C: Bornu under the shehus, P. 293.

(٣) انظر الحاشية رقم (٣) ص ١٨٣

(٤) منطقة واداى جزء من جمهورية تشاد الآن.

- أحمد شلبى: المرجع السابق، ج٦، ص ص ٢٩٢ - ٢٩٣

(٥) نفس المرجع، ص ٢٩٣.

خامسًا – طرابلس:

على الرغم من أن طرابلس تقع فى أقصى الشمال بعيدًا عن برنو، إلا أن برنو كانت حريصة طوال عصور التاريخ على إقامة علاقات طيبة معها(١).

وقد حرص الشيخ محمد الأمين الكانمى على مواصلة العلاقات الطيبة مع طرابلس(٢). ليأمن جانبها حيث إنها كانت باشوية عثمانية قوية تملك جيشًا كبيرًا مسلحًا بأسلحة حديثة، لا يستطيع الكانمى مواجهته إذا وقع المحظور – علاوة على أن استمرار هذه العلاقة الطيبة مع طرابلس يضمن لبرنو العون والمساعدة من طرابلس لمواجهة أعدائها الكثيرين سواء الفولة أو البجرميون أو غيرهما. وكان باشا طرابلس حريصًا هو الآخر على هذه العلاقة الطيبة مع برنو ليضمن استمرار القوافل التجارية المتوجهة من طرابلس إلى برنو – علاوة على ضمان طرابلس لمصدر دائم للرقيق الذين كانت تحتاج إليهم بكثرة(٣).

وعندما تورط محمد الأمين الكانمى فى حملته علي بجرمى، ووجد نفسه فجأة مهددًا بغزو فولانى من المغرب، علاوة على حملة بجرمية مضادة(٤). اضطر الكانمى أن يستنجد بعون خارجى، فلجأ إلى طرابلس التى استجابت لطلبه – للحفاظ على مصالحها التجارية. والكانمى فى رسالته ليوسف قره مانلى (Yusuf Karamanli) بأن دولته وبرنو لا بد أن يتعاونا لسحق إقليم بجرمى – كان يعرف أن الرقيق الذى ستتمخض عنه هذه الحملة بعد هزيمة عدوه – يكون بمثابة الطعم الذى لا قبل لباشا طرابلس بمقاومته(٥).

---

(١) Ifemesia, C.C: States of The Central Sudan: A thousand years of african history: edited by J. E.AJayi & Others, P. 78.

(٢) Martin, B. G.: Kanem, Bornu and the Fezzan, Notes on Political history of trade, journal of African History, vol. X. No. 1, 1969, P. 26

- حسن سليمان محمود: ليبيا بين الماضى والحاضر، ص ١٨٨.

(٣) Bovill, E.W.:op. cit.,.p.93

(٤) أنظر ما سبق، ص ٣٤.

(٥) boahen, A. A.: Britain, the sahra, and the Western Sudan, P. 107

Bovill, E.W.:op. cit.,.p.93

وكان الكانمى على صواب فى هذا الأمر ففى عام ١٨١١ تقدم جيش طرابلس عبر الصحراء، واتحد مع جيش الكانمى، وشن الجيشان غارة واسعة النطاق على إقليم بجرمى. ومع أن النتيجة كانت أقل حسمًا مما كان الكانمى يأمل، ولم تكن مجزية كما كان باشا طرابلس يتوقع، فقد تمخضت عن الحصول على عدد كبير من الرقيق[١].

تدهورت العلاقات بين طرابلس وبرنو، وأصبحت أقل ودًا عن ذى قبل. ففى الوقت الذى شن فيه البجرميون غارتهم على برنو - قام الكانمى لدواعى الأمن والسلامة - بإرسال إحدى زوجاته وطفليها إلى فزان - الموطن الأول للزوجة - وعندما انتهى الخطر بسلام، أرسل الكانمى فى طلب زوجته وأولاده فرفض باشا طرابلس أن يسمح لهم بالعودة. وكان الاحتفاظ بهم كرهائن من شأنه أن يؤثر على وجهة نظر الكانمى تجاه طرابلس - وأن يسئ إلى العلاقة بين برنو وطرابلس. وقد خشيت البعثة الإنجليزية التى كانت تزور برنو آنذاك - بناء على وساطة باشا طرابلس[٢]. أن يؤثر ذلك تجاهها. ولكن الكانمى عاملهم بكل كرم على عكس ما توقع أفراد البعثة[٣].

بل إن الكانمى كان أشد إصرارًا على عدم السماح للبعثة الإنجليزية بالتقدم نحو مزيد من الاكتشافات فى المنطقة (منطقة بحيرة تشاد) وأن يظلوا فى برنو، خوفًا من المسئولية عن أية نكبات قد تحل بهؤلاء الضيوف فيما بعد حدود برنو، وما يترتب على ذلك من إساءة للعلاقات بين طرابلس وبرنو، خاصة وأن باشا طرابلس قد عهد إلى الكانمى أن يعتنى بأفراد البعثة ويرعاهم. فكان الكانمى يقول لأفراد البعثة الإنجليزية "إذ ما حل بكم سوء، فإن الباشا (باشا طرابلس) سوف يتخذ من ذلك ذريعة لغزو بلادى"[٤].

---

(١) Ibid

(٢) ميكاكى، رودلفو: طرابلس الغرب تحت حكم أسرة القره مانلى، ترجمة طه فوزى، ص ٢١٢.

(٣) Bovill, E.W.:op. cit., p.93

(٤) Ibid

ولقد تواترت الإشاعات على نطاق واسع فى كوكاوة عاصمة برنو، أن باشا طرابلس كان يخطط لغزو برنو، وأنه سوف يغير عليها بمجرد أن يرحل عنها الإنجليز. ويذكر بوفل (Bovill) أن هذه الإشاعات قد سببت للكانمى همًا وكربًا، وكانت وجهة نظره أنه لا شئ بمستبعد حول هذا الموضوع وأنه واقع لا محالة. ولكن مثل هذه الإشاعة التى ظهرت فجأة لا بد أن يكون لها جذور.

فإن اعتقال زوجة الكانمى وأطفاله بطرابلس أثار القلق والاضطراب فقد برهن الحادث على أن باشا طرابلس قد فقد احترامه للشيخ الكانمى. وأن من أكثر الأمور نذيرًا بالإزعاج والاضطراب لدى الكانمى أن يبعث باشا طرابلس بعدد كبير من قوات الحراسة لمرافقة البعثة الإنجليزية التى تزور برنو. الأمر الذى يؤكد إرسالهم على هذا النحو لا لغرض إلا لاستطلاع أمور الدولة (برنو). إن أكثر ما كان يخشاه الكانمى هو بنادق الباشا التى لا يملك جيشه مثلها[١].

وبمرور الوقت خفت حدة خوف الكانمى من الغزو من جانب طرابلس. إذ كان لوساطة إنجلترا أثر ملموس فى إعادة العلاقات بين طرابلس وبرنو إلى ما كانت عليه – فقبل أن ينتهى شهر مايو عام ١٨٢٤ وصل جون تيرويت[٢]. (John Tyrwhit) فجأة إلى برنو وبصحبته أطفال الكانمى وزوجته الذين تم الإفراج عنهم بتأثير من قنصل انجلترا فى طرابلس على الباشا[٣].

وقد حرص خلفاء محمد الأمين الكانمى على إقامة علاقات طيبة مع طرابلس[٤] – إحدى باشويات الدولة العثمانية – زعيمة العالم الإسلامى، علاوة على أن طرابلس كانت المصدر الأول لما يحتاجه جيش برنو من الأسلحة النارية ذات الأثر الفعال فى إرهاب أعداء برنو الكثيرين[٥].

---

(١) Ibid, PP.114 - 115

(٢) أحد أعضاء البعثة الإنجليزية، وكان قد سافر إلى لندن للعلاج، ثم عاد ليكون مساعدًا للماجور دنهام، وقد عين قنصلاً لانجلترا فى برنو، غير أنه مات فجأة فى أكتوبر عام ١٨٢٤م.

(٣) Bovill, E.W.:op. cit.,.p.115

(٤) Ibid, P. 119

Martin, B. G.: op. vit.26.

(٥) أحمد شلبى: المرجع السابق، ج٦، ص ٢٩٩.

سادسًا – مصر والحجاز :

استمرت علاقة برنو بمصر طوال العصور التاريخية. فقد ربطت الطرق الصحــراوية واحـــات مصر ببرنو، مما يسر التبادل التجارى وتبادل الزيارات بين البلدين(١).

وقد اتصلت برنو بالبيئات الإسلامية المجاورة، تأكيدًا لروح الأخوة الإسلامية، وإفادة من الخبرات الثقافية والعلمية. فقد سعى سلاطين برنو إلى مواسم الحج، ومروا فى طــريقهم بمصر شأنهم فى ذلك شـــأن السلطنات الإســـلامية فى غرب أفريقية، فالسلطان دونمة (١٠٩٧ – ١١١٥) خرج حاجًا ومر بمصر فى طريق السفر والعودة. وقد تكررت هذه الزيارات فى عهد خلفائه(٢).

وبجانب هذه الاتصالات الرسمية، كانت هناك اتصالات فكرية عميقة المدى بين مصر وبرنو(٣). فطلاب برنو عبروا الصحارى إلى الأزهر، وكان سيلهم يتدفق دون انقطاع، يرتشفون من منابع الفكر الإسلامى فى مصر وينضمون إلى حلقات العلم بها، ولهم رواق فسيح بالأزهر يعرف برواق برنو(٤).

وإذا كانت مصر مقصودة لذاتها فى هذه الاتصالات، فهناك اتصالات أخرى حدثت عرضًا. إذ أن وفود الحجاج كانت تمر بمصر فى طريقها إلى الأراضى المقدسة فى الحجاز، وكانت قوافلهم تمضى فترات قصيرة أو طويلة بأرض وادى النيل. فعندما ذهب الكانمى إلى الحجاز فى الرحلة التى قام بها لأداء فريضة الحج قضى فى مصر بعد عودته من الحجاز خمس سنوات.

---

(١) نفس المرجع، ص ٢٩٨

(٢) حسن أحمد حمود: المرجع السابق، ج١، ص ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥

(٣) أنظر الفصل الخامس، ص

(٤) أحمد شلبى: المرجع السابق، ج٦، ص ص ٢٩٨ ـ ٢٩٩

ولا شك أنه قضاها فى حضور حلقات العلم والتزود من منابع الفكر الإسلامى فى مصر. وقد كان خلفاء الكانمى حريصين على استمرار علاقاتهم بمصر لمكانتها فى العالم الإسلامى(١).

ويذكر التاريخ أن مصر فكرت فى فتح برنو ضمن جهودها فى كشف أفريقية إبان القرن التاسع عشر. فعندما أرسل محمد على ابنه إبراهيم بالإمدادات إلى الأمير إسماعيل فى سنار فى أكتوبر عام ١٨٢١ لم يقتنع إبراهيم ببذل المعونة لأخيه. بل كان يريد القيام بمشروعات عظيمة أحدهما الكشف عن منابع النيل الأبيض. فإذا تحقق لديه أن هناك اتصالاً بين النيل الأبيض ونهر النيجر سار إبراهيم بعمارته فى النيجر حتى تصل شواطئ أفريقية الغربية(٢).

وإذا ما ثبت ذلك، فإنه كان ينوى الذهاب إلى كردفان ثم يتوغل فى دارفور وبرنو، ويغرب فى الصحراء الكبرى حتى يصل بجيشه عن طريق طرابلس الغرب إلى مصر. ولم يمنع إبراهيم من تنفيذ هذا المشروع الكبير سوى مرضه واضطراره إلى العودة إلى القاهرة(٣).

سابعًا – انجلترا:

بدأت علاقة انجلترا ببرنو زمن محمد الأمين الكانمى، حينما زارتها البعثة الإنجليزية بقيادة الماجور دنهام عام ١٨٢٣ قادمة من طرابلس. وكانت تحمل معها خطاب توصية من باشا طرابلس إلى الشيخ محمد الأمين الكانمى يسهل لها مهمتها؛ وهى زيارة منطقة تشاد بغرض التعرف عليها وإقامة علاقات تجارية معها(٤).

---

(١) Hodgen, S. J.: The muhammadan emirates of Nigeria, P. 192.
- أحمد شلبى: المرجع السابق، ج٦، ص ٢٩٩.

(٢) محمد فؤاد شكرى: الحكم المصرى فى السودان، ص ١٢٥.

(٣) نفس المرجع، ص ص ١٢٥ - ١٢٦

(٤) أنظر الملحق رقم (٢)، ص ٢٠٥.

وكان يرافقها بوخللوم أحد كبار رجال الجيش فى طرابلس وعدد من الجنود لحراستهم[١].

تعامل محمد الأمين الكانمى بحذر شديد مع أفراد هذه البعثة، وربما كان مرجع هذا ارتيابه فى بـواعث ومقـاصد البعثة. فقد أشـاع التجار العـرب الذين صاحبوا البعثة إلى برنو بأن غرض أولئك الأوربيين الإبحار فى الأنهار الأفريقية واستخدامها كوسيلة للغزوات والفتوح[٢].

بيد أن بوخللوم حاول أن يبعد هذه أفكار عن ذهن الكـانمى. ولكن الشيخ كان يحسب ألف حساب لخطر تحالفهم مع أعدائه الأقوياء العديدين وفى مقدمتهم الفولة، الذين كانوا يشكلون تهديدًا خطيرًا مباشرًا لبرنو. وخاصة بعد أن طلبت البعثة الإنجليزية زيارة بلادهم[٣].

غير أن الدور الذى لعبته انجلترا نحو تحسين العلاقات بين برنو وطرابلس – بعد أن ساءت هذه العلاقات عقب احتجاز باشا طرابلس لزوجة الكانمى وأطفاله، وعدم السماح لهم بالعودة إلى برنو، ثم موافقته بعد ذلك على العودة إلى برنو بناءً على وساطة انجلترا. كان له أثر ملحوظ فى تخفيف حدة ارتياب الكانمى فى نوايا البعثة الإنجليزية[٤].

ورغم مخاوف محمد الأمين، فقد كان متحمسًا لإقامة علاقات تجارية مع الدول الأجنبية، لإحلال التجارة المشروعة مكان تجارة الرقيق، التى كان الشيخ يمقتها لأنها تتنافى مع تعاليم الإسلام. فلما اقترحت عليه البعثة الإنجليزية إقامة علاقات تجارية بين برنو وانجلترا، وافق الكانمى فى خطابه إلى الملك جورج الرابع ملك انجلترا على إقامة هذه العلاقات بشرط أن تكون فى حدود ضيقة، فى

---

(١) Bovill, E.W.:op. cit.,.p.98
(٢) Ibid. pp. 98 – 99.
(٣) Ibid. pp. 99 – 100
(٤) انظر الفصل الأول، ص ٣٦

Bovill, E.W.:op. cit.,.p.97

شكل أفراد قلائل يملكون ثروات محدودة[1]. وليس فى شكل شركات كبيرة تملك ثروات واسعة[2].

ويبدو أن العلاقات بين برنو وانجلترا زمن الكانمى قد توطدت بدليل تعيين المستر تيرويت (Mr. Tyrwhit) أحد أعضاء البعثة الإنجليزية – قنصلاً فى كوكاوة عاصمة برنو[3].

وفى عهد عمر بن الكانمى (١٨٣٧ – ١٨٨٠) حاولت انجلترا عقد اتفاقية تجارية مع برنو، تمنح التجار الإنجليز بعض الامتيازات ولقد نصح بارث الشيخ عمر بإقامة حكومة قوية ليتسنى لبرنو إقامة تجارة منتظمة فى المنطقة. ولفت نظره إلى أنه من المفيد لتجارة برنو أن يجعل نهر بينوى مفتوحًا أمام الإنجليز، وعن طريق هذا النهر يمكن لبرنو الحصول على البضائع الأوربية بأسعار أرخص مما يحصلون عليها بواسطة الطريق الشمالى[4].

والحقيقة أن الشيخ عمر ووزيره شجعا فكرة قيام علاقات تجارية بين برنو وانجلترا بهدف الحصول على الأسلحة النارية التى كانت تحتاجها برنو، حتى تستطيع مقاومة أعدائها العديدين. وتمكن بارث فى نهاية الأمر من عقد اتفاقية تجارية باسم الحكومة البريطانية مع برنو، سمح بموجبها بحرية انتقال التجار والبضائع الإنجليزية داخل برنو. وهكذا نجح بارث فيما فشل فيه زميله دنهام من قبل؛ وهو عقد هذه المعاهدة التجارية مع برنو[5].

---

(١) انظر الملحق رقم (٤)، ص ٢٠٩.

(٢) رفض الكانمى السماح بإقامة شركات تجارية ذات رؤوس أموال كبيرة فى برنو، خشية أن يؤدى ذلك إلى بسط نفوذها السياسى فيما بعد، وبذلك تفقد الدولة استقلالها.

Brenner, L.: op. cit., p. 68

(٣) Burns, sir Alan: op. cit, p. 89.

(٤) Barth. H: op. cit, Vol. 2, 325

(٥) انظر الفصل الخامس، ص ١٦٥.

- انظر الملحق رقم (٥)، ص ٢١٧

وفى نهاية القرن التاسع عشر اشتدت حدة التنافس الاستعمارى بين فرنسا وانجلترا وألمانيا فى منطقة بحيرة تشاد. وكانوا جميعًا حريصين على إقامة علاقات طيبة مع برنو، بل وإدخالها ضمن مناطق نفوذهم إن أمكن. وقد حاول البريطانيون أن يبرموا معاهدة مع شيخ برنو، فوصلت إلى كوكاوة حملة بريطانية فى نوفمبر ١٨٩٠، وقد لقيت الترحيب من جانب شيخ برنو فى بداية الأمر، غير أنــه خشى أن يؤدى بقاء الحملة فى كوكاوة إلى تدخل استعمارى فى برنو من جانب بريطانيا، فطلب منها مغادرة بلاده[١].

وعندما سقطت برنو فى يد رابح، حاول البريطانيون أول الأمر استخدامه لضمها إلى مناطق نفوذهم. والمعروف أن رابحًا كان فى خدمة الزبير باشا الذى احتجزته القاهرة عند حضوره إليها لقلقها من نفوذه – فأوعزت الحكومة البريطانية إلى الحكومة المصرية لاستغلال هذه الصلة بين الزبير ورابح لحثه على التعاون مع بريطانيا. ولكن رابحًا لم يستجب لنداء سيده السابق. وقد نهج الفرنسيون نفس المسلك مع الزبير باشا للضغط على رابح لإقامة علاقة معه، ولكن جهودهم ذهبت أدراج الرياح[٢]. خشيت الدول الأوربية أن تؤدى حدة صراعهم لاستعمار منطقة تشاد إلى التصادم فيما بينهم، فاتفقوا على تقسيمها بمقتضى معاهدة وقعت فيما بينهم عام ١٨٩٨، نصت على أن تدخل برنو ضمن مناطق نفوذ بريطانيا. وعقب موت رابـــح عام ١٩٠٠ على يـــد الفرنسيين فى كـــوسيرى، ثـــم مقتل ابنه فضل الله عام ١٩٠٢، أعلن البريطانيون حمايتهم على برنو، وأعادوا الأسرة الكانمية إلى الحكم فى شخص الشيخ غرباى[٣]. واستمر البريطانيون أصحاب النفوذ فى برنو حتى حصلت على استقلالها عام ١٩٦٠[٤].

---

(٣) - Flint, J.E.: Sir George Goldie & the making of Nigeria. p 166.
انظر الفصل الثالث، ص ٧١.

(٣) انظر الفصل الثالث، ص ٧٦.

(٤) الشيخ غرباى عينه الفرنسيون شيخًا على دكوة بدلاً من الشيخ عمر سنده، غير أنه فر إلى كانم لعجزه عن دفع الأتاوة التى فرضها الفرنسوين عليه ولخوفه من فضل الله بن رابح، بعد ذلك عينه البريطانيون شيخًا على برنو عام ١٩٠٢.
- ابراهيم صالح بن يونس: المرجع السابق، ص ص ١٦٥ ـ ١٦٩.

(٥) سامى منصور: نيجيريا عملاق أفريقية التائه، ص ١٠٤.

خاتمة

وبعد، فإن النتائج التى توصل إليها الباحث من هذه الدراسة ذات شقين: **أولهما:** يتعـلق بتولى الأسرة الكانمية السلطة فى برنو، **وثانيهما:** يتعلق بسقوط هذه الأسرة.

وبالنسبة لظروف تولى الأسرة الكانمية حكم برنو، نجد أنها لا تكاد تختلف كثيرًا عن طريقة وصول الأسرة السيفية إلى حكم كانم أولاً ثم حكم برنو ثانية. فالأسرتان الحاكمتان السيفية والكانمية وافدتان من خارج برنو.

فالأسرة السيفية هاجرت من اليمن إلى شرق بحيرة تشاد – خوفًا من أعدائها الأحباش الذين غزوا اليمن عام ٥٢٥ – واستطاعت احتواء السكان الأصليين هناك وأسست سلطنة كانم. ولكن البولالا الذين ينحدرون من سلالة منافسة لهذه الأسرة، تمكنوا من طرد ملوكها من شرق بحيرة تشاد إلى غربها حيث أسسوا سلطنة برنو.

كذلك الحال بالنسبة للأسرة الكانمية، فهى وافدة من كانم. صحيح أن كانم خضعت لحكم برنو فترات طويلة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، وعندما هاجم الفولانيون برنو عام ١٨٠٨ فى عهد السلطان أحمد بن على – الذى استنجد بالكانمى ليساعده ضد الغزوالفولانى، كانت كانم مستقلة عن برنو. وقد تمكن الكانمى وأعـوانه من أهـل كانم من دحـر الفولانيين. وأعـادوا سلطان برنو إلى عاصمته التى طرده منها الفولانيون. غير أن سلاطين الأسرةالسيفية لم يستطيعوا – بسبب ضعفهم – المحافظة عل استقلال برنو ضد الغارات الفولانية المتعاقبة. فاستمروا فى الاعتماد على الكانمى وأعوانه. وقد انتهز الكانمى الفرصة واستولى على السلطة الفعلية فى البلاد بمساعدة أعوانه أهل كانم الذين استقروا فى برنو. وأسس عاصمة جديدة هى كوكاوة.

ولكن تغيير الأسرة الحاكمة وتغيير العاصمة، لم يطرأ من جرائه أى اختلاف فى تكوين وتنظيم برنو. فإن الكانميين لم يقهروا برنو على نفس النسق الذى هزم به الفولانيون الإمارات الهوسوية، فإن انتقال النفوذ من الأسرة السيفية إلى الأسرة الكانمية كان تدريجيًا عن طريق التشبع والامتصاص لا عن طريق الاعتداء.

أما فيما يتعلق بسقوط الأسرة الكانمية فنجد أيضًا أن الظروف التى مرت بها تتشابه بدرجة كبيرة مع نهاية الأسرة السيفية، وإن ظهرت فى الأفق بعض الأحداث أدت إلى عودة الأسرة الكانمية إلى حكم برنو. فعندما استولى الشيخ محمد الأمين الكانمى على السلطة الفعلية فى برنو. وأسس حكم الأسرة الكانمية، رضى أن تظل الأسرة السيفية فى برنو تحكم بالاسم فقط. واستمر الحال على ذلك حتى عام ١٨٤٦ فى عهد الشيخ عمر بن محمد الكانمى، حين انتهزت الأسرة السيفية – فرصة النزاع على السلطة بين خلفاء الكانمى. وبعدها قامت بحركة تمرد لاستعادة السلطة الفعلية والتخلص من الأسرة الكانمية. لذلك لم يجد الشيخ عمر بن الكانمى – بعد أن اكتسبت الأسرة الكانمية بطول الوقت شرعية الحكم – بدًا من أن ينهى حكم الأسرة السيفية القديمة ويعلن حكم أسرته.

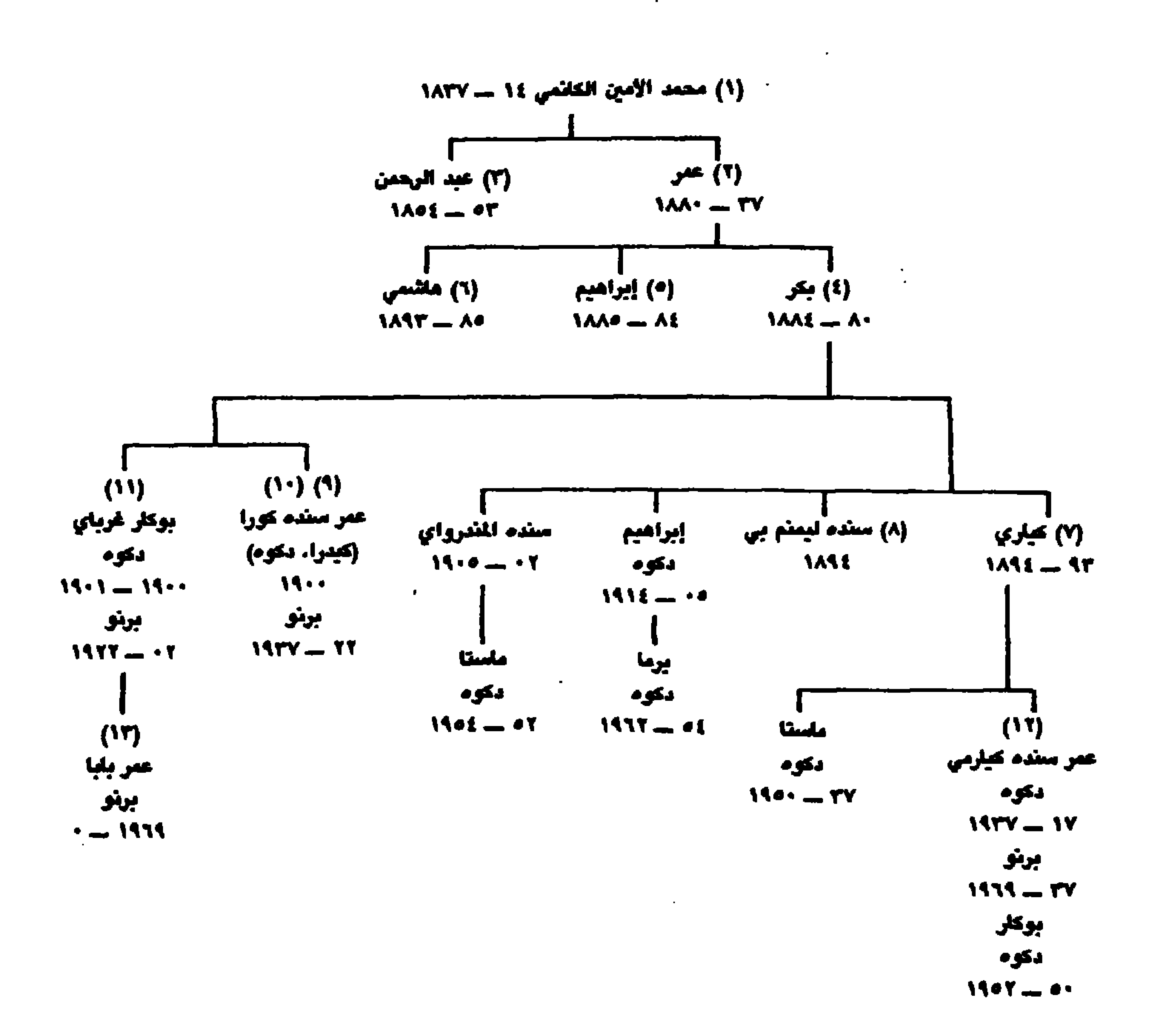
ولكن خلفاء الشيخ الكانمى لم يكونوا فى مثل قوته. فأصيبت البلاد بحالة من الضعف والتفكك وتعرضت للغارات المتوالية من جانب واداى. وظلت على هذا الحال حتى كان عام ١٨٩٣ فسقطت فى يد الفاتح السودانى رابح بن فضل الله؛ الذى أنهى حكم الأسرة الكانمية وأصبح هو الحاكم الفعلى لبرنو.

غير أن أحلام رابح التوسعية فى تكوين امبراطورية شاسعة اصطدمت بمطامع القوى الأوربية فى منطقة تشاد، وقتل فى معركة ضد الفرنسيين عام ١٩٠٠. وأعاد الفرنسيون الأسرة الكانمية إلى حكم برنو مرة أخرى. ولكن تحت الحماية الفرنسية أولاً، ثم تحت الحماية البريطانية ثانيًا، رغم أن البريطانيين كانوا يودون تعيين فضل الله بن رابح حاكمًا على برنو بسبب عدائه للفرنسيين

منافسيهم. ولكن مقتله على يد الفرنسيين، جعل البريطانيين يعيدون الأسرة الكانمية إلى حكم برنو تحت حمايتهم. وقد حكم البريطانيون برنو حكمًا غير مباشر عن طريق رؤساء القرى الذين كانوا خاضعين للمقيم البريطانى فى كوكاوة. ولم يكن لشيخ برنو حينئذ سوى سلطته الإسمية فقط واستمر الوضع هكذا حتى استقلت الأراضى النيجيرية عام ١٩٦٠.

ملحق رقم (١)

شيوخ الأسرة الكانمية[1]



Crowder. M: The Story of Nigeria. P. 328. (١)

ملحق رقم (٢)

خطاب من يوسف باشا (من طرابلس) إلى شيخ برنو

الحمد لله والسلام على النبى محمد خاتم المرسلين .

إلى العالم الكامل الفاضل الغيور فى الدفاع عن العقيدة المحمدية صديقنا المخلص الشيخ محمد الكانمى حاكم إقليم "بارنوه" وشعبها (ويذكر الكتاب أن هذه هى كتابتها الصحيحة), حفظه الله وحماه وأيده وأمد فى عمره بالسعادة والهناء .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ودمتم إلى ما شاء الله .

بلغنى ياسيدى عند سؤالى عن صحتكم – حفظكم الله – أن خطابكم الكريم وصلنا وعلمنا ما به. وأخبرتنا أن ابننا البار أبا بكر بن خلوم قد وصل طرفكم وفى صحبته بعض الأشخاص الإنجليز وهم من أصدقائنا, وأنكم استقبلتموهم بعطف كبير, وأنكم أطلعتموهم على كل الأشياء المدهشة فى بلادكم وأنكم أتحتم لهم مشاهدة الأنهار العظيمة والبحيرات حولها وأنكم أكرمتم وفادتهم وأبديتم تقديركم لنا. جزاكم الله عن كل هذا العطف وحماكم الله ووقاكم. هذه المعاملة الطيبة هى التى توقعناها وكنا متأكدين منها, وذلك لعلمنا بخالص صداكم وللمودة الوطيدة بيننا.

وكل ما نرجوه منكم أن يستمر تأييدكم وحمايتكم ومساعدتكم للرحالة الإنجليز سالف ذكرهم – رغم أننا لا يخالجنا شك فى أنكم لستم فى حاجة لمزيد من التوصية – وأن تمكنوهم من بلوغ السودان للتعرف على ما بها من روائع وأن يعبروا البحار (يقصد الأنهار والبحيرات) ويجتازوا الصحراء هناك . لأن هذه هى رغبة جلالة ملك الإنجليز بنفسه, فنرجوكم بذل ما فى وسعكم وبقصد أن يصلوا إلى السودان سالمين, ومعهم خطابات توصية أو فى صحبة جنود وحرس وبقصد تحقيق رغباتهم وأن يعودوا لنا سالمين ولا يصيبهم مكروه, وأى

عطف يلاقونه إنما هو موجه لشخصنا. ونحن واثقون من رعايتكم ودعهم يـــرون كل الأمكنة التى يرغبون فى زيارتها .

وفى النهاية لكم هدية فاخرة تناسب مقامكم السامى سنرســلها لكــم, وهـــى عبارة عن سلع فاخرة نادرة لها قيمتها, تصل إلى أيديكم بمعرفتنا .

هـــذا كل ما أود قوله فى الوقت الحاضر, وإذا كان لكم أى موضوع عنـــدنا لا تتوانوا فى تعريفنا. والسلام عليكم.

صديقكم (إمضاء)

يوسف باشا[١]

بتاريخ ٢٨ شوال ١٢٣٨ هجرية

الموافق أغسطس ١٨٢٣.

---

(١) Denham, D. & Clapperton, H.: Narrative of travels & discoveres in Nothern & Central Africa, pp. 141-142.

ملحق رقم (٣)

خطاب من شيخ برنو إلى محمد بلو سلطان الهوسا

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ,

إلى حضرة النبيه النزيه المحترم العفيف الوجيه جهبيذ الوقت والأوان وعلامة العصر والزمان إمام المملكة السودانية وحاكم الناحية الحوسية محبنا العلامة محمد بل بن الفهامة الشيخ عثمان عليه من الله سحايب الرحمة والرضوان سلام يقصر شذا المسك دونه ويأمن صروف الدهر أن تخونه ورحمت الله تعالى وبركاته المكنونة المخزونة أما بعد, فباعث التحبير ومثير الرقم والتسطير إعلامكم علمتم الخير ووقيتم الضير أن جنس الإنقليز من النصارى بينهم وبين المسلمين من قديم الأزمنة عهود غير منكوثة ومحبة دنيوية عن الآباء والأجداد موروثة ولذلك يتغلبون فى بلدان الإسلام حيث أرادو ويتخللون الأقطار والأقاليم آمنين كيف شاءوا .. وقد أتوا إلى ناحيتنا هذه فى ذمة الأجل الأفضل المحب الأكمل السيد يوسف باشا صاحب طرابلس طلبوا منه ذلك كى يتنزهوا فى عجائب بلاد السودان ويقفوا على غرائب ما بها من البحار والغياض الناذر(١) مثلها فى كثير من الأوطان ولما قضوا مأربهم مما بأرض برنوح(٢) وما جاورها ..

طلبوا منا المجاوزة إلى جهتكم لما سمعوا أن العجايب ثم مكثرها .. فأذنت لهم فى المسير وأصحبتهم كتبًا تتنزل منزلة الخفير وقدركم أعلى من أن ينبه على ما ورد فى حفظ الذمة عن سيدنا رسول الله شفيع الأمة صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الأفادة الأئمة وقد علمت أن المسلمين تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم

(*) الوثيقة كتبت بالخط المغربى .

(**) الهمزة التى على السطر كتبت نقطة هكذا (.) .

(١) الناذر هنا بمعنى النادر (النقطة التى على الدال وضعت خطأ).

(٢) برنوح أى : برنو .

أدناهم.. فكونوا منهم ببال ولا تطرحوا أمرهم فى زوايا الإهمال ولا يــؤذهم أحــد بقول ولا فعل ولا يتعرض لهم بسوء حتّى يعودوا إلينا إن شاء الله آمنين مطمئنــين مستأنسين كما خرجوا منا.. والله تعالى يجازيكم عنا أحسن الجزاء وينظمنا وإيــاكم فى سلك عباده المقربين الأصفياء.. والسلام على كافة من حَوَتْهُ حضرتكم وعلــى من هو منكم وإليكم عمومًا بلا تخصيص والسلام .

بتاريخ عشية يوم السبت لست بقين من ثانى الربيعين

عام ١٢٣٩ تسعة وثلاثين ومائتين وألف

ملحق رقم (٤)

خطاب من شيخ محمد الكانمى,

رئيس برنو – فى أعماق أفريقيا –

إلى جلالة الملك جورج الرابع

وقد أحضر الخطاب الماجور دنهام

الحمد لله وبركاته والسلام على محمد رسول الله . من عبد الله– محمد الأمين ابن محمد الكانمى.

إلى العظيم والمحترم جلالة ملك الإنجليز, وتحية له منا .

وحيث وفد علينا رسلكم, المسافرين عبر أراضينا وبغرض التعرف على أشياء عظيمة – حسب قولهم – فقد أحسنا وفادتهم, واهتممنا بوصولهم بمناسبة ما سمعناه عن صلاتكم بالمسلمين والعلاقات الطيبة بينكم وبين ملوكهم والتى سادت فى عهدكم وكذلك فى عهد آبائكم وأجدادكم (خلفائكم).

ولذلك فقد راعينا هذه الصداقة, وتعرفنا معهم تبعًا لما تستحقه وبقدر ما سمحت به مشيئة الله عز وجل. وقد قدم الرسل تحياتكم لنا. وما ذكر بخطابكم من أنكم لا تمانعون – إذا رغبنا فى شىء من بلادكم – فلا يسعنا إلا أن نشكر لكم هذا (العرض) من جانبكم.

ويعودون (يقصد الرحالة) إليكم بعد أن حققوا رغباتهم, ولكن أحدهم وافته منيته. والفقيد هو الطبيب وكان رجلاً ممتازًا وحكيمًا .

وقد طلب الريس خليل (الاسم الحركى للماجور دنهام أثناء الرحلة) التصريح لتجار العاج وريش النعام والسلع الأخرى التى لا توجد ببلاد الإنجليز أن يأتوا إلينا. وقد أخبرتهم أن بلادنا – كما شاهدها بنفسه لا تناسب أى مسافر كثير

الأحمال (غنى)، والذى قد يكون فى حوزته ثروة كبيرة ولكن لا ضرر من أشخاص قلائل – أربعة أو خمسة فقط بأموال وبضائع قليلة. ولكن إذا رغبتم فى إرسال أكثر من هذا العدد فلا بد من أن يصحبهم الريس خليل لأنه يعرف الناس والبلاد وأصبح كفرد من السكان.

والأشياء التى نحتاجها قد دونت فى ورقة على حدة نقدمها لكم.

واكتبوا لقنصلكم فى طرابلس وفى القاهرة، ترغبونهم فى أنه إذا ذهب إليهم أحد من أتباعنا أو رجالنا سواء بطريق البر أو البحر لأى أمر من الأمور، فعليهم مساعدته وتلبية طلباته والسلام عليكم.

تحريرًا فى مساء السبت فى منتصف شهر ذى الحجة عام ١٢٩٣ من الهجرة والموافق أغسطس ١٨٢٤ .

"ختم بمشيئة الله من (عبد الله) بن الأمين بن محمد الكانمى"[١]

---

(١) Denham, D. & Clapperton, H. : op.cit., PP. 139-140

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

إلى حضرة النبيه الذي به السعد [illegible] الوجيه [illegible] والاوان
[illegible] العصر والزمان أعلام المملكة السودانية وحاكم الناحية [illegible]
[illegible] بينا الاعلام [illegible] الى الحدائق التي [illegible] عليهم من الله سحائب
الرحمة والرضوان [illegible] فقد [illegible] المسلك دونه و[illegible] صروف الدهر
[illegible] وسنة الله [illegible] بركة [illegible] الحضرة [illegible] اما بعد
[illegible] النعيم [illegible] والاخبار اعلامكم علمنا الخبر [illegible]
[illegible] النصارى [illegible] وبين المسلمين [illegible] الأزمنة
[illegible] الاجداد [illegible]
[illegible] ذلك [illegible] حيث أرادوا [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] بلاد السودان [illegible]
[illegible]
[illegible] بأرض [illegible] وما جاورها [illegible]
[illegible] لما سمعوا ان [illegible] ثم [illegible]
[illegible] كنا ننزل منزلة [illegible]
[illegible] في حفظ الأمة عن سيدنا رسول الله [illegible] الأمة
صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الأئمة [illegible] وقد علمت ان المسلمين
[illegible] وبعضهم [illegible] منهم [illegible]
[illegible] احد [illegible]
[illegible] ان شاء الله [illegible]
[illegible] والله تعالى يجازيكم عنا احسن الجزاء [illegible] واياكم
[illegible] عباده [illegible] والسلام على [illegible]
[illegible] وعلى [illegible] والتعظيم والسلام

قائمة بالأشياء التى طلبها الشيخ محمد الأمين الكانمى[*]

من البعثة الإنجليزية التى زارت برنو عام ١٨٢٣

وأيضًا الأشياء التى عرض الريس خليل (دنهام) إرسالها

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله,

وبعد, فقد طلب منا الريس[١] خليل فستيان [٢] الانقليز [٣] أن أكلفه قضاء بعض ما يلزم من المصالح وألح عليَّ فى ذلك وذكر أن الرى[٤]. عظيم الانقليز كتب له بذلك ولما رأت إلحاحه ورغبته فى هذا أجبته لما طلب .. وهذا ما يلزم من المصالح :

قالب سكة .. صانع مراكب .. صانع منجنيق.. أدوية لكل علة من طبيب ماهر.. فص يقوت أحمر.. فص زبرجرد أخضر.. دواء السم المجرب حجر أو قرر[٥]. أو غيره ذلك.. مدافع.. ما تيسر من السلاح المليح.. والبارود الفائق.. والثقيل والصوان.. حداد ماهر فى صنعة الزناد.. نجار صناديق وغيرهم من العود.. مرآة هندية رأس العمل غاية ما يكون فى الكبر والجودة .

لوح اسطرلاب عمل ماهر فى هذا الفن .. الساعة التى تضرب فى كل ساعة بعدد ما مضى من الساعات ..

المطلوب من الرايس خليل من نفسه[٦] فراش مرتفع قد ذراع أو أزيد على قدر هذه الحصيرة فى الطول والعرض .. قالب متاع صب الشمع .. نصيب من

(*) الوثيقة كتبت بالخط المغربى .

(١) الريس خليل اسم حركى للماجور دنهام الرحالة الإنجليزى الذى رأس البعثة الإنجليزية التى زارت برنو عام ١٨٢٣ .

(٢) فستيان : زائر .

(٣) الانقليز : الإنجليز .

(٤) الرى أى : ملك بالإنجليزية (ROY)

(٥) قرر أى : زجاجات

(٦) أشياء لم يطلبها الشيخ محمد الكانمى واقترح الريس خليل إرسالها .

الكاغط [١] المليح.. دهن الخجلة.. انقارية[٢].. ملح الانقليز.. شمع متــاع وقيــد[٣] ومتاع تشميع.. أمواس ملاح.. أمغض كبار وصـــغار.. مبــارد حديــد.. كيــر.. بارود.. وصوان.. ثقيل.. زاوق..

---

(١) الكلمة غير معجمة وما قرأناه أقرب إلى الصواب والكاغط نوع من الورق .
(٢) انقارية : هى اللهب .
(٣) شمع مناع وقيد, هو شمع الإضاءة .
(**) يتضح من هذه الوثيقة الآتى :
(أ) إن محمد الكانمى كان فى حالة حرب مع جيرانه أهل بجرمى ووادای ولذلك طلب من الإنجليز إمداده بالأسلحة ؛
(ب) كانت الأمراض منتشرة فى برنو ولذلك طلب أنواعًا مختلفة من الأدوية ؛
(ج) أراد أن ينقل إلى بلاده بعض مظاهر الحضارة الغربية ولذلك طلب ساعة لحساب الزمن .

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

وبعد فقد طلب منا الرئيس [illegible] ان
اكلفه قضاء بعض ما يلزم من الآلة التي [illegible] على
في ذلك وذكر ان البي عظيم الانقليز كتب له
بذلك ولما رأيت الحاجة ورغبته في [illegible]
اجبته لما طلب وهذا ما يلزم من الصنائع

فالبسكة: صانع مراكب: صانع
[illegible] ادوية لكل علة من طبيب ماهر:
ثم ياقوت احمر: ثم زبرجد اخضر:
دواء السم العجيب جبرا وشرا او [illegible]
مدافع: ما تيسر من السلاح المليح:
والبارود الجامد والتفيل والنصوارة:
حداد ماهر في صنعة الزناد: نجار
صناديق وغيرهم من العود: مراة
هندية راس العمل غاية ما يكون
في الكبر والجودة: لوح اسطرلاب
عمل من هو [illegible] الساعة
التي تضرب في كل ساعة بعدد ما
مضى من الساعات:
تم

الكتابة التي في هذه الدراهم الاوسط

... الاكبر

ضرب في
ارض برنوا
بمدينة كوكوا

محمد

ضرب في ارض
برنوا بمدينة
كوكوا
عام

الكبير يكون وزنه اثني عشر درهما
والمتوسط يكون وزنه ستة دراهم
والصغير يكون وزنه درهم واحد

الأمين

ملحق رقم (٥)

المعاهدة التى أبرمها شيخ برنو عمر بن محمد الأمين الكانمى مع الحكومة البريطانية – ٥ أغسطس ١٨٥١

فلتكن مشيئة الله الذى بيده عون العبد

عمر بن محمد الأمين الكانمى

(ختم)

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد الله رب العالمين والسلام على سيدنا محمد سيد الأنبياء والمرسلين والسلام على آله وصحبه أجمعين, استئنافًا لما سبق نقول بأن وثيقة دولة الإنجليز (أى انجلترا) التى تضمنت النصوص والبنود المذكورة فى هذه الوثيقة القانونية كانت قد وصلت إلى أكثر القادة مثالية واحترامًا بل زهرة القادة وأوسعهم شهرة وأكثرهم مجدًا وأبرزهم صيتًا, ذلك النور الساطع لمملكة برنو وفيه تبلورت سعادة تلك المناطق الإسلامية, ذلك الإمام الذى كان من أكثر الأئمة قوة وجبروتًا وأوسعهم صيتًا وأوفرهم حظًا وأكثر مداعاة للعجب كما كان سراجًا مضيئًا لعصره ودرة مكتملة, وكان فى مكانه من الصدارة, ألا وهو سيدى الشيخ عمر وكان ابن رجل يعرف الله حق المعرفة وهو سيدى الشيخ محمد الأمين الكانمى (كان الله فى عونه ومؤازرته) ولقد تمعن ذلك الإمام القدير فيما تضمنته الوثائق من النصوص صادفت من نفسه قبولاً واستعدادًا وأمر واحد من كتابه أن يسجل كلاً من الستة نصوص التى وردت من تلك الدولة (إنجلترا) وكانت الإجابة على تلك النصوص من وحى المذهب الحنفى فى الدين الإسلامى, وسوف نورد فيها يلى تلك النصوص والردود عليها بموجب مبادئ الشريعة المقبولة والمعمول بها:

□ **البند الأول** :

لا يجب أن يحال بين الإنجليز وبين دخولهم أراضى برنو وأقاليمها كما لا يجب منعهم من التجول والتنقل فى تلك الأراضى ويجب اعتبار المستوطنين منهم فى تلك الأراضى كأصدقاء لشعب برنو وأقاليمها التابعة لها وذلك مدة إقامتهم بها كما يجب عدم تعرض أشخاصهم وممتلكاتهم للخطر, ولا يجب أيضًا أن يحال بينهم وبين السفر فى أى وقت يشاؤون ولهم مطلق الحق فى نقل ممتلكاتهم كيفما يشاء لهم, والإجابة على هذا هى : عدم تعرضهم لأى ظلم كما يجب التحفظ عليهم وعلى ممتلكاتهم ضد أى خطر من جانب أى فرد من الأفراد كما لا يجب أن تكون هناك أية عوائق فى سبيل تجولهم وانتقالهم ونقل ممتلكاتهم فى أى وقت يشاؤون .

□ **البند الثانى** :

يجب أن يعامل رعايا ملكة (سلطانه) بريطانيا على قدم المساواة مع شعب برنو فيما يتعلق بكافة البضائع التى يرغبون فى بيعها أو ابتياعها فى جميع المناطق وعلى حاكم برنو أن يضمن لهم عدم تفضيل أى تاجر من الأجناس الأخرى عليهم والإجابة على هذا هى: عدم وضع أى معوقات أمامهم فى بيع أو ابتياع أى من السلع الشرعية بموجب شريعة محمد عليه السلام, أى فيما يتعلق بالسلع غير الشرعية كالمتاجرة فى الرقيق ونسخ القرآن وما شابه ذلك فلا يباح لهم ذلك, وعلى كل حال ففيما يتعلق بعدم جواز تفضيل أى من الأجناس الأخرى عليهم فإنهم إذا ما كانت تلك الأجناس تدين بالدين المسيحى فلا يجب المفاضلة بينهم أو تمييز الإنجليز عليهم حيث إن دين المسيحيين هو دين واحد ولما كان الأمر كذلك فالمسيحيون سواسية أمامنا ولهم الحق جميعهم فى نفس الحماية.

□ **البند الثالث** :

تأمين الطرق وجعلها مأمونة من المخاطر فى كافة بقاع برنو وعدم منع التجار الإنجليز من نقل بضائعهم من مدينة إلى أخرى مع عدم منع التجار الآخرين من المرور بتلك الطرق والمتاجرة معهم – والإجابة على هذا هى: عدم وضع أية معوقات أمامهم فى هذا الصدد فى حالة عدم وجود أى خروج أو انشقاق عن الشريعة المحضة .

□ **البند الرابع :**

يخول لملكة (سلطانة) بريطانيا الحق فى تعيين وكيل لها ليعيش فى أراضى برنو للإشراف على شؤون الإنجليز على أساس البنود المنصوص عليها فى الاتفاقية وأن يمنح هذا الوكيل التعزيز والحماية وأن توضع كلماته موضع الإنصات والالتفات والاهتمام وأن تضمن سلامة شخصيته وممتلكاته مهما كانت, وبخلاف ذلك يجب معاملته بموجب ما تمليه علينا الشريعة حيث أنه لا يليق بنا أن نخرج على حدودها أو نتعدى عليها .

□ **البند الخامس :**

يجب على سيدى حاكم برنو الشيخ عمر الكانمى أن يضاعف نشاطه لتسهيل وتأمين مراسلات رعايا ملكة بريطانيا التى قد يرسلونها إلى أو يتسلمونها من ذويهم فى بريطانيا, والإجابة على هذا هى: أن هذا أمر يسير وسهل لا يدعو إلى مضاعفة جهود حاكم برنو فلن يكون هناك أى فقدان للرسائل كما لن يكون هناك أى شيء غير مستساغ فى هذا الصدد .

□ **البند السادس :**

يجب على حاكم برنو أن يصدر قانونًا بهذه المعاهدة مع التركيز على تنفيذ هذه الشروط وعليه أن يقوم بنشرها منذ إبرامها وطوال مدة وضعها موضع التنفيذ, والإجابة على هذا هى : أننا نجب أن نشير إليها بموجب حالة الدولة وموقعها وعلى غرار النسق الذى وافقنا فيه على منح تلك النصوص لكم . هذا غير مجموع ما كتب فيما يتعلق بتلك النصوص والبنود وقد وضعت فى القالب الكتابى الرسمى فى صباح يوم الثلاثاء الموافق ٧ من شهر شوال عام ١٢٦٧ هجرية .

وكان الله رحيمًا لمن كتبها – أمين(١)

---

(١) Barth, H.: Travels and discoveries in Northen and Central Africa. Vol. 2. PP. 575-576؛
Adeleye. R.A : Power and diplomacy in Northern. PP. 331-333

المراجع

أولاً – المراجع العربية:

- آدم عبد الله الألورى: الإسلام فى نيجيريا. ط٢، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٧١.
- إبراهيم صالح بن يونس: تاريخ الإسلام وحياة العرب فى إمبراطورية كانم – برنو. الخرطوم، كلية الآداب / جامعة الخرطوم، ١٩٧٠
- إبراهيم على طرخان (د.): إمبراطورية البرنو الإسلامية. القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥.
- دولة مالى الإسلامية. القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢.
- أبو العلا عفيفى وآخرون: مصطلحات الفلسفة. القاهرة، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والأدب، ١٩٦٤.
- أحمد شلبى (د.): موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية. القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٢، الجزء السادس.
- أرنولد، توماس: الدعوة إلى الإسلام. ترجمة حسن إبراهيم حسن، عبد المجيد نعمان، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٤٧.
- إسماعيل سرهنك باشا: حقائق الأخبار عن دول البحار. القاهرة مطبعة بولاق، ١٣١٢هـ، الجزء الثانى.
- ابن بطوطة، (شرف الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله إبراهيم ابن يوسف اللواتى الطنجى) (ت ١٣٧٧م): تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار. ط٢، القاهرة، مطبعة التقدم، ١٣٢٢هـ الجزء الثانى.

- جلال يحيى (د.): الثورة المهدية وأصول السياسة البريطانية فى السودان. القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٩.
- حافظ وهبة: جزيرة العرب فى القرن العشرين. القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٣.
- حسن أحمد محمود (د.): الإسلام والثقافة العربية فى أفريقية. القاهرة مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٨، الجزء الأول.
- حسن إبراهيم حسن (د.) انتشار الإسلام والعروبة فيما يلى الصحراء الكبرى. القاهرة معهد الدراسات العربية، ١٩٥٧.
- حسن سليمان محمود (د.): ليبيا بين الماضى والحاضر. القاهرة، مؤسسة سجل العرب، ١٩٦٢، العدد ٤٢٦ – الألف كتاب.
- ابن خلدون، عبد الرحمن (ت ١٤٠٥م): كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر. القاهرة، المطبعة الأميرية، ١٢٨٤هـ، الجزء السادس.
- أبو داود، سليمان بن الأشعل بن إسحاق بن بشير الأزدى السجستانى (ت ٨٨٩م): سنن أبى داود. تصحيح نصر الوفائى الهورينى، المطبعة الكستلية، ١٢٨٠هـ، الجزء السادس.
- ديشان، هوبير: الديانات فى أفريقية السوداء. ترجمة أحمد صادق حمدى، القاهرة، دار الكتاب المصرى، ١٩٥٦.
- سامى منصور (د.) نيجيريا عملاق أفريقية التائه. القاهرة دار المعارف، ١٩٦٦.
- سعد الدين الزبير: الزبير باشا رجل السودان. القاهرة، ١٩٥٢.

- ابن سعيد المغربى، أبو الحسن على بن موسى بن سعيد الغرناطى (ت ٢٨٦م): كتاب بسط الأرض فى الطول والعرض. وتحقيق خوان فرنيط خينيس، تطوان (المغرب)، معهد مولاى الحسن، ١٩٥٨.
- سليجمان، س. ج.: السلالات البشرية فى أفريقية. ترجمة يوسف خليل، القاهرة مكتبة العالم العربى، ١٩٥٩.
- الشاطر بوصيلى عبد الجليل: تاريخ وحضارات السودان الشرقى والأوسط من القرن السابع إلى التاسع عشر للميلاد. القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢.
- شوقى الجمل (د.): تاريخ سودان وادى النيل. القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧١.

– تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها. القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧١.

- صلاح العقاد (د.) المشرق العربى المعاصر. القاهرة، الأنجلو المصرية، ١٩٧٠.
- صلاح صبرى: أفريقية وراء الصحراء، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٠.
- عبد الرحمن زكى (د.): الإسلام والمسلمون فى غرب أفريقية. القاهرة، معهد الدراسات الإسلامية، د.ت.
- تاريخ الدول الإسلامية السودانية بأفريقية الغربية. المؤسسة العربية الحديثة، ١٩٦١.
- عبد الكريم الغرايبة: قيام الدولة السعودية العربية. القاهرة، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٤٧.
- لين، وليم إدوارد: المصريون المحدثون، شمائلهم وعاداتهم. ترجمة عدلى طاهر نور، القاهرة، مطبعة الرسالة، ١٩٥٠.

• محمد بلّو: إنفاق الميسور فى تاريخ بلاد التكرور. القاهرة، وزارة الأوقاف، ١٩٦٤.

• محمد خير فارس. (د.): المسألة المغربية ١٩٠٠ - ١٩١٢. القاهرة، معهد الدراسات العربية، ١٩٦١.

• محمد عوض محمد (د.): الشعوب والسلالات الأفريقية. القاهرة، الدار القومية للتأليف والترجمة، ١٩٦٥.

• محمد فؤاد شكرى (د.): السنوسية دين ودولة. القاهرة، دار النشر العربى، ١٩٤٨.

- مصر والسودان ؛ تاريخ وحدة وادى النيل السياسية فى القرن التاسع عشر ١٨٢٠ - ١٨٩٩. القاهرة، دار المعارف، ١٩٥٧

- الحكم المصرى فى السودان: القاهرة. دار الفكر العربى، ١٩٤٧.

• محمود شاكر: نيجيريا، بيروت، مطبعة الرسالة، ١٩٧١.

• مكى شبيكة (د.): السودان عبر القرون. بيروت، دار الثقافة، ١٩٦٤.

• ميكاكى، رودلفو: طرابلس الغرب تحت حكم أسرة القرة مانلى. ترجمة طه فوزى، القاهرة، معهد الدراسات العربية، ١٩٦١.

• نازلى معوض أحمد يوسف: الحركة الانفصالية فى نيجيريا "قضية بيأفرا). القاهرة، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية / جامعة القاهرة، ١٩٧٤ (رسالة ماجستير غير منشورة).

• نعوم شقير: جغرافية وتاريخ السودان. بيروت، دار الثقافة، ١٩٦٧.

• نعيم قداح: أفريقية الغربية فى ظل الإسلام. دمشق، وزارة الثقافة والإرشاد القومى، ١٩٦٠.

• ونسنك، أ. ى: المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى، لندن، مكتبة بريل، ١٩٣٦، الجزء الأول.

ثانياً ـ المراجع الأجنبية:

* Adeleye, R.A.: Power & diplomacy in northern Nigeria 1804-1906. London, Longman, 1971.
* Ademoyega, W.: The federation of Nigeria from earlist time to independence. London, George G. Harrap, 1962.
* Ahmed Ibn Fartua: History of the first twelve years of the region of Mai Idriss Alooma of Bornu (1571-1583) Translated by H. R. Palmer. Lagos, the Government Printer, 1926.
* Al-Haji, A.A.: Hayatu B. Sa'id: A Revolutionary Mahdist in the Western Sudan in Africa edited by Yusuf Fadl Hasan, Khartoum, Khartoum University, 1971.
* Al-Naqar, Umar: The pilgrimage tradition in West Africa. Khartoum, Khartoum University, 1972.
* Anderson, J.D.: West Africa and East Africa. London, Heinemon, 1972.
* Anderson, J.N.D.: Islamic Law in Africa. London, Frank Cass, 1970.
* Arkell, A.J.: A History of the Sudan. London, University of London, 1955.
* Barth, H.: Travels and discoveries in north and Central Africa. London, Frank Cass, 1965 (Vol. 2).
* Boahen, A.A.: Britain, The sahara and the Western Sudan 1788-1861. Oxford, Clarendon Press, 1964.
* Boibaku, S. & Al-Haji, Muhammad: The sudanese Mahdiyya & The Niger-Chad Region; Islam in Tropical Africa, edited by I.M. Lewis. Ondon, Oxford University, 1969.
* Bovill, E.W.: The golden trade of the moors. 2nd ed. London, Oxford University, 1968.
  — The Niger explored. London, Oxford University, 1968.
* Brenner, L.: The shehus of Kukawa; A history of the Al-Kanemi dynasty of Bornu. London, Oxford University, 1973.
* Briggs, L.C.: Tribes of the Sahara. London, Oxford University, 1960.
* Burns, Sir Alan: History of Nigeria. London, George Allen, 1963.
* Carbou, H.: La region du Tchad et Ouadai. Paris, Ernest Leroux, 1912.
* Church, R.J.H.: West Africa. 7th ed. London, Longman, 1974.

★ Cissoko, Sekéné-Mody: Histoire de l'Afrique Occidentale. Paris. Perence Africaine. 1966.
★ Coleman, J.: Nigeria. Background to nationalism. California. California University. 1960.
★ Collins, R.O.: African history. N.Y.. University of California. 1971.
★ Crowder, M.: The story of Nigeria. London, Faber & Faber, 1973.
— West Africa under colonial rule. London, Hutchinson, 1968.
★ Dechamps, H. et des Autres: Histoire generale de l'Afrique noire. Paris, presses Universitaires, 1971 (Tome II).
★ De la blache, P.V. & Gallois, L.: Geographique Universelle. Paris, Armand Colin, 1927 (Tome XI).
★ Denham D. & Clapperton, H.: Narrative of travels & discoveries in northern and Central Africa. London, John Murray, 1826.
★ Dike, K.O.: Trade and Politics in Niger-Delta 1830-1835. London, Oxford University, 1956.
★ Fage, J.D.: A history of West Africa: An introductory survey. 4th ed. London, Cambridge University, 1969.
★ Fisher, A.G.B. & Fisher, H.J.: Slavery and Muselim Society in Africa. London, C. Hurst, 1970.
★ Flint, J.E.: Sir George Goldie & the making of Nigeria. London, Oxford University, 1960.
★ Gautier, E.E.: Sahara, the great desert. London, Frank Cass, 1970.
★ Hallet, R.: El-Kanemi of Bornu; eminet Nigerian of the nineteenth Century. London, Cambridge University, 1960.
★ Hargreaves, J.D.: Prelude to the partition of West Africa. London, Macmillan, 1963.
★ Helmpstone, S.: The New Africa. London, Faber & Faber, 1961.
★ Hertslet, K.C.B.: The map of Africa by treaty. London, Majesty's stationary Office, 1909 (Vol. 2).
★ Heussler, R.: The Brtish in Northern Nigeria. London, Oxford University, 1968.
★ Hodgkin, T.: Mahdism, Missianism and Marxism in the African Setting, Sudan in Africa, edited by Yusuf Fadl Hasan. Khartoum, Khartoum University, 1971.
— Nigerian Perspectives. London, Oxford University, 1960.
★ Hogben, S.J.: The muhammadan emirates of Nigeria. London, Oxford University, 1930.

★ Hogben, S.J. & Kirk-Greene, A.H.M.: The emirates of Northern Nigeria. London. Oxford University. 1966.

★ Holt, P.M.: The Mahdist state in the Sudan 1881-1898. 2nd ed. Oxford. Clarendon Press, 1970.

★ Holt, P.M. & Lambton, A.K.S.: The Cambridge history of Islam. London. Cambridge University. 1970. (Vol. 2).

★ Ifemesia, C.C.: Bomu under the shehus; A thousand years of African history, edited by J.E. Ajayi & Others. London, University of Ibadan. 1969.

— States of the Central Sudan; A thousand years of African history, edited by J.E. Ajayi & Others. Ibadan, University of Ibadan, 1969.

★ Johnston, H.H.: A History of Colonization of Africa. London, Cambridge University, 1913.

★ Kanya-Forstner, A.S.: The Caonquest of the Western Sudan. Cambridge, Cambridge University, 1969.

★ Kirk-Greene, A.H.M.: Barth's travels in Nigeria. London, Oxford University, 1962.

★ Lukas, J.: A study of the Kanuri Language. London, International Institute of African Languages & Cultures, 1937.

★ Meek, C.C.: The northern tribes of Nigeria. London, Oxford University, 1925 (Vol. 1).

— Tribal Studies in Northern Nigeria. London, Kegan Paul, 1931 (Vol. 2).

★ Nachtiga, G.: Sahara and Sudan, Translated from German to English by A.G.B. Fisher & H.J. Fisher, London, C. Hurst, 1971 (Vol. 4).

★ Oliver, R. & Atmore, A.: Africa since 1800, 2nd ed. London, Cambridge University, 1972.

★ Palmer, R.: The Bomu Sahara & Sudan. London, John Murray, 1936.

★ Perham, M.: Lugard; the years of advanture 1858-1898. London, Collins, 1956.

— Lugard; the years of authority 1898-1945. London, Collins, 1960.

★ Perham, M. & Bull, M.: The dairies of Lord Lugard. London, Faber & Faber, 1963 (Vol. 4).

★ Robinson, R. & Others & the victorians. London, Mamillan, 1961.

★ Schwarz, F.A.O.: Nigeria, the tribes, the nation, or the race: N.Y., Masschusetts institute, 1965.

★ Schwarz, W.: Nigeria. London, Pall Mall Press, 1968.
★ Smith, H.F.C.: Usumanu dan Fodio; eminent Nigerians of the nineteenth century. London, Cambridge University, 1960.
★ Smith, M.G.: The Jihad of Shehu dan Fadio; some problems; Islam in tropical Africa, edited by I.M. Lewis. London, Oxford University, 1969.
★ Thomson, A.A. & Middleton, D.: Luggard in Africa. London, Robert Hale, 1959.
★ Trimingham, J.S.: A history of Islam in West Africa. London, Oxford University, 1968.
— Influence of Islam upon Africa. London, Longmans, 1968.
★ Urvoy, Y.: Histoire de l'empire du Bornu. Paris, Librarie Larose, 1947.
— Histoire du Populations du Sudan Central. Paris, Librarie Larouse, 1936.
★ Watson, G.D.: A human Geography of Nigeria. London, Longman, 1960.
★ Williamson, J.A.: The foundation & Growth of the British Empire, 5th ed. London, Macmillan, 1956.

ثالثاً ــ الدوريات:

(أ) الدوريات العربية:

• إبراهيم علي طرخان (د.): الإسلام واللغة العربية في غرب أفريقية، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مايو ــ ديسمبر، ١٩٦٥.
• حسن أحمد محمود (د.): دور العرب في نشر الحضارة في غرب أفريقية. المجلة التاريخية المصرية، مج ١٤، ١٩٦٨.
• مصطفى محمد مسعد (د.): الإسلام وحركات الفولان في غرب أفريقية. مجلة جامعة أم درمان الإسلامية، ع ١، ١٩٦٨.

(ب) الدوريات الأجنبية:

★ Adeleye, R.A.: Rabih B. Fadlallah & the diplomacy of European Invasion in the Central Sudan; (Journal of the Historical Society of Nigeria, Vol. V, No. 3, Dec. 1970).

— Rabih Fadlallah 1879-1893; Expoits and impact on Political relations in Central Sudan (Journal of the historical society of Nigeria, Vol. V, No. 2, June 1970).
★ Bivar, A.D.H.: Arabic documents of Northern Nigeria, (Bulletin of the School Oriental & African studies, Vol. XXII, Part 1, 1959).
★ Brenner, L.: Legitimizing Political behaviour in Borno (Journal of the Historical Society, Vol. VII, No. 2, June 1974).
★ Hallam, W.K.R.: An Introduction to the history of Bornu. (The Nigerian Field, Vol. XXXV, No. 4, Oct. 1970).
— The Shehu's installation eventfull Bornu Ceremony (Nigeria Magazine, No. 99, Dec. 1968).
★ Hubbard, J.P.: African attitudes to Western education in Northern Nigeria (The fifteenth annual of the Afrcian studies Association, Nov. 1972).
★ Martin, B.C.: Kanem, Bornu, and Fezzan; notes on political history of trade route, (Journal of African History, Vol. X, No. 1, 1969).
★ Willis, J.R.: Jihad fi sabil Allah — its doctrinal basis in Islam and some aspects of its evolution in nineteenth-century West Africa, (The Journal African History, No. 3, 1967).

رابعاً ــ دوائر المعارف:

(أ) العربية:

• يوفر، ج: البرنو. دائرة المعارف الإسلامية، القاهرة، لجنة دائرة المعارف الإسلامية، ١٩٣٨، مج ٣، ع ٩.

(ب) الأجنبية:

★ D'Alviella, G.: Animism; (Encycolopedia of Religion and ethics. Edinburg, T. & T. Clark, 1908, Vol. 1.
★ Marrett, R.R.: Animism; (Encycolopedia Britannica, London, 1960, Vol. 22.

خامساً ــ الأطالس:

★ Fage, J.D.: An Atlas of African History. London, Edward Arnold, 1973.
★ Urvoy, Y.: Petit Atlas ethno-demographique du Soudan entre Sénégal et Tchad. Paris, Librarie Larose, 1942.

المؤلف فى سطور

د. مصطفى على بسيونى أبو شعيشع

أستاذ الوثائق بقسم المكتبات والوثائق والمعلومات بكلية الآداب – جامعة القاهرة.

حاصل على درجة الليسانس من قسم المكتبات والوثائق عام ١٩٦٤ والدكتوراه فى التاريخ من معهد الدراسات الأدبية عام ١٩٧٩.

عمل مدرسًا بقسم المكتبات والوثائق ١٩٨٠، ثم أستاذًا مساعدًا ١٩٨٧، وأستاذًا عام ١٩٩٢ ثم رئيسًا للقسم فى الفترة من ٢٠٠٠ إلى ٢٠٠٣.

عمل ببعض الجامعات السعودية فى الفترة (١٩٨٤ – ١٩٨٩).

له عدد من المؤلفات والمترجمات فى مجال الوثائق والمعلومات والتاريخ منها:

- الزراعة السودانية فى ق ١٩ دراسة وثائقية، مكتبة الثقافة بالإسكندرية.
- توكيل شرعى من العصر المملوكى دراسة ونشر تحقيق يوليو ١٩٨١ مجلة المكتبات والمعلومات العربية.
- وثيقة ميراث من العصر العثمانى دراسة ونشر تحقيق التراث ، أكتوبر ١٩٨١ مجلة المكتبات والمعلومات العربية.
- وثيقة زواج دراسة نشر وتحقيق أبريل ١٩٨٣ مجلة المكتبات والمعلومات العربية.
- أعلام الموثقين فى ق ٩ يوليو ١٩٨٤ مجلة المكتبات والمعلومات العربية.
- الكتاب العربى فى مصر بين المخطوط والمطبوع يوليو ١٩٨٤ مجلة عالم الكتب بالرياض.

- وثيقة بيع دراسة نشر وتحقيق سبتمبر ١٩٨٤ مجلة المكتبات والمعلومات العربية.
- مصادر الحضارة الإسلامية ومراجعها ديسمبر ١٩٨٦ مجلة عالم الكتب بالرياض.
- تعداد النفوس فى مصر ١٨٤٦ دراسة وتحقيق – عالم الكتب بالرياض ، يوليو ١٩٨٧.

الإشـــراف الفنـــى : راندة عبـــد الكريم
المراجعة اللغوية : سوزان عبد العال



كانت سلطنة برنو بحكم ظروفها وموقعها هدفًا للحركات الإصلاحية التى ظهرت فى منطقة بحيرة تشاد، وفى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر تمكن الفولانيون - بسبب ضعفها - من الاستيلاء على الإمارات الهوسوية التابعة لها وكونوا إمبراطوريتهم، وهاجموا برنو نفسها بهدف ضمها إلى ممتلكاتهم، وبدا واضحًا أن برنو سوف تضم أو تدمج فى الإمبراطورية الفولانية.

فى ذلك الوقت ظهر مصلح من كانم هو محمد الأمين الكانمى، وتمكن هذا القائد أن يتزعم حركة الجهاد ضد الفولة، وأن يحافظ على استقلال برنو وأمنها.



